الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي



ماليز روثفن

أكاديميا

من مواضيع الأطلس:

العصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام
* رسالة النبي محمد ﷺ وغزواته *
السُّنّة، والشيعة، والخوارج * الخلافة
العباسية * انتشار الإسلام * الشرع
الإسلامي واللغة العربية * الدولة
الفاطمية * طرق التجارة * الممالك
الصليبية * الطُّرُق الصوفية * الأيوبيون
والمماليك * الغزو المغولي * المغرب
وإسبانيا * الدول الجهادية * السلطنة
العثمانية * إيران * آسيا الوسطى *
التوسُّع الروسي * انتشار الإسلام في
جنوب شرقي آسيا * السيطرة الاستعمارية
* البلقان * تنامي الحجّ * مدن متمدّدة *
تأثير النفط * الموارد المائية * تجارة
السلاح * العراق * أفغانستان * إسرائيل –
فلسطين * المسلمون في أوروبا الغربية *
المسلمون في أميركا الشمالية * الفنون
الإسلامية * توزُّع المسلمين في العالم *
السينما الإسلامية * المواقع الأثرية
الإسلامية

الأطلس التاريخي
للعالم الإسلامي

الأطلس التاريخي

للعالم الإسلامي

تأليف

ماليز روثفن

بمشاركة

عظيم نانجي

نقله إلى العربية واعتنى بخرائطه

سامي كعكي

أكاديميا

الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي

ISBN: 9953-3-377-9

Historical Atlas of The Islamic World

Academia International أكاديميا إنترناشيونال
Verdun St., Byblos Bank Bldg. شارع فردان، بناية بنك بيبلوس
P.O.Box 113-6669 ص.ب
Beirut 1103 2140 Lebanon بيروت، لبنان
Tel. (961 1) 800811 - 862905 - 800832 هاتف
Fax (961 1) 805478 فاكس
E-mail academia@dm.net.lb بريد إلكتروني

www.academiainternational.com

أكاديميا هي العلامة التجارية لأكاديميا إنترناشيونال
ACADEMIA is the Trade Mark of Academia International

مقدمة

قلّما يمر يوم، منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، إلاّ ويُذكر فيه الإسلام، دين ما يُقارب خُمس البشرية، في وسائل الإعلام. في ذلك اليوم، خطف إرهابيون أربع طائرات ركّاب أميركية وصدموا بها برجَيْ مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاغون بالقرب من واشنطن، مما أدّى إلى مقتل زهاء ثلاثة آلاف شخص، ودفع الولايات المتحدة وحلفاءها إلى إعلان ما يُسمى «الحرب على الإرهاب»، التي أسفرت حتى الآن عن القضاء على حكومتين إسلاميتين، واحدة في أفغانستان والأخرى في العراق. وهكذا برز الإسلام فجأة، في كل أنحاء العالم، موضوعاً للتحليل والنقاش. واتسمت السجالات على أعمدة الصحف كما في استديوهات الأخبار، في المقاهي كما في البيوت، بالحدّة والسخونة. والأسئلة التي كانت تدور فيما سبق داخل أروقة المؤتمرات الأكاديمية وندوات التخرّج الجامعية، دخلت الآن في صميم الهموم السائدة للوعي العام: ما هي «شرعة الجهاد»؟ وكيف حدث أن صار «دينٌ مسالم»، ينتسب إليه ملايين المؤمنين العاديين والمحترمين، أيديولوجيا للحقد والكراهية لدى أقلية ساخطة؟ ولماذا أضحى الإسلام بعد سقوط الشيوعية مشحوناً هكذا بالحدّة الانفعالية؟ أو، إذا ما شئنا استخدام عنوان مقالة لاقت رواجاً واسعاً لعميد المستشرقين، برنارد لويس: «ما وجه الخلل» الحاصل في التاريخ الإسلامي، في علاقته بنفسه كما في علاقته بالعالم الحديث؟

أسئلة من هذا الضرب لم تعد بعد الآن أكاديمية بحتة، بل أضحت على درجة كبرى من الأهمية، وموضع أخذ وردّ بالنسبة لمعظم الأمم والشعوب على سطح كوكبنا هذا. فالإسلام، أو قلْ بعض التنويعات منه – سواء أكانت مشوّهة، أم منحرفة، أم فاسدة أم رهينة أُناس متطرفين – بات اليوم قوةً يُعتدّ بها، أو على الأقل سِمَةً تُلصق بظاهرة حُبلى بإمكانيات واحتمالات بالغة الخطورة.

قبل 11 أيلول/سبتمبر وبعده، وقعت العديد من الفظاعات والأعمال الوحشية التي نُسبت إلى متشدّدين إسلاميين، أو التي اعترفوا هم أنفسهم بمسؤوليتهم عنها، فأوقعت الأذى الفادح والدمار الشديد بالعديد من مُدن العالم ومنتجعاته السياحية، نذكر منها: نيروبي، دار السلام، مومباسا، الرياض، الدار البيضاء، بالي، تونس، جاكارتا، مومباي (بومباي) ومدريد. اللائحة تطول، وحجم الإجابات آخذٌ بالارتفاع، فيما يكتنف الغضب والحيرة ردود فعل الشعوب وحكوماتها. وأحسب أن التداعيات البعيدة المدى لردود الفعل هذه على السلم والأمن الدوليين كافية لإقناع كل فرد منا (وليس فقط محرّري وسائل الإعلام الذين يُقولبون وعي الجمهور بما يُلائم أولويات المعلنين لديهم)، أن المظاهر المتطرفة للإسلام هي من يضع أجندة النقاش وجدول الأعمال في القرن الحادي والعشرين.

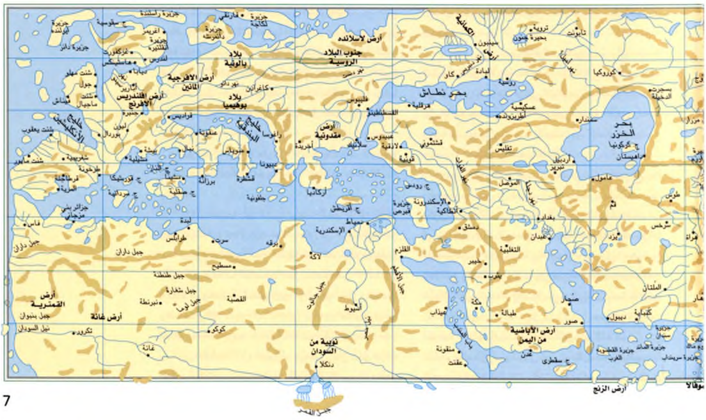
إن المسلمين الذين يُقيمون في الغرب، أو في تلك المناطق الآخذة بالاتساع من العالم الإسلامي التي تغشاها المؤثّرات الإلكترونية للغرب، ليشعرون بالامتعاض من التعرّض السلبي لهم، هذا التعرّض المُصاحب عادةً للقلق المتزايد من الغرباء الطارئين. إن



الإسلام دينُ سلام: فلفظة «إسلام» التي تعني حرفياً التسليم (لأمر الله)، تتصل من الوجهة الاشتقاقية بعبارة «سلام» التي تفيد السلم والصُلح. والتحية المتعارف عليها التي يستخدمها معظم المسلمين لدى انضمامهم إلى تجمّع ما، أو حتى لدى التقائهم بغرباء عنهم، هي: «السلام عليكم». يمكن القول إن الغربيين ممّن يتهمون الإسلام بأنه دين عنفٍ يجهلون حقيقته. وإلصاق النعت «مسلم» أو «إسلامي» بأعمال الإرهاب ينطوي على ظلم وافتئات شديدَيْن. حين أقدم مهووس مسيحي ذو ميول يمينية كتيموثي ماكفاي على تفجير مبنى فيدرالي أميركي في مدينة أوكلاهوما، وكان أسوأ عمل فظيع يُرتكب على التراب الأميركي قبل 11 أيلول/سبتمبر، لم يبادر أحد إلى وصفه بالإرهابي«المسيحي». إن العديد من المؤمنين المسلمين ينظرون إلى «الغربيين» ممن تخلّوا عن دينهم أو أعماهم التحامل الديني، على أنهم أُناس لا «يفهمون» الإسلام حق الفهم. وثمة وسائل إعلامية معادية لا تتورع عن تشويه الآراء الغربية، فتصبغ المشاعر والمواقف بصبغة «الإسلاموفوبيا» (الهلع المَرَضي من الإسلام)، أو المرادف لمعاداة السامية إنما مُطبّقة هذه المرة على المسلمين بدلاً من اليهود. بعض الدارسين ممن تدرّجوا في الأكاديميات الغربية، مُتهمون بأنهم يرون الإسلام من خلال العدسات المشوّهة للاستشراق، ذلك العلم الذي تطرق إليه الفساد نظراً لارتباطه بالإمبريالية، حين كانت المعرفة المتخصّصة مسخّرة لخدمة القوة والنفوذ الاستعماريين.

هذا مجالٌ محفوف بالمخاطر ومُتنازع عليه، ومن يُغامر بدخوله من الكتّاب إنما يُعرّض نفسه للخطر. فأي تعميم بشأن الإسلام، مثله مثل أي دين آخر، يكون عُرضةً للنقض والدحض، لأن مقابل كل وصف معياري للإيمان أو الاعتقاد أو السلوك الإسلامي، توجد تنويعات مهمّة وفروق ذات شأن. وتزداد معضلة التعريف صعوبةً لعدم وجود مؤسسة « كنسية» جامعة أو « باباوية» إسلامية تتمتع بسلطة آمرية تفصل في ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي (حتى الكنائس البروتستانتية تميّز مواقعها الدينية بالتغاير وأحياناً بالتضاد مع الكاثوليكية الرومانية).

العالم كما رآه الإدريسي
(549 هـ/ 4511 م)



والهوية الإسلامية، شأنها شأن الهوية اليهودية، تشمل السلف كما تشمل المعتقد. فمن يُسمّون مسلمين إنما يُمارسون دينهم بطُرُق مختلفة. فبوسع المرء أن يكون مسلماً من الوجهة الثقافية، تماماً مثلما يستطيع المرء أن يكون يهودياً بالمعنى الثقافي، من غير أن يتقيّد بمجموعة معيّنة من الفرائض أو المعتقدات الدينية. وإننا لا نجانب الصواب إذا ما وصفنا العديد من الأميركيين والأوروبيين غير المتدينين بـ«المسيحيين الثقافيين»، نظراً للأهمية التكوينية التي كانت للمسيحية في تطوّر الثقافة الغربية. وحقيقة أن هذه التسمية نادراً ما تُستخدم – هذا إذا ما استُخدمت أصلاً – لتكشفُ عن مدى الهيمنة الثقافية الغربية وطموحها إلى تبوء سُدّة العالمية.

إن الأساس المسيحي للثقافة الغربية هو من البداهة بمكان بحيث لا يُجَشّم أحدٌ نفسه عناء إبرازه للعيان. وفي الوقت عينه، لطالما انتُحلت لفظة «مسيحي» من قبل الأصوليين البروتستانت الذين يسعون جاهدين إلى تمييز أنفسهم عن الإنسويين العلمانيين أو المؤمنين المتدينين على السواء، ممّن لا يشاطرونهم نظرتهم العامة إلى الأمور.

ثمة مشاكل مماثلة بصدد التعريف تسري على العالم الإسلامي كذلك. فكما أن هناك تباينات وفوارق لاهوتية ما بين الكنائس المسيحية المختلفة حول شتى المسائل الإيمانية والطقسية، كذلك تقوم داخل حظيرة الإسلام جماعات وطوائف وملل تختلف فيما بينها لجهة الطقوس المتّبعة أو تقاليد كلٍ منها في التأويل والممارسة.

ومن بين أكبر النحل في الإسلام، هناك تاريخياً طائفتان تُعدّان أهمّها على الإطلاق، هما: السُنة والشيعة.

يعتقد الشيعة أن النبيّ محمد (نحو 570–632)، وقبل وفاته بوقت وجيز، اختار علي بن أبي طالب، ابن عمه وزوج ابنته فاطمة، خليفةً له. كما أنهم يؤمنون بأن هذه الخلافة تواصلت عبر سلسلة من الأئمة (أو القادة الروحيين)، المتحدّرين من صُلب علي وفاطمة، وقد اختار كُلاً منهم الإمامُ الذي سبقه. والكتلة الشيعية الأكبر حجماً، وهم الشيعة «الاثنا عشريون» أو كما يُسمّون «الشيعة الإماميون»، يؤمنون بأن آخر هؤلاء الأئمة، الذي «انحجب» في العام 873، سوف يظهر ثانيةً بصفته «المهدي المنتظر» في يومٍ ما من مقتبل الأيام.

أهل السُنّة، من جهة أخرى، يرون أن النبي قد أعطى إشارات كافية على أنه يحبّذ لخلافته أحد أصحابه، أبا بكر الصدّيق (حوالى 632–634)، الذي اتفق أبرز قادة الجماعة على القبول به خليفةً بُعيد وفاة الرسول. وهو بدوره اختار عمر بن الخطاب (ح 634–644)، الذي وقع اختياره، وهو على فراش الموت، وبعد التشاور مع زعماء المسلمين، على عثمان بن عفّان (ح 644–656). وقد خلف عثمان عليٌّ (ح 656– 661)، ومجدداً بموافقة وقبول قادة المسلمين في ذلك الحين. وفي نظر الغالبية السُنّيّة، يُمثّل هؤلاء الخلفاء الأربعة «الخلافة الراشدة».

وعلى مرّ الأيام، صارت لكلٍ من الشيعة والسُنّة هوية اجتماعية مميّزة لهم. وقد انقسمت هاتان الطائفتان وتفرّعتا فروعاً شتى، وانتظمتا في حركاتٍ ونزعات مختلفة. ولئن اختلفت هذه وسواها من المجموعات فيما بينها، وكثيراً ما تصارعت حول تفاريقها، إلاّ أن الاتجاه العام للعلاقات التي سادت المجتمعات الحضرية ما قبل العصر الحديث أفسح في المجال لقدرٍ من التعايش المتبادل والحوار الفكري بينها.

إلاّ أنه برزت لدى الطوائف المتشدّدة والجماعات المتطرّفة، في الآونة الأخيرة، نزعةٌ إلى لعن الخصوم في الدين وتكفيرهم، أو إلى اتهام من يحكمها بالمروق من الإسلام. غير أن هذا المنظور الضيّق الأفق يُقابله وعي متنامٍ بين السواد الأعظم من المسلمين بتنوّع وتعدّدية التأويلات داخل الأمة.

وجو اللاتسامح البادي للعيان في بعض أنحاء العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، ذو منشأ معقّد وقد يكون عَرَضياً، شأن التطرُّف الطهراني الذي استفحل في أوروبا القرن السابع عشر من جراء المفاعيل المشوّشة للتحوّلات الاقتصادية والاجتماعية. وكما ستوضّح الخرائط والنصوص فيما يلي من صفحات، فقد جاءت الحداثة إلى العالم الإسلامي على أجنحة القوى الاستعمارية، عوضاً عن أن تكون حصيلة تحوّلات متولّدة داخلياً. فـ «خير أمة» أخرجها الله للناس كي «تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر» فَقَدت الهيمنة الأدبية والسياسية التي كانت لها ذات يوم في الجزء

الأكثر تمدّناً من العالم خارج الصين. حين كان الإسلام في طور الصعود والترقّي، كذلك كان مناخ التسامح الناشيء عنه. فقد كان العلماء والفقهاء المسلمون يتساجلون ويتناظرون فيما بينهم، لكنهم كانوا يحاذرون تكفير كل من ينطق بالشهادة – بما هي الجهر العلني بالإيمان – أو من يُقيمون الصلاة ميمّمين وجوههم شطر مكة. ومثلما لاحظ الباحث الأميركي كارل إرنست، فإن «التعدّدية الدينية، حقيقةٌ اجتماعية في أي مجتمع في عالمنا المعاصر. فإذا ما ادّعت جماعة لنفسها السلطة على سائر الجماعات الأخرى، مُطالبةً إيّاها بالولاء والطاعة، فسوف يُعتبر ذلك تحايلاً للتسلّط بواسطة اللغة الدينية المنمّقة» [كارل إرنست، «أتباع محمد: إعادة النظر في الإسلام في العالم المعاصر»، لندن، ص 602].

في المبدأ، وإنْ لم يكن دائماً في الممارسة، المسلم هو من يتّبع الإسلام، اللفظة العربية التي تعني الانقياد، أو بمعنى أدّق، «التسليم» لإرادة الله كما أوحي بها للنبي محمد. وهذه الموصيات المتنزّلة شفاهاً على امتداد فترة نبوّة محمد الناشطة، من حوالى العام 610 وحتى وفاته، موجودة كلها في القرآن، الكتاب الذي يُشكّل أُسّ الدين الإسلامي والنُّظُم الثقافية المتنوّعة النابعة منه. وقد تصدّى لفيفٌ من الباحثين من ذوي النزعة التصحيحية في الجامعات الغربية للرواية الإسلامية التقليدية عن أصل القرآن، زاعمين أن النصّ قد اقتُطع من كتلة أكبر من المواد الشفهية بعد الفتح العربي للهلال الخصيب. غير أن الغالبية العُظمى من الدارسين، مسلمين وغير مسلمين، تنظر إلى القرآن على أنه المُدونة الكتابية للتنزيل المتراكم على امتداد مسار الرسالة المحمدية. وخلافاً للكتاب المقدس، ليس هناك ما يدلّ على وجود تصنيف متعدّد للقرآن. وعلى النقيض من «العهد الجديد» (الأناجيل) بنوع خاص، الذي جُمعت فيه أقوال السيد المسيح في أربع روايات متمايزة عن حياته وبما يُفترض معها أنها قد وُضعت من قبل مؤلّفين مختلفين، فإن القرآن يحتوي على العديد من الإشارات الضمنية إلى حوادث وقعت في حياة الرسول، إنما من غير أن يتناولها بالتفصيل. بل إن قصة المسيرة العملية لمحمد كنبي وكرجل دولة (إذا جاز لنا أن نستخدم هنا اصطلاحاً حديثاً لزعيم حركة وحّدت قبائل الجزيرة العربية)، قد بُنيت من مجموعة أخرى مختلفة من المادة الشفهية، تلك التي تُعرف بـ «الحديث»، أي المأثورات والمنقولات عن مسلكية النبي، وهي لم تُدوَّن في تصانيف إلاّ بعد وفاة الرسول.

يتألف القرآن من 114 فصلاً تُعرف بالسور، وكل سورة تتألف من عدد متفاوت من الفقرات التي تُسمّى آيات (وتعني بالعربية: دلائل أو معجزات). وباستثناء السورة الأولى، سورة الفاتحة (أو الاستهلال)، المكوّنة من سبع آيات هي بمثابة ابتهال يُتلى في مختلف الشعائر، بما فيها الصلوات اليومية، فإن سور القرآن الأخرى مرتّبة بحسب تناقصها في الطول، بحيث تأتي أقصرها في النهاية وأطولها في البداية. ومعظم المصاحف القياسية تُصنّف السور ما بين سور نزلت في مكّة (وهي تميل إلى القصر، ومن هنا موقعها القريب من نهاية الكتاب)، وسور تعود إلى الحقبة التي أقام فيها محمد في المدينة التي هاجر إليها مع أتباعه الأوائل هرباً من الاضطهاد في مكّة عام 622، العام الأول من التقويم الإسلامي (الهجري). السور المكّية، ولاسيما المبكرة منها، تحمل في طياتها رسائل حيّة عن المسؤولية الشخصية، وأحاديث عن الثواب والعقاب (الجنّة وجهنم)، فيما هي تحتفي من جهة أخرى ببهاء العالم الطبيعي وجماله كدليل على قُدرة الخالق العظيمة وجلال شأنه. أما السور المدنية، فهي وإنْ كررت العديد من الموضوعات ذاتها، إلاّ أنها تسوق تعاليم إيجابية فيما خصّ القضايا الاجتماعية والقانونية (بما فيها الأحكام الخاصة بالعلاقات الجنسية والميراث، والعقوبات الموصوفة لبعض أصناف الجرائم). وهذه السور، معطوفة على مواد مستقاة من مأثور الحديث، كانت المصدر الرئيسي لنشوء وتطورّ النظام القانوني المعروف بـ «الشريعة». وقد أضاف أعلام الفكر الإسلامي على اختلاف مشاربهم مصادر أخرى من عندياتهم، وبذلك أوجدوا المنهجية اللازمة لتنظيم أحكام الشريعة وتطبيقها.

بالنسبة للمؤمنين المسلمين، يُمثّل القرآن كلام الله المباشر، وقد أملاه كما هو من دون أي تحوير أو تنقيح بشري. ويصف بعض العلماء المسلمين المحدثين النّبي محمد بالناقل الأمين لكلام الله. ومن المعتقد أن النبي نفسه كان أمّياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وإن كان بعض الدارسين يُشكّكون في ذلك على خلفية أنه كان

تاجراً نشيطاً.. وناجحاً. بالنسبة لغالبية المسلمين، القرآن كما دُوِّن في المصحف واستقرَّ على ما هو عليه إبّان حُكم الخليفة الثالث، عثمان بن عفان (644-656)، «غير مخلوق»، وأزليٌ من أزلية الله نفسه. من هنا، فإن القرآن بنظر المؤمنين المسلمين يحتلّ المكانة التي يشغلها المسيح في نظر المسيحيين. فالله يتجلّى ليس من خلال بشر ما، بل عبر اللغة الواردة في نصّ مقدّس. إن العقائد الدينية الأخرى، ومنها البوذية، والمسيحية، والهندوسية، واليهودية، والسيخيّة، والزرادشتية، تضفي على نصوصها التأسيسية هالة مقدسة. وقد أخذ الحكّام المسلمون بهذا المبدأ المشترك بإبدائهم التسامح الديني حيال « أهل الكتاب».

وفتحوا شطراً من الأمبراطورية البيزنطية (بلاد الروم)، وكامل بلاد فارس أمام الاستيطان الإسلامي. في البدء، بقي الإسلام ديناً «عربياً» في المقام الأول. إذ عمد أمراء الحرب المسلمون إلى إيواء كتائبهم المقاتلة القبلية في معسكرات كبيرة خارج المدن المستولى عليها، تاركين رعاياهم الجُدد (من مسيحيين ويهود وزرادشتيين) يدبّرون أمورهم بأنفسهم ما داموا يدفعون الجزية (وهي نوع من الضريبة على الرأس) عوضاً عن تأدية الخدمة العسكرية. أما عملية الأسلمة، فقد حدثت بالتدريج من خلال التزاوج، حيث إن أعيان الأُسر من سكّان البلاد المفتوحة لم تألُ جهداً في سبيل الالتحاق بالنُّخب الإسلامية. كما اتسع نطاق هذه



صفحتان متقابلتان من المصحف مزخرفتان بماء الذهب ومنسوختان بالخط البيهاري. أُنجزت هذه النسخة عام 1399، العام التالي لاستيلاء تيمورلنك على دلهي. الآية من سورة التوبة، وهي تتحدث عن حلفاء النبي من البدو الذين لا يُغفر لهم تقاعسهم عن الالتحاق بإحدى غزواته.

في طوره المبكر، شهد الإسلام توسُّعاً خاطفاً خارج حدود جزيرة العرب عن طريق الفتح العربي لبلاد الهلال الخصيب وما يليها من ديار في غضون قرن أو نحو ذلك بعد وفاة الرسول في العام 632. وقد تضافر الإيمان بالإسلام وبرسالة النبي السماوية - فضلاً عن الرغبة في المغانم - لتصهر القبائل العربية في آلة حربية مهولة. فهزموا الجيشين البيزنطي والساساني،

العملية لمّا وجد الرعايا المعوزون ومقطوعو الجذور سنداً لهم في دين حكّامهم الجُدد، أو لمّا عثر المتحرّرون من سحر حكّامهم القدامى على ملاذٍ روحي يُلائمهم في دينٍ يحترم تقاليدهم، في الوقت الذي يُقدِّمون فيه تعاليمهم الدينية في إطارٍ توليفي جديد وخلّاق. كما كان دور المبشّرين المسلمين الأوائل حاسماً هو الآخر في هذه العملية.

غير أن اللاهوت الإسلامي (علم العقائد أو علم الكلام)، كان له بُعد ثقافي اتسم بالدينامية، ولعلّ هذا بالذات ما يُفسِّر لنا كيف تطوّر دين «العرب» إلى ديانة عالمية. فقد حمل الإسلام معه، بوصفه «دين الكتاب» النموذجي، الذي يُمثّل كلمة الله مجسّدة في نصّ مكتوب، هيبة واحترام التعلّم والمعرفة إلى الثقافات الجاهلة. وعلى شاكلة تعريف لاروشفوكو للنفاق، نقول إن عبادة الكتاب لم تكن ولاء الرذيلة للفضيلة، بقدر ما كانت إجلال الجهل للعلم. وأياً كان إدراكنا للوحي – تنزيلٌ من عند الله، أم حالة ذهنية متبدّلة أشبه ما تكون بعمليات دماغية لنابغة بشري – فإن «معجزة» محمد جاءت على صورة لغة. ومرة بعد أخرى، راحت أقوام البدو الرُحّل القاطنة عند أطراف الأمبراطورية الإسلامية بالاستيلاء على مراكز القوى، عاملةً بذلك على تمدين نفسها، ولتغدو من ثم حاملة بدورها لواء النفوذ الثقافي الإسلامي. وإثر تفسّخ الدولة العباسية العُظمى، لم يعد الحلم بخلافة عالمية تضم مجمل أرجاء العالم الإسلامي (لا بل وسائر البشرية في الواقع) مشروعاً قابلاً للحياة. فخطوط المواصلات كانت أطول من أن يتمكّن المركز من لجم طموحات الأمراء المحلّيين. لكن هيبة المعرفة، كما كان يرمز إليها القرآن وآياته المنقوشة على جدران المساجد والمباني العامّة في لوحات بديعة، ناهيكم عن المصاحف المنسوخة بمنتهى الإتقان، كانت شديدة فعلاً. حتى الغُزاة المغول، أصحاب السُمعة السيئة لما كانوا يتصفون به من قسوة وهمجية، لم يجدوا مناصاً من التسليم بقوة الإسلام الروحية والجمالية في الأجزاء الغربية من البلاد الخاضعة لسلطانهم.

ليست الغاية من الخرائط التي يحتويها هذا الكتاب تقديم رواية جامعة وشاملة عن النماذج المتحوِّلة للدولة والسلطة الدينية التي سادت إبّان الاندفاع الجارف للتاريخ الإسلامي من زمن الرسول إلى يومنا الحاضر. بل غاية ما تتطلع إليه أن تنير جوانب مهمّة من ذلك التاريخ عبر فتح نوافذ صغيرة على نواح بالغة الشأن من التاريخ البعيد والقريب، وبما يُساعد على تبيان إرث المشاكل، وكذلك السوانح، الذي ورثه الحاضر عن الماضي. فالجغرافيا عُنصر حيوي لفهم التاريخ الإسلامي وصلته المنطوية على إشكالية بالحداثة.

وكما يتضح من الخرائط التي يضمّها هذا الأطلس، كان الحزام الأوسط من الأراضي الإسلامية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى وادي السند وبشكل دائم تقريباً تحت رحمة الغُزاة من البدو الرُّحّل وأشباه الرُّحّل. وفي الأزمنة ما قبل العصر الحديث، أي قبل أن تعمل الأسلحة النارية والسلاح الجوي وأنظمة الاتصال الحديثة على إخضاع مناطق الأطراف لسيطرة الحكومات المركزية (برعاية استعمارية طبعاً)، كانت المدن عُرضةً للهجمات المتكررة من جانب النهّابين البدو. وعبقرية النظام الإسلامي تكمن في أنه زوَّد القبائل المتأسلمة بمنظومات قانونية ومسلكية وتعليمية من ضمن مبادىء الإيمان، وقد تثاقفت معها على مرّ الزمن.

في «مقدمته» لتاريخ العالم، وضع فيلسوف التاريخ العربي ابن خلدون (1332–1406) نظرية حول التجدّد الدوري ونشوء الدول، حلّل فيها هذه السيرورة على ضوء ما جرى في شمال إفريقيا، المنطقة التي ينتمي إليها. وطبقاً لنظريته هذه، فإن المناطق الجافة أو القاحلة، التي يندر سقوط المطر فيها، تبقى الحالة الرعوية هي النمط الرئيسي للإنتاج الزراعي فيها. والرُعاة، على عكس الفلاحين، ينتظمون ضمن خطوط نسب قبلية (أو في مجموعات تربطها علاقات قرابة أبوية). إنهم أحرار نسبياً من سطوة الحكومات، وكونهم يتميّزون بدرجة حراكية أعلى من أهل الأمصار (الحضَر)، فلا يُمكن فرض الضرائب عليهم بصفة منتظمة. كما يتعذّر إخضاعهم لسيطرة السادة الإقطاعيين الذين يستولون على جزء من محاصيلهم لقاء شملهم بالحماية. أجل، في المناطق القاحلة، هم رجال القبائل من يكونون مدججين بالسلاح في العادة، وهم من يستطيعون في



خريطة العالم رسمتها أُسرة الشرفي الصفاقسي في العام 1571/1572 م في مدينة صفاقس بتونس.

بعض الأحيان أخذ المدينة رهينة لهم طلباً لفدية أو حتى فتحها عنوةً. إن نظرات ابن خلدون الثاقبة تُخبرنا لماذا يُجافي المرء الحقيقة عندما يتحدّث عن «إقطاع» إسلامي إلاّ في السياق المحدود والمحدّد جداً للأنظمة السائدة في أحواض الأنهار الكبرى كمصر والعراق، حيث تعمل كتلة فلاحية مستقرّة في زراعة الأرض. أما في المناطق القاحلة، فينتقل الرعاة بمواشيهم وقطعانهم موسمياً من مكان إلى آخر، وفقاً لترتيبات معقّدة يتخذونها مع سواهم من المنتفعين بالأرض. وحقّ الانتفاع ليس بمُلكية. فالممتلكات والأراضي هنا لا تحدّها حدود مشتركة مثلما أصبحت عليه الحال في المناطق الأوروبية التي تتساقط عليها الأمطار بمعدلات عالية. لقد ضرب الإقطاع، وكذلك فرعه النابت: الرأسمالية، جذوراً عميقة له في أوروبا، وخلق في نهاية المطاف الدولة البرجوازية التي سوف تبسط سيطرتها على الأرياف، وتصبغ الزراعة بصبغة تجارية، وتُخضع المجتمع الريفي للقيم الحضرية وقبضة المدينة. على العكس من ذلك، بقيت شعوب الأطراف في معظم أنحاء غرب آسيا وشمال إفريقيا قادرة على التملّص من ربقة الدولة إلى حين مقدم السلاح الجوي. وحتى في أيامنا الحاضرة، لم يتحقق ذلك كلياً في بعض الأماكن من أفغانستان، حيث البُنى القبلية قاومت ولا تزال سلطة الحكومة المركزية.

وثمة لفظ مُعبِّر يستخدمه أهل الحضر المغاربة للدلالة على مناطق البلاد القبلية؛ إنهم يسمّونها «بلاد السيبة» – أي أرض العجرفة والسفاهة – في مقابل «بلاد المخزن»، أي المركز المتمدن، الذي يقع وبصفة دورية فريسةً لها. تبعاً لنظرية ابن خلدون، فإن تفوّق القبائل رهنٌ بـ«العصبية»، تلك العبارة التي تحيل، في العادة، على قوة الشعور بوحدة الجماعة أو التضامن الاجتماعي. وهذه العصبية مستمدّة، في النهاية، من البيئة القاسية للأرض الصحراوية، أو الأرض اليباب، حيث لا وجود إلاّ لقدر طفيف من تقسيم العمل، وحيث البشر يعتمدون في بقائهم على عُرى النسب ووشائج القربى. على النقيض من ذلك، تفتقر الحياة المدينية لأية عصبية أو روح تشاركية. وغياب التضامن البرجوازي، الذي تسمو بموجبه مصلحة الجماعة النقابية فوق رابطة الدم والقربى، يُمكن عزوه، ولو جزئياً، إلى مفاعيل الشريعة الإسلامية؛ إذ بخلاف الأعراف القانونية الرومانية، لا تتضمّن الشريعة أية أحكام للاعتراف بالجمعية النقابية بوصفها «شخصية» اعتبارية.

في صياغتها الكلاسيكية، تنطبق نظرية ابن خلدون أكثر ما تنطبق على البيئة في شمال إفريقيا؛ البيئة التي يعرفها ويفهمها أفضل من غيرها. بيد أنها تصلح مع ذلك نموذجاً تفسيرياً للتاريخ الأوسع لغرب آسيا وشمال إفريقيا منذ ظهور الإسلام إلى الزمن الحاضر. تقوم النظرية على أساس من التفاعل الجدلي بين الدين والعصبية. ومفهوم ابن خلدون هذا للعصبية، الذي يُشكّل العمود الفقري لنظرتة العامة إلى التاريخ الاجتماعي والسياسي للإسلام، يُمكن تطويعه كي يتماشى والنظريات الإثنية الحديثة، سواء أخذ المرء بالنموذج «البدائي» أو «التفاعلي». وبالوسع إيجاد المبدأ الأساس لنظرية ابن خلدون في أطروحتين له أبرزهما الفيلسوف والعالم الانثروبولوجي إرنست غيلنر بنوعٍ خاص، وهما: 1– «لا تقوم الرئاسة إلاّ بالغلبة، ولا تقوم الغلبة إلاّ بالعصبية»؛ 2– «وحدها القبائل التي تحكمها العصبية قادرة على تحمّل شظف الحياة الصحراوية».

والقوة الغالبة للقبائل قياساً بقوة المدن هي ما وفَّر الشروط التي مكَّنت الحُكم العسكري السلالي أو بديله، الحُكم الملكي المدعوم من المؤسسة المملوكية أو العصبية الممأسسة، من أن يغدو النمط السائد في التاريخ الإسلامي قبل التدخل الاستعماري الأوروبي. وغياب الاعتراف القانوني بالجماعة النقابية في الشرع الإسلامي حال دون قيام التماسك الاصطناعي المعهود في النقابات؛ وهذا الأخير شرط مُسبق لتطور الرأسمالية المدينية ولتجاوز اللُّحمة «الطبيعية» للقرابة. وقد دأبت التقاليد الثقافية الرفيعة للإسلام، في عهود ما قبل الاستعمار الحديث، تتفاعل مع أشكال التضامن البدائي هذه أو العصبيات العرقية، إلا أنها لم تستطع الحلول محلها.

رسمياً، الأخلاق الإسلامية تمنع قيام أي شكل من أشكال التضامن المحلّي خصوصاً إذا كان يُمايز ما بين المؤمنين. نظرياً، ثمة جماعة إسلامية واحدة هي

«الأمة» ، تخضع لمشيئة الله. أما عملياً، فكثيراً ما يُصار إلى تعديل أو تحوير هذا المثل الأعلى الإسلامي من خلال التسليم بالحاجة إلى استنفار العصبية أو النعرة القبلية «في سبيل الله» . تُشدّد الممارسة الإسلامية، مُمثّلة بالعبادات وغيرها، على قيمة الجماعة وذلك عبر إقامة الصلاة وأداء فريضة الحجّ بانتظام؛ ومع مرور الزمن، تولّدت عن ذلك تقوى كتابية ذات صبغة مدينية، وتقاليد ثقافية رفيعة أو «كبرى» . غير أن هذه عاجزة بذاتها عن أن تبني جماعة متراصّة، مستديمة وقوية بما فيه الكفاية لتتجاوز الدينامية المقابلة، دينامية النعرة المحلّية. وسواء أكانت هذه النعرة دنيوية، قائمة على الفوارق بين القبائل والقُرى أو حتى بين الحرف والمهن؛ أو طائفية، قائمة على الاختلاف ما بين شتى المذاهب الدينية أو الطُرُق الصوفية التي تحكمها في أغلب الأحيان أُسر بعينها؛ أو كان منشؤها الفوارق بين السُّنة والشيعة، فإن مثل هذه الانقسامات تعمل ضد وحدة الأمة.

على نسق الحركة المعمدانية في الولايات المتحدة، يُشكّل الإسلام، ولاسيما التيار السُنّي الغالب الذي يضم حوالى 90 بالمئة من مسلمي العالم، قوة شعبية محافظة، تعارض التزمّت العقائدي أو الضوابط الكهنوتية المتشدّدة. وإذا كانت كتابية الإسلام وروحه العملية الراشدة قد أمدّته بلغة مشتركة عابرة للحدود الإثنية والعرقية والقومية، خالقةً بذلك أضخم «مجتمع عالمي» عرفه العالم ما قبل العصر الحديث، إلا أنها لم تنجح قط في تأمين الدعامة الأيديولوجية الأساس لنظام اجتماعي موحّد يُمكن أن يُترجم إلى هوية قومية مشتركة. في الغرب، أوجدت مؤسّسات المسيحية القروسطية، المتحالفة مع البُنى القانونية الرومانية، الشروط المسبقة لنشوء الدولة القومية الحديثة. أما في «دار الإسلام»، فإن الأساس الخُلقي للدولة ظلّ باستمرار عُرضة للإضعاف والتحريف من جانب واقع العصبية القبلية. كان يُمكن التسليم بذلك أمراً واقعاً، إنما يستحيل منحه اعترافاً شرعياً. وربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلت حضارة متقدمة بأشواط على منافستها المسيحية في القرنين العاشر والحادي عشر، تتخلّف عنها في آخر الأمر لتجد نفسها تحت الهيمنة السياسية والثقافية لشعوب كانت تعدّها – وما زال بعض أفرادها يعدّونها – في مصاف الكفّار.

كان النظام الإسلامي في الأزمنة ما قبل الحقبة الاستعمارية، والمتجذّر إلى اليوم في ذاكرة ووجدان المسلمين المعاصرين، على أكمل تهايؤ مع البيئة السياسية لعصره. فحتى استراتيجية «الجهاد في سبيل الله»، كانت تُعتمد لأغراض ذرائعية، نفعية أو عسكرية، فيما كان المستفيد من ذلك هو الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية. وهكذا صار الغُزاة البدو، والمماليك المُستقدمون من مناطق الأطراف لصدّهم، في مقدمة رجال الإسلام، الذائدين عن حياض الإيمان والجماعة، وأبرز حُماة ثقافاته ونُظُمه التعليمية.

والذاكرة الاجتماعية لهذا النظام ما برحت تُمارس جاذبية شديدة على مخيال العديد من الشباب المسلم في الوقت الحاضر. ويصحّ هذا القول بنوع خاص حين نُدرك أن الذاكرة الأحدث عهداً عن التحديث من خلال الاستعمار يُمكن تمثيلها كقصة ملؤها المهانة والنكوص، وخيانة رسالة الإسلام لا لشيء إلاّ لإحلال الحقيقة والعدالة الشاملتين في عالمٍ تمزّقه الفرقة والنزاعات. إن العُنف الذي ضرب أميركا في 11 أيلول/سبتمبر 2001 قد يكون متجذّراً في اليأس المستحكم بأُناس يحملون رؤية رومانسية ومثالية عن الماضي فيما هم يتألمون أشدّ الألم تحت وطأة الإذلال اليومي في الحاضر. ولئن كان الذين خططوا لهذه العملية، من دون أدنى شك، أُناساً متعلمين ومحنّكين، وعلى دراية تامّة بأحوال المجتمعات العصرية وسير العمل فيها، إلاّ أنّه ليس بالأمر العرضي البتة أن يكون معظم مختطفي الطائرات الخمسة عشر من التابعية السعودية، وبعضهم من محافظة عسير بالذات: هذه المنطقة الجبلية الفقيرة المحاذية للحدود اليمينة الحالية، استولت عليها أُسرة آل سعود في عشرينيات القرن العشرين، وهي لا تزال تحتفظ بالكثير من علاقاتها وارتباطاتها بالقبائل اليمنية. كانّ من شأن المذبحة العشوائية في 11 أيلول/سبتمبر أن تُروّع ابن خلدون مثل كل كرام الناس قطعاً، لكنّي أشكّ في أنها كانت ستُفاجئه.

العقائد والعبادات الأساسية في الإسلام

في الغالبية العُظمى من المذاهب الإسلامية، يلتزم المسلمون جميعاً قواعد أساسية محدّدة، تُسمى «أركان الإسلام». وأهم هذه الأركان، إشهار الإيمان أو النطق بالعبارة التالية: «أشهد أن لا إله إلاّ الله؛ وأشهد أن محمداً رسول الله» . وهذه الجُملة التي تُقال أمام شهود، وتُسمّى «الشهادة»، شرطٌ كافٍ للدخول في الإسلام والانتساب إلى «الأمة» .

كذلك يشهد المسلمون بالتوحيد (وحدة ووحدانية الله). إنهم يؤمنون بأن الله كان دائماً وأبداً على اتصال بالبشرية من خلال الرُّسُل والأنبياء، مثل إبراهيم وموسى وعيسى، وأن محمداً هو خاتم الأنبياء الذي أُنزل عليه القرآن. والمسلمون مُطالبون بالتزام نمط سلوك مناقبي وأخلاقي في حياتهم الشخصية والاجتماعية، وهم مسؤولون عنه أمام الله.

وبالإضافة إلى التوحيد، تشتمل مبادىء الإيمان التي يلتزمها المسلمون على الاعتقاد بأن الملائكة وسواها من الكائنات الخارقة للطبيعة كالجان مثلاً، إنما تعمل في تبليغ رسالات الله؛ وأن إبليس أو الشيطان، الملاك الساقط، أُخرج من الجنّة لأنه أبى النزول عند أمر الله بالسجود لآدم؛ وأن محمداً هو «خاتم» النبيّين، أي أنه الأخير في سلسلة من الرُّسُل البشريين أرسلهم الله لهداية البشر وتحذيرهم. ويؤكّد القرآن أن من الذين أُوحي إليهم فيما سلف – وبالذات النصارى واليهود – قد حوّروا في الكُتب التي أُنزلت عليهم. ويُنذر القرآن الناس بيوم الدين (الدينونة/القيامة)، يوم يقف الجميع، الأحياء والأموات على حد سواء، أمام الرب الدّيان ليُحاسبوا على ما فعلت أيديهم: فمن فعل خيراً، يُثاب ويدخل جنّات النعيم؛ ومن أخلّ بواجباته، يُعاقب بأن يُصلى نار جهنم.

كذلك يُبيّن القرآن بالتفصيل جملة من الممارسات التي صارت مع الوقت معيارية بالنسبة للمسلمين. ومن هذه الممارسات: العبادات، التي تتخذ أشكالاً عدّة، كالصلاة والذِّكْر والدعاء والابتهال. والمسلمون في تأديتهم الصلاة يسجدون في اتجاه الكعبة، ذلك الهيكل المكعب الشكل الذي تغطيه «كسوة» سوداء مطرّزة من الحرير الأسود، وينهض وسط ما يُعرف بـ«الحرم القُدسي» في مكّة. وتُقام الصلاة يومياً عند الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب والعشاء، وفي المقدور الجمع بينها بحسب الظروف. كذلك بالوسع أداء الصلاة فردياً، في البيت، أو في مكان عام كالمتنزه أو حتى الشارع، وطبعاً في المساجد والجوامع وسواها من الأماكن المخصّصة لذلك. ونداء الصلاة (ويُسمى الأذان)، يُطلق من المئذنة التي تعلو المسجد، ويتضمن التكبير («الله أكبر»)، والشهادة («أشهد أن لا إله إلا الله.... الخ »)، واللازمة: «حيَّ على الصلاة». في الماضي، وقبل اختراع مكبِّرات الصوت الإلكترونية، كانت أصوات الأذان المرنَّمة ترنيماً بديعاً تصدح من أعلى المآذن خمس مرات يومياً. وصلاة الظهر في يوم الجمعة هي الصلاة الجامعة التي تصاحبها «خطبة» يتلوها الإمام، أو من يؤمّ المصلّين، أو أية شخصية دينية بارزة أخرى. وفي القرون الأولى من الإسلام، كان اسم الخليفة أو الأمير يرد حتماً في أثناء الخطبة. وحين كانت المناطق تنتقل ملكيتها من حاكم إلى آخر (على غرار ما كان يحدث مراراً وتكراراً)، كان المؤشِّر الرسمي على انتقال الحُكم: المناداة باسم الحاكم الجديد علناً في المساجد الكبرى بالبلاد.

وثمة رُكن آخر من الأركان الأساسية في الإسلام، ذلك هو الزكاة، أو المشاركة في الثروة (ويجب عدم الخلط هنا بين الزكاة والإحسان الطوعي أو الصَدَقة). في الماضي، كانت الغاية من إيتاء الزكاة تقوية الشعور الجمعي من خلال التشديد على واجب الغني بمساعدة الفقير، وكانت تُدفع للزعماء الدينيين أو للحكومة. أما اليوم، فإن كلّ ملّة إسلامية تؤتي زكاتها وفقاً لتقاليد خاصة بها.

والصوم هو الامتناع عن الأكل من طلوع الفجر

حتى غروب الشمس طوال شهر رمضان؛ وفيه يمتنع المؤمنون عن الطعام والشراب والتدخين وكذلك عن الجماع، وقد عدَّد أبو حامد الغزالي، المتصوِّف والفقيه المشهور في القرون الوسطى، منافع جمّة للصيام، نذكر منها: نقاء القلب وشحذ المدارك المُلازم للجوع، وإماتة الجسد والسيطرة على النفس وكبح الشهوات، فضلاً عن التضامن مع الجوعى: فالإنسان الشبعان «عُرضة لأن ينسى الجائعين وحتى الجوع نفسه». تقليدياً، شهر رمضان مناسبةٌ لجمع شمل أفراد العائلة والعكوف على الصلاة والتأمل الديني. لكن في العديد من الأقطار الإسلامية اليوم، ينقلب الصيام إلى مآدب عامرة عند المغرب، فتكون مناسبات يغلب عليها جو المرح والإسراف في الطعام والشراب وتدوم حتى ساعة متأخرة من الليل. رمضان هو الشهر التاسع في التقويم الهجري (القمري)، الذي ينقص عن التقويم الشمسي بأحد عشر يوماً. لذلك، يحلّ رمضان، شأن بقية الأعياد الإسلامية، في فصول مختلفة خلال دورة كاملة من خمس وثلاثين سنة.

وهناك فريضة شعائرية جليلة الشأن في الإسلام، هي الحجّ إلى مكّة، حيث يتوجّب على المسلم المؤمن أن يحجّ في حياته مرة «واحدة» على الأقل إنْ استطاع إلى ذلك سبيلاً. تاريخياً، الحجّ كان وما زال إحدى الوسائل الرئيسية لإبقاء العالم الإسلامي بشتى أرجائه على اتصال وتواصل مادي. في الأزمنة ما قبل الحديثة، أي قبل أن تجعل وسائط النقل الجماعية من سفن وطائرات الحجّ في متناول معتدلي ومتوسطي الحال، كان الحجّاج العائدين يكتسبون اللقب المشرِّف: «الحاجّ» / «الحاجّة»، ويحظون بمكانة اجتماعية أرفع من أولئك الذين لم يحجّوا بعد داخل أوساطهم. والحجّ علاوةً على إتاحته الفرصة لتحقيق كمال الذات روحياً، يوفّر في بعض الأحيان فُرصة لمزاولة الأعمال من خلال تمكينه الحجّاج من مختلف أصقاع الأرض من الالتقاء والعمل معاً. كما أنه يسهّل الأمر للحركات الهادفة إلى الإصلاح الديني – السياسي. فكم من حركة سياسية نشأت عن لقاءات جرت أثناء موسم الحجّ – ابتداءً من الثورة الشيعية التي أفضت إلى قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا (909)، وصولاً إلى حركات النهضة والإصلاح الإسلامية الحديثة. والمَعْلَم الدّال على انتهاء شهر الصوم هو «عيد الفطر»؛ في حين يبلغ الحجّ ذروته مع «عيد الأضحى»، حيث يُشارك المسلمون في تقديم الأضاحي من المواشي. وهذان العيدان هما أكبر احتفالين متعارف عليهما يُحييهما المسلمون في كل مكان. وعلاوة على ما تقدم، هنالك العديد من العبادات والممارسات الروحية الأخرى لدى المسلمين التي نشأت وتطوّرت عبر العصور، وهي مبنيّة على تأويلات خاصّة لمزاولة الإيمان وتفاعله مع التقاليد المحلية.

الجغرافيا الطبيعية للعالم الإسلامي

لئن كان العالم الإسلامي يُغطّي حالياً حزاماً عريضاً من المناطق الممتدة من سواحل إفريقيا على المحيط الأطلسي إلى الأرخبيل الإندونيسي في المحيط الهادي، إلاّ أن الرقعة الوسطى من غرب آسيا، حيث ظهر الإسلام، كان لها الأثر الحاسم في تطوّره. وبالمقارنة مع غرب أوروبا وشمال أميركا، تتّصف تلك الرقعة بقلّة هطول الأمطار على وجه العموم. في فصل الشتاء، تسقط الأمطار والثلوج التي تحملها الرياح الغربية



مسجد أغاديس في النيجر. شُيّد أول مرّة في القرن الرابع عشر ميلادي، وهو مبنيّ من الطين. هيكله الإنشائي يتطلّب تجديداً وترميماً بصورة منتظمة، ويقوم بذلك عمّال يحملون طيناً جديداً ويتسلّقونه على القدد الخشبية الناتئة التي تقوم مقام السقالات.

القادمة من المحيط الأطلسي وبكميات لا بأس بها على جبال الأطلس وجبل الريف، وعلى هضبة برقة وجبل لبنان، فيما تسقط بقاياها على نحو متقطع على الجبل الأخضر في عُمان، وجبال زاغروس وألبروز ومرتفعات أفغانستان. غير أن الأمطار الوحيدة التي تهطل بانتظام أكيد، هي تلك المتساقطة على نجود اليمن وظَفار، التي تستقبل الرياح الموسمية الهابّة من المحيط الهندي؛ وعلى منطقة جونغلي جنوبي بحر قزوين عند المنحدرات الشمالية لجبال ألبرون، التي تستجمع الهواء المشبَع بالرطوبة المنساب جنوباً من روسيا.

في الأزمنة القديمة، وقبل أن تصبح المياه المتحجرة الجوفية، المخزونة لملايين السنين داخل الطبقات الصخرية، متوافرة للإنسان بفضل طُرُق الحفر العصرية، كانت الزراعة غير مستقرّة إلى حد بعيد، خصوصاً حين ظهرت الحنطة مثلاً، وغيرها من المزروعات التي يلزمها كميات هائلة من المياه، على شكل واردات غذائية. فالحقل الذي ظلّ يغلّ الحنطة طوال آلاف السنين لن يلبث أن يعرف مواسم عجافاً حين يكون تساقط المطر بوصة واحدة بدلاً من البوصات العشرين المعتادة. وهذا ما أدركته الشعوب القديمة جيداً، فأمّنت لنفسها إهراءات الحبوب. غير أن الزراعة ازدهرت بالفعل في أودية الأنهار الكبرى، في مصر وبلاد الرافدين (العراق حالياً). فالفيضان السنوي فيهما، الناجم عن الأمطار المدارية في إفريقيا وذوبان الثلوج في هضاب الأناضول وإيران، دأب يغلّ محاصيل منتظمة، وسهّل عملية نشوء الثقافات المدينية المعقدة في سومر وآشور ومصر. والحاجة إلى إدارة شبكات الري ذات المعايرة بالغة الدقة في استخدام مياه دجلة والفرات والنيل الغنية بالعناصر المغذّية، اقتضت استنباط أنظمة معقدة للتسجيل والضبط، الأمر الذي أتاح للكتبة المتعلّمين، الجديرين بأن يكونوا كهنةً، أن يحكموا جنباً إلى جنب مع القابضين على زمام القوة العسكرية. وهكذا يجوز القول إن النهر الأصفر في الصين، ووادي الإندوس (السند) في الهند، والمنظومات النهرية الكبرى في الهلال الخصيب، كانت في أصل نشوء الحضارة الإنسانية. وأولى الدول، بمعنى أنظمة الحُكم الخاضعة للنظام والقائمة على مبادىء قانونية عامّة، إنما ظهرت في تلك المناطق تحديداً منذ ما يزيد عن خمسة آلاف سنة.

والقدر المحدود من ماء التربة اللازم للإنتاج الزراعي، كان له الوقع الحاسم على نمو المجتمعات البشرية في المناطق الجافّة. صحيح أن الظروف تختلف من منطقة إلى أخرى، إلاّ أن ثمة مزايا معيّنة

تميِّز أنماط الحياة فيها عن مثيلاتها في المناطق المعتدلة شمالاً أو المناطق الاستوائية جنوباً. فحيثما تقلّ الأمطار أو يكون هطولها غير مؤكّد على وجه اليقين، تشكّل تربية الحيوانات – الإبل، والغنم، والماعز، والبقر، والخيول إذا كان الأمر مُلائماً – أضمن وسيلة للعيش بالنسبة لعددٍ لا يُستهان به من البشر. إنّ «البوادي الخالصة»، أو بحور الرمال من الكثبان المتبدّلة والمتنقّلة بفعل الرياح، والتي تغطي قُرابة ثلث مساحة الجزيرة العربية وشمال إفريقيا، لا تُناسب حياة البشر أو الحيوان إطلاقاً، لذلك تحاشاها

محاصيلهم الزراعية من جانب الكهنة على شكل تقديمات وأُعطيات، أو من قبل الحكّام على صورة ضرائب إلزامية، كان الرُّعاة الرُحّل في كثير من الأحيان ينجحون في التملّص من قيود سلطة الدولة وضوابطها. فالناس هنا منتظمون في عشائر أو في تشكيلات أبوية من ذوي الأرحام متحدرين من سلف ذكر مشترك. وتلقى البسالة في الحرب تشجيعاً خاصاً، لأنه حيث تندر الموارد الغذائية، ربما تضطر القبائل، أو البطون والأفخاذ القبلية، إلى التنافس فيما بينها، أو حتى إلى الإغارة على القرى المستقرّة كي تبقى على



مع إرساء الإسلام دعائمه على امتداد «طريق الحرير»، أُقيمت المساجد للمسافرين المسلمين والمهتدين المحليين إلى الإسلام على حد سواء. هذا المسجد في مقاطعة شينجيانغ الصينية يعكس في تصميمه مؤثرات العمارة في آسيا الوسطى.

الرُّعاة والتجّار والجيوش. لكن أشكالاً معقّدة من الحياة الرعوية البدوية وشبه البدوية نشأت في المناطق شبه الصحراوية الأوسع مساحةً، فكانت قطعان المواشي تُساق شتاءً مسافات بعيدة إلى الأودية أو الأراضي شبه المتصحِّرة لترعى هناك على الكلأ والنباتات التي يُمكن أن تنبت بعد أدنى زخّة من المطر.

وفي حرّ الصيف، تنتقل القطعان، حيثما أمكن ذلك، إلى المراعي في المرتفعات والهضاب، أو تتجمّع على مقربة من الآبار وبرك المياه. وبعكس الفلاحين العاملين في زراعة الأرض الذين قد تُنزع منهم

قيد الحياة. الملكية لدى الرُّعاة مشاعية، وهي تتخذ بصورة تقليدية شكل قطعان من الماشية عوضاً عن أراضٍ مُغلّة للمحاصيل الزراعية. إن الممتلكات والأراضي هنا ليس لها حدود مشتركة (كما هي الحال في المناطق ذات التساقطات المطرية العالية)، لأن الأرض قد يشغلها مستخدمون مختلفون تبعاً لاختلاف فصول السنة. وغالباً ما تُعتبر الموارد الحيوية، كالينابيع وآبار المياه، التي للجميع مصلحة فيها، مُلكاً للّه، إنما عُهد بها إلى أسر مخصوصة تكون قيِّمة عليها وتُعدّ نوعاً ما مقدسة.


بحر أوخوتسك
روسيا
ينيسي
كازاخ
قرقورم
منغوليا
قيرغيزيا
كاشغر
بيجينغ
هوانغ هو
كايفونغ
لوويانغ
الصين
لاسا
دلهي
نيبال
بوتان
نهر الغانج
بنغلاديش
بورما (ميانمار)
خليج البنغال
الهند
سري لانكا
المحيط
كانتون
هانوي
تايلاند
كمبوديا
بحر اليابان
كوريا الشمالية
كوريا الجنوبية
كايسونغ
البحر الأصفر
بحر الصين الشرقي
اليابان
المحيط الهادىء
مدار السرطان
تايوان
الفلبين
ماليزيا
إندونيسيا
غينيا الجديدة
بابوا غينيا الجديدة
ديار الإسلام
مناطق جافة
مناطق حرجية شمالية وجنوبية
سكان مسلمون 50٪ وما فوق


البرتغال
المملكة المتحدة
هولندا
الدانمرك
النرويج
السويد
ألمانيا
بولندا
أوكرانيا
إيطاليا
إسبانيا
مدريد
جبل طارق
الرباط
مراكش
الصحراء الغربية
المغرب
الجزائر
موريتانيا
السنغال
مالي
بوركينا فاسو
ساحل العاج
النيجر
نيجيريا
ليبيا
طرابلس
بنغازي
تشاد
مصر
القاهرة
الإسكندرية
السودان
الخرطوم
إثيوبيا
أديس أبابا
الصومال
كينيا
مومباسا
تنزانيا
زامبيا
أنغولا
ناميبيا
بتسوانا
موزامبيق
الكونغو
الجابون
الكاميرون
كابيندا
تركيا
سوريا
العراق
الكويت
إيران
أفغانستان
هراة
باكستان
المملكة العربية السعودية
اليمن
عدن
عمان
مسقط
الخليج العربي
بحر العرب
البحر الأسود
المحيط الأطلسي
الهندي
12,000
6,000
3,000
1,500
600
0 قدم

اللّغات والمجموعات العرقية الإسلامية

هنالك ما يناهز مليار مسلم في العالم اليوم، أي حوالى خُمس تعداد البشرية. وأكبر مجموعة فيهم ذات لغة واحدة هي العرب، بما يُشكّل زهاء 15 بالمئة من المسلمين. إنما ليس كل العرب مسلمين. فهنالك أقلّيات مسيحية عربية لا يُستهان بها في كل من مصر وفلسطين وسورية والعراق، وأعداد قليلة من اليهود الذين يتكلّمون العربية في المغرب، وإنْ كان عدد هاتين الجاليتين قد شهد هبوطاً سريعاً في العقود الأخيرة بفعل الهجرة بالدرجة الأولى. لقد هيمنت العربية، بما هي لغة القرآن والعلم والفكر الإسلاميين، زمناً طويلاً على ثقافات العالم الإسلامي؛ تليها مباشرةً الفارسية، لغة بلاد العجم والبلاط المغولي في الهند.

غير أن انتشار الدين الإسلامي بين شعوبٍ وأقوامٍ من غير العرب، قد جعل العربية لغة أقلّوية، وإنْ كان العديد من المسلمين من غير العرب يتلون القرآن بالعربية. وتبعاً لمسح إثنوغرافي نُشر عام 1983، ثمة ما يربو على 400 مجموعة عرقية/لغوية في صفوف المسلمين حالياً، لعلّ أكبرها بعد العرب، وبالترتيب نزولاً: البنغاليون، البُنجابيون، الجاويون، الناطقون بالأردية، أتراك الأناضول، السودانيون (سكّان شرق جاوه)، الفرس، الهوسا، الملاويون، الآذريون، الفولاني، الأوزبكيون، البشتون، البربر، السِّنديون، الأكراد، المادوريون (سكّان جزيرة مادورا، شمال شرقي جاوه). ويتراوح تعداد هذه المجموعات ما بين 100 مليون نسمة تقريباً (البنغاليون)، و10 ملايين (السنديون، الأكراد، المادوريون). ومن مئات المجموعات الصغرى التي تضمّها اللائحة، تأتي أصغرها طُراً، وهي: الواتيو، الذين يعملون في الصيد وجمع الثمار في إثيوبيا، ولا يزيد عددهم عن 2,000 نسمة لكن ثلاث لغات يتكلّم كلاً منها أزيد من 10 ملايين نسمة – وهي الجاوية والسوندانية والمادورية – تتعرّض حالياً للخنق من جانب الـ «بهاسا إندونيسيا»، وهي اللغة الرسمية المعتمدة اليوم في المدارس الإندونيسية. وحيث إن الإندونيسيين يُشكّلون أضخم بلاد في العالم ذات أغلبية إسلامية، فمن الممكن أن تتجاوز الـ «بهاسا إندونيسيا» اللّغة العربية من حيث كونها اللغة الإسلامية المحكية الأوسع انتشاراً.

وإلى جانب المسلمين الذين يعيشون في بلدانهم ذات الأصل العرقي المعروف، هنالك في الوقت الحاضر ملايين المسلمين المقيمين في أوروبا وأميركا الشمالية. وحيث إن اللّغة الإنجليزية هي اليوم اللغة العالمية للأعمال والتجارة والثقافة والعلوم، وبالنظر إلى أن المسلمين من الجيل الثاني في أوروبا وأميركا وكندا يتحدثون الإنجليزية (ناهيكم عن الفرنسية والألمانية والهولندية وسواها من اللّغات الأوروبية)، بات انتشار هذه اللغة بين المسلمين يُشكّل تطوّراً بارزاً في الآونة الأخيرة.

تُعد الدولة القومية الحديثة، القائمة على حدود معترف بها دولياً، ولغة مشتركة (في معظم الحالات)، ونظام قانوني عام، ومؤسّسات تمثيلية (سواء أكانت مُعيّنة أم منتخبة)، ظاهرةً جديدة في معظم العالم الإسلامي. فالحدود الحديثة المفروضة فرضاً في أحوال كثيرة، نتيجة ترتيبات وتفاهمات بين الدول الأوروبية، تترسم خطوطاً على الخرائط تنتهك وحدة الانتماءات اللغوية/العرقية، مما ترك شعوباً كالأكراد والبشتون، مثلاً، مُقسَّمة بين دولٍ مختلفة. قبل أن تُباشر التدخلات الاستعمارية بحبس البلدان الإسلامية داخل المنظومة العالمية للدول الأعضاء في الأمم المتحدة، كانت تلك البلدان تنزع إلى تنظيم نفسها على أساس مذهبي أو عرقي وليس على أساس إقليمي أو ترابي. فلم تكن للبلدان الإسلامية حدود مرسومة على خرائط. ولم تكن الحكومات فيها تعمل بانتظام ضمن مساحة معترف بها، كما هي الحال في أوروبا، «بل كانت بالأحرى تنطلق من عددٍ من المراكز الحضرية بقوةٍ تميل إلى الضعف كلما طالت المسافة وبرزت في وجهها موانع طبيعية أو بشرية» [ألبرت حوراني، «تاريخ الشعوب العربية»، لندن، منشورات فابر، طبعة منقّحة 2002، ص 138].

وبدلاً من أن تنصبّ الروح القومية، كما في إيطاليا النهضة وإنجلترا وهولندا، على المدينة، أو المدينة/الدولة، أو الأمة بالمعنى الإقليمي الحديث، انصبّت بالأحرى على العشيرة أو القبيلة ضمن إطار «الأمة» الأوسع: الجماعة الإسلامية على نطاق العالم أجمع. وقد تعزّزت أشكال التضامن المحلّي هذه

بممارسات من قبيل الزواج اللُّحمي بين أبناء العمومة المباشرين، وهو شرط لازم في العديد من المجتمعات الإسلامية. كما تدعّمت الولاءات العشائرية أكثر فأكثر بالعامل الديني، مع لجوء زعماء القبائل في كثير من الأحيان إلى تسويغ ثوراتهم أو غزواتهم بالدعوة إلى الذود عن حياض الإسلام الحقّ في وجه أعدائه الكفّار.

إذا ما نظرنا إليها من منظور تاريخ الغرب الحديث، نجد أن أنظمة الحكم التي عرفتها المناطق الجافّة أو القاحلة كانت بوجه عام غير مستقرّة وباعثة للخلاف والشقاق. في أوروبا، وهي منطقة تتميّز بمعدلات تساقط أمطار عالية، خرجت الدولة من رحم الصراعات الدستورية ما بين الحكّام والمحكومين، تغذّيها الصراعات بين الطبقات الاجتماعية إنما داخل سكّان متجانسين يتشاطرون نفس الهُويات القومية والسياسية والثقافية (وإن شابها نزاع في بعض الأحيان كما في إيرلندة مثلاً). أما في المناطق الجافّة، فقد فرضت العشائر المتغلّبة، أو السلالات ذات الركائز القبلية، هيمنتها على المجموعات المرؤوسة، أو سعت إلى ضمان هيمنتها تلك عن طريق استقدام المماليك (وهم من العسكر المسترّق) من أطراف البلاد النائية، ممن لا يربطهم بسكّان البلاد الأصليين سوى الحدّ الأدنى من العلاقات الاجتماعية. فبقي الزرّاع أهل الفلاحة وكذلك أهل المدن والأمصار، عُرضةً لأعمال السلب والنهب من جانب البدو الرُّحَل، ممّن كان يُضرب بهم المثل بالصيحة: «البرابرة على الأبواب»! كانت العصبية التي تشدّ أفراد العشيرة إلى بعضهم بعضاً أقوى من أي شكل من أشكال التضامن المديني. وإذ افتقرت الطبقات المدينية المسلمة إلى روح التلاحم النقابي التي ميّزت نظيرتها في الغرب، فقد أخفقت في تحقيق الثورة البرجوازية أو الرأسمالية التي أفضت إلى قيام أنظمة الدولة الحديثة في أوروبا وأميركا الشمالية.

بيد أن هناك طريقة مُغايرة لمعاينة المشهد ذاته. فعلى ضوء غلبة البداوة الرعوية على الحزام الشاسع من الأراضي التي ضرب فيها الإسلام جذوره، والممتد من سهوب كازاخستان إلى سواحل الأطلسي (وكذلك الأمر في المناطق المشابهة في شمال الهند وإلى الجنوب من الصحراء الإفريقية الكبرى)، كان عجز الدول الزراعية الضعيفة نسبياً عن فرض الضرائب على الرُّحَّل من ممتهني السلب والنهب أو عن ضبطهم ولَجْمهم بواسطة القوة العسكرية، تعوّضه نوعاً ما القوة الأدبية للإسلام وهيبته الثقافية. وقد حدث مراراً، في عصور ما قبل الاستعمار، أن صار النُّهّاب أنفسهم مدافعين موثوقين عن الإسلام؛ أو إذا ما استعرنا هنا جُملةً للعالم الأنثروبولوجي إرنست غيلنر، «صارت الذئاب كلاباً للرعيان». ومثلما روّض النبي محمد قبائل الجزيرة العربية بما ضربه لها من أمثلة شخصية، فضلاً عن الإعجاز القرآني ونظام الحُكم المنبثق عنه، كذلك عملت الشريعة (الإلهية) وأنظمة الفقه (البشرية) معاً على تسوية الخلافات والنزاعات التي كانت تترى بين قُطاع الطرق الرعويين والزّراع وأهل الأمصار. وهذا النظام المتأصل في الذاكرة الاجتماعية لمسلمي الحاضر، كان يقوم على واجب الحاكم في إقامة العدل وذلك بالحُكم وفق الشرع الإسلامي. والمهمة الجسيمة التي تُواجه الدول الإسلامية المعاصرة، هي كيف تُسخَّر تقاليد سياسية واجتماعية يعرف الجميع أنها تشكّلت في بيئة تختلف كل الاختلاف عن الظروف السائدة حالياً.

شرطي من الطوارق في منطقة الساحل جنوبي الصحراء الكبرى. من مركزهم في تمبكتو، سيطر الطوارق على طرق التجارة بين البحر المتوسط وغرب إفريقيا.




كازاخستان
الفارسية
كازاخ
ويغور
قيرغيزيا
أوزبكستان
تركمنستان
طاجيكستان
كابول
أفغانستان
لاهور
دلهي
الأردية
أحمد آباد
كالكوتا
داكا
بنغلاديش
بوتان
نيبال
الهند الإنجليزية
بومباي
حيدر أباد
بنغالور
مدراس
سري لانكا
المحيط الهندي
منغوليا
هاربين
شينيانغ
بيجينغ
تيانجين
كوريا الشمالية
سيئول
كوريا الجنوبية
بوسان
اليابان
الصين
تشنغدو
ووهان
شنغهاي
غوانغزو
تايوان
هونغ كونغ
المحيط الهادىء
هيتان
بورما (ميانمار)
رانغوون
تايلاند
بانكوك
كمبوديا
لوزون
مانيلا
الفلبين
مينداناو
بروناي
ماليزيا
سومطرة
بورنيو
سولاويزي
جاكارتا
جاوه
أندونيسيا
تيمور
ش


لغات وشعوب الإسلام
سكان مسلمون، 50٪ وما فوق
الإنجليزية لغات إمبريالية ما زالت تستعمل محلياً
فرنسا
لوكسمبورغ
جمهورية تشيكيا
سلوفاكيا
أوكرانيا
مولدافيا
النمسا
المجر
رومانيا
سويسرا
سلوفينيا
البوسنة والهرسك
بلغاريا
البحر الأسود
جورجيا
أرمينيا
أذربيجان
بحر قزوين
روما
إيطاليا
ألبانيا
اليونان
أثينا
إسطنبول
أنقرة
تركيا
مدريد
إسبانيا
البرتغال
لشبونة
البحر المتوسط
الجزائر
تونس
طرابلس
الرباط
الدار البيضاء
بربر
الجزائر
ليبيا
سورية
لبنان
فلسطين
الأردن
الإسكندرية
القاهرة
العراق
بغداد
طهران
الفارسية
الكويت
العربية
الرياض
المملكة العربية السعودية
مصر
العربية
الفرنسية
الصحراء الغربية
موريتانيا
بربر
مالي
طوارق
النيجر
تشاد
الخرطوم
السودان
أريتريا
اليمن
أديس أبابا
إثيوبيا
الصومال
السنغال
داكار
غينيا
كوناكري
ليبيريا
ساحل العاج
أبيدجان
أكرا
توغو
بنين
هوسا
نيجيريا
لاغوس
الكاميرون
جمهورية إفريقيا الوسطى
أوغندا
كينيا
نيروبي
تنزانيا
دار السلام
المحيط الأطلسي
الغابون
جمهورية الكونغو
الكونغو
كينشاسا
لواندا
أنغولا

العصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام

خرجت جماعة المسلمين إلى الوجود في الجزيرة العربية إبّان القرن السابع الميلادي، وكانت المنطقة التي شهدت مولدها محل سيطرة حضارات وأمبراطوريات وثقافات ومجموعات عرقية عريقة. فما زالت آثار من حضارة بلاد الرافدين حيّةً إلى اليوم في واديَيْ دجلة والفرات؛ ولطالما شعرت المناطق المحاذية للبحر المتوسط والخليج بوقع القوى المجاورة التي كانت تزرع خطوط التجارة البحرية في تلك المياه ذهاباً وإياباً. كانت بيزنطة، الدولة الرومانية الأرثوذكسية الشرقية، التي تتخذ من القسطنطينية قاعدة لها، المملكة المسيحية الأولى في المنطقة، وكانت على خصام مع الأمبراطورية الساسانية الزرادشتيّة الجبّارة في بلاد فارس (إيران حالياً).

نقشٌ بارزٌ على الصخر من ماغشي – روسفان، يصوِّر أردشير الأول، مؤسس السلالة الساسانية، وهو يواجه محارباً معادياً من بارثيا.



والمدّ والجزر في النزاع بين مختلف القوى الكبرى آنذاك كان له أكبر الأثر على التجارة، وكذلك على العلاقات مع المنطقة المزدهرة الواقعة إلى الجنوب منها في الجزيرة العربية. ولا يزال تاريخ بعض الممالك العربية الغابرة محفوظاً إلى الآن في الأوابد والمخلّفات الأثرية كتلك القائمة في البتراء النبطية (القرن الأول ق.م–القرن الأول م)، وتدمر (القرن الثاني – القرن الثالث)، وفي آثار الغساسنة في القرون اللاحقة الذين كانوا يتمتعون بحماية البيزنطيين، واللخميين الذين كانوا يدينون بالولاء للأمبراطورية الساسانية.

والتأثير الأكبر على الحياة الثقافية التي قُيِّض لها أن تظهر في العالم الإسلامي، جاء من الأكاديميات ومعاهد التعليم التي صانت المؤثّرات الفارسية والإغريقية والهندية. ولعلّ الإرث الهلّينستي والفارسي في حقول الطب والعلوم والفلسفة بنوع خاص، هو ما سيخلق ذلك التقليد القوي المتمثّل في حُب البحث والفضول الفكري في المجتمعات الإسلامية العتيدة.

هذا وقد تأثرت ثقافات المنطقة، وإنّ بدرجات متفاوتة، بالطابع الكوزموبوليتاني للعالم المتوسطي هذا، فحفظت بذلك تراث العصور القديمة الكلاسيكية والتراث الهلّينستي بأشكالهما المختلفة، المعمارية والفلسفية والفنية والمدينية والزراعية. ومن بين أبرز الديانات التي عرفتها المنطقة، الديانة المسيحية في صيغتها الأرثوذكسية التي دانت لها الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية، فيما سيطرت الزرادشتية على إيران وبلاد ما بين النهرين. ولليهودية تاريخٌ مديد في الشرق الأدنى، كما استقرّت جاليات يهودية صغيرة في اليمن وواحات الجزيرة العربية مثل يثرب (المدينة). وقد تعايشت القيم والآداب والتقاليد الموروثة من كل هذه الحضارات في تلك البيئة الشاسعة، المتعدّدة الديانات والمتعددة الأعراق، التي لن يمضي قرنٌ من الزمن على وفاة النبي محمد إلاّ وتكون قد بوغتت بالفتوحات الإسلامية لها. ولسوف تُشكّل مع مرور الزمن جزءاً من منظومة حضارية أكبر مقترنة بالدين الإسلامي، إنما محافظة في الوقت عينه على تواصلٍ مع شتى تراثات العصور القديمة.



الجزيرة العربية قبل الفتوحات الإسلامية
مناطق احتلها الساسانيون (607–628)
كلب قبيلة عربية
البحر الأسود
القسطنطينية
أنقرة
الأناضول
الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة)
(دولة الروم)
أنطاليا
جبال القوقاز
بحر قزوين
(بحر الخزر)
أردبيل
قزوين
الري
دارا
نصيبين
الرها
حران
دابق
حلب
أنطاكية
حماه
حمص
طرابلس
تدمر
قبرص
البحر المتوسط
(بحر الروم)
دمشق
صور
قيسارية
يرموك
الإسكندرية
القدس
أجنادين
مؤته
بترا
الفسطاط
(القاهرة)
غسّان
كلب
لخم
جلولاء
نهاوند
المدائن
كربلاء
الكوفة
قادسية
الإمبراطورية الساسانية
أصفهان
بلاد فارس
البصرة
اصطخر
(برسوبوليس)
بكر
غطفان
سيراف
صحراء النوبة
جهينة
يثرب (المدينة)
بدر
مدار السرطان
كندة
اليمامة
حنيفة
نُبطيّة
مازن
قُريش
سُلَيم
مكة
الحجاز
الجزيرة العربية
هوازن
مقُرة
دنقلة
أزد
مهرة
الربع الخالي
علوة
اليمن
أقشوم
حِميَر
بحر العرب

رسالة محمد وغزواته الحربية



يُعدّ تصوير النبي محمد في رسوم من المحرّمات. لكن جرى تداول صور المآثر البطولية لعمه حمزة وآخرين إظهاراً لأولى المعارك الملحمية التي خاضها المسلمون. هذا الرسم من الهند (حوالى 1561–1576)، واحدٌ من سلسلة تصاوير كبيرة الحجم كانت تُعرض على الجمهور أثناء سرد وقائع تلك القصص الملحمية.

الإسلام اسم مشتق من الفعل العربي «أسلم»، أي سلّم المرء نفسه واستسلم. واسم الفاعل «مسلم» يعني، أولاً وأساساً، تسليم الإنسان أمره لله كما تجلّى في تعاليم الرسول محمد (ن 570–632). هذا ويؤمن المسلمون بأن محمداً قد تبلّغ الوحي الإلهي بحذافيره منجّماً في القرآن، هذا الكتاب الذي ينظر إليه المسلمون على أنه التنزيل الأخير من الله إلى البشر. جُمع القرآن في عهد ثالث الخلفاء الراشدين، الخليفة عثمان بن عفّان (ح 644–656)، وهو يتألف من 114 فصلاً أو سورة. ويُقال إنها تنزّلت على محمد في مسقط رأسه مكّة، حيث كان يعمل في التجارة؛ كما أن هناك سوراً تعود إلى فترة إقامته في المدينة (622–632).

في مكّة، تسبّبت إدانة القرآن للآثام والشرور، مثل الكبرياء والغرور والجشع وإهمال الواجبات الاجتماعية، وكذلك تحذيراته من يوم الحساب وتهجّماته على عبادة الأوثان، بنشوب نزاع حادّ بين محمد وأتباعه من جهة، وزعماء قبيلته قُريش من جهة أخرى. فتعرّض أبناء عشيرته للمقاطعة، والمهتدون إلى الإسلام للاضطهاد، مما حمل بعضهم على اللجوء إلى أقشوم (في الحبشة). إلاّ أن شهرة محمد كنبي ورسول الله الصادق الأمين، تجاوزت حدود مكّة، فكان يُدعى إلى القضاء والتحكيم بين فئات القبائل المتخاصمة في يثرب، التي سُمّيت لاحقاً بـ «مدينة النبي»، وتُختصر عادةً بـ «المدينة»، وهي واحة مأهولة تقع على مسافة 250 ميلاً إلى الشمال الشرقي من مكّة. وهجرة المسلمين إليها في العام 622 تؤرّخ لبداية العصر الإسلامي. وتحتوي آيات القرآن التي تعود زمنياً إلى حقبة المدينة، حين كان محمد بمثابة الحاكم الفعلي فيها، على شطرٍ من المادة التشريعية، كأحكام الزواج والميراث، التي سوف تُشكّل لاحقاً ما يُعرف بالقانون أو الشرع الإسلامي.

وبعد سلسلة من الحملات والغزوات ضد المكّيين، خرج المسلمون ظافرين. وفي السنة الأخيرة من حياته، رجع محمد مظفّراً إلى مكّة، حيث أعلنت القبائل عن خضوعها له وامتثالها لأمره على امتداد طريق العودة. وقد قام بإصلاح شعائر الحجّ القديمة، فنزع عنها جوانبها الوثنية وأعاد توجيهها نحو ما آمن بأنه التوحيد الإبراهيمي الأصلي. وبعد تنظيم بضع حملات إضافية، عاد محمد إلى المدينة، حيث وافته المنية بعد مرضٍ قصير ألمّ به في العام 632.


بعثات محمد وسراياه (إلى عام 632)
مسار محمد إلى مكة
حملات/ سرايا
دانت لمحمد حتى 632
دانت لأبي بكر 632-634
موضع معركة وتاريخها
الأناضول
سميساط
الرها
حران
مرعش
دابق
حلب
أنطاكية
الرقة
قبرص
حمص
طرابلس
البحر المتوسط
(بحر الروم)
دمشق
قيسارية
غزة
القدس
دمياط
الإسكندرية
هليوبوليس
الفسطاط
(القاهرة)
الموصل
قزوين
الري
همذان
جلولاء
نهاوند
المدائن
واسط
الكوفة
قادسية 636
البصرة
إصفهان
كرمان
شيراز
سيراف
الدولة الساسانية
دومة الجندل
الخليج العربي
خليج عُمان
اليمامة
جزيرة العرب
625
المدينة
624
مكة
632
630
البحر الأحمر (بحر القلزم)
الربع الخالي
633
صنعاء
633
بحر العرب
أسوان
نُبطية
مقُرة
علوة
أقشوم
0
400 كلم
400 ميل
ش

توسُّع الإسلام حتى عام 750



تركت وفاة الرسول محمد جماعة المسلمين من دون أي قائد بيِّن، فكان أن اختار عدد من الزعماء واحداً من أقدم أصحابه، هو أبو بكر الصديق (ح 632–634)، ليكون أول خليفة له. وخلال فترة حكمه وحُكم خَلَفِهِ عمر بن الخطّاب (634–644)، أُعيد توحيد القبائل التي ارتدّت بعد موت الرسول، وتحوّلت تحت راية الإسلام إلى قوة عسكرية وأيديولوجية جبّارة. اندفع المسلمون خارجين من الجزيرة العربية، ففتحوا نصف الولايات البيزنطية، وهزموا جيوش فارس الساسانية. سقطت المدائن، عاصمة الفُرس، في العام 736، والقدس في العام 638. وفي فترة حكم عثمان بن عفّان، خَلَفِ عمر بن الخطّاب، دانت مصر بكاملها لسيطرة المسلمين العرب، وكان ذلك بحلول عام 646. اقتنى العرب السفن من مصر وسورية، وبواسطتها أخذوا يشنّون غارات بحرية، فانتزعوا قبرص في العام 946، ونهبوا رودس في العام 654. وعملت الفوارق والخلافات المذهبية بين الحكّام البيزنطيين ورعاياهم في مصر وسورية على تسهيل الأمر للمسلمين، فقوبلوا باللامبالاة، إنْ لم نقل بالترحاب، من جانب من يُشاطرهم الإيمان بإله واحد، الذين زادتهم عقودٌ من الحكم البيزنطي الغريب عنهم شعوراً بالسخط والمرارة. غير أن العوامل الدنيوية كانت مهمّة هي الأخرى. فالحافز المحرِّك للعرب كان الرغبة في المغانم، فضلاً عن الإيمان الديني. في الماضي، كان المغيرون من البدو يكتفون بالنهب أو يُسيطرون على الأرض، إنما ليتفرّقوا

قبة الصخرة في القدس، بناها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في العام 691–692، وتُعتبر أكبر صرح شُيِّد بعد الفتح العربي. يزدان المبنى بآيات قُرآنية تتحدّث عن وحدانية الله، وهو يكتنف الصخرة التي يُعتقد أن النبي قد عرج منها في «إسرائه» الإعجازي إلى السماء.





بعد ذلك بصفتهم أصحابها أو مفتلحيها بين باقي الشعوب المقهورة. لكن الخليفة عمر، الذي عُرف عنه تبصّره وبُعد نظره، قرّر تشجيع القبائل على الاستقرار وفق نظام من المعاش [العطاء] يُدفع من الخزينة العامة [بيت المال] التي وضعت يدها على الأراضي المفتوحة. غير أنه أبقى العرب منفصلين عن بقية السكّان، داخل معسكرات مسلحة نمت حتى صارت مُدناً أشبه ما تكون بالحاميات العسكرية، كالبصرة والكوفة في العراق. صحيح أن التوتر الناشىء عن توزيع الغنائم [الفيء] كان ينفجر أحياناً على صورة حرب أهلية مفتوحة، إلاّ أن الإشراف العام من جانب الحكومة الإسلامية الحديثة العهد لم يتوقف في ظل الحُكم السلالي. ولئن وجدت السلالات الحاكمة من يتحدّاها في بعض الأحيان بوصفها حُكماً منافياً للمبادىء الإسلامية في العدالة والمساواة، إلاّ أن الحُكم السلالي كان على أتمّ انسجام مع الشكل السائد من التنظيم الاجتماعي القائم على الجماعة القرابية ذات الطابع الأبوي، وبقي هو النمط الساري المفعول إلى يومنا هذا. وقد واصل الإسلام انتشاره وتوسّعه في ظل الأمويين، بحيث وصلت أقدام المُغيرين العرب إلى مناطق قصيّة كوسط فرنسا ووادي السند.

انتشار الإسلام 751 - 1700

بُرج الجامع الكبير في القيروان بتونس. يعود بناء هذا المسجد إلى القرن التاسع الميلادي، وقد بُني في نفس موقع مدينة قرطاجة القديمة. وتصميمه الهندسي المتميِّز بثلاثة أبراج يعلو واحدها الآخر، مقتبس من وظيفة المنائر وأبراج المراقبة في العصور الكلاسيكية.

لقد توسَّع الإسلام بالفتح والهداية معاً. وإذا قيل أحياناً إن الدين الإسلامي انتشر بحد السيف، فليس معنى ذلك أن الاثنين متطابقان. يقول القرآن وبصورة لا لبس فيها: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة، 652]. واقتداءً بالسابقة التي أرساها الرسول، والتي سمح



بموجبها لليهود والنصارى بالبقاء على دينهم إذا ما أدّوا الجزية، كفل الخلفاءُ لجميع الشعوب من أهل الكتاب (بمن فيهم الزرادشتيون) الحقَّ في ممارسة شعائرهم الدينية شريطة أن يدفعوا الجزية، وهي كناية عن ضريبة تُسدَّد لقاء الإعفاء من الخدمة العسكرية. في البدء، بقي الإسلام ديناً للعرب، ورمزاً للوحدة وشارةً للغلبة. وحين اعتنق الناس الإسلام، طُلب من المهتدين الجُدد أن يكونوا موالي (أي وكلاء) للقبائل العربية، وبما يُفترض معه احتفاظ العرب بالدور المهيمن.

بيد أن عوامل كثيرة شجّعت الناس على الدخول في الإسلام بُعيد الفتوحات الأولى. فبالنسبة لأولئك المسيحيين الذين أرهقتهم قرون طويلة من المشاحنات اللاهوتية المتحذلقة حول التوازن الدقيق بين طبيعَتَيْ المسيح الإلهية والبشرية، جاء الإسلام حاملاً إليهم رحابة صدر دين يتبوأ فيه المسيح مكانةً مشرّفة بوصفه بشيراً بمحمد. كذلك الأمر بالنسبة لليهود، فقد بدا الإسلام لهم كإيمان مُقوَّم بديانة إبراهيم وموسى. وحتى الزرادشتيون الذين جُرِّدوا من أي دعم رسمي لديانتهم عقب الفتح العربي للأمبراطورية الساسانية، وجدوا في الإسلام ديناً مثل دينهم، يقيم وزناً لمسؤولية الفرد الأخلاقية؛ ولاحقاً في فكرة المهدي الشيعية، مفهوماً شبيهاً بعقيدة «الساوشيانت» في الأخرويات الزرادشتية. تتميّز الأفكار المسيحانية (المخلّصية) بجاذبية عامّة، وهي منبثّة في جميع التعاليم الدينية تقريباً. في أعقاب الفتوحات الإسلامية للهند، صار «الإمام المنتظر» بحسب الأخرويات الشيعية يتماهي في بعض الأحيان مع التجسُّد المرتقب للإله فيشنو. وفي الحواضر، ساهم المهتدون إلى الإسلام من الديانات الأقدم عهداً في نزع الصبغة القبلية عن دين العرب من خلال توكيد حقّهم كمسلمين، والتشديد على عالمية رسالته، وكذلك من خلال التنويه بوظيفته كمشرعن في إرساء النظام الاجتماعي الجديد وأشكال السلطة السياسية الجديدة. ولعلّ البساطة التي تسم عملية اعتناق الإسلام (النطق

جهراً بالشهادتين أمام شهود عدول ليس إلاّ) كانت تتغاير مغايرة صارخة لصالحها مع الإجراءات الشديدة التعقيد لاعتناق الديانات الغامضة. ففي إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، أمكن «أسلمة» الأرواح المحلية بسهولة عن طريق دمجها في المحشر القرآني من الملائكة والجان والشياطين. كما أمكن لعبادة الأسلاف، هي الأخرى، أن تُكيِّف نفسها بواسطة تطعيم مجموعات القرابة المحلّية بأنساب روحية، عربية أو صوفية.

لكن كان هناك أيضاً المزيد من الاعتبارات الدنيوية وراء العديد من عمليات الدخول في الإسلام. فأحكام الزواج الإسلامية ترجّح الكفّة لصالح دين الإسلام قطعاً، ذلك أن امرأة من أهل الذمّة غير مُلزمة حين تتزوج من مسلم أن تُغيِّر دينها، والعكس غير صحيح. إذ من المفترض أن ينشأ الأولاد على دين الإسلام، وفي ذلك ما يضمن أسلمة الأجيال القادمة. وقد كان لهذه الميزة الديمغرافية شأنٌ كبير في مجتمعات جرت العادة فيها أن يتزوج المنتصرون من نساء القبائل المهزومة. وبصورة أكثر عمومية، كان هنالك ذلك الميل الطبيعي لدى أُناس يتصفون بالنباهة والطموح إلى الالتحاق بصفوف النُّخب الحاكمة. ففي المجتمع الإسلامي المتطوّر في الحواضر، كمدن إيران والعراق مثلاً، صارت معرفة الشريعة والأحاديث النبوية، إلى جانب تحصيل العلوم غير الدينية كالأدب والفلك والفلسفة والطب والرياضيات، بمثابة علامة فارقة على الطبقات الشريفة (الأرستقراطية). لكن التأسلم بدافع من الطموح الاجتماعي ينبغي ألا يُوصم بوصمة الانتهازية البحتة. فالعالم الإسلامي في أوج ازدهاره في العصور الكلاسيكية، كان المجتمع الأرقى تطوّراً والأرفع ثقافةً خارج الصين. لذلك كان أمراً طبيعياً أن تكون للخصال المدينية، من رصانة ونظام وترتيب وغيرها، جاذبيتها الخاصة بمعزل عن النشاط التبشيري الواعي. فالقاطنون عند أطراف المناطق التي تُشكّل قلب الإسلام، سوف يُطالعهم الدين الإسلامي بأشكال ومظاهر شتى: تجار متعلّمون مثقفون؛ معلّمون ودارسون متجولون؛ دراويش صمدانيون؛ أمراء أروميون محاطون ببطانات تخلب الألباب؛ مثقفون ودُعاة مذاهب سرّية متفذلكون يعرفون كيف يكيّفون عقائدهم وطقوسهم بحيث تُناسب جمهوراً تتباين خلفياته الثقافية أشدّ التباين. وربما لافتقاره إلى برنامج تبشيري موجَّه توجيهاً مركزياً، أثبت الإسلام أنه أكثر ما يكون قُدرةً على الانتشار بصورة عضوية.



هذه النسخة من القرآن المرقونة بالخط المحقّق، أُنجزت في بغداد عام 1308. وينمّ قياسها الكبير عن كونها نسخة موهوبة كي يستخدمها عموم المصلّين في المسجد.


المحيط القطبي
النرويج
السويد
سانت بطرسبرغ
موسكو
بولندا
المجر
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
الدولة البابوية
سيبيريا
الإمبراطورية الروسية
نوغاي
قيرغيز
كلمبك
تركمان
أوزبك
القسطنطينية
الإمبراطورية العثمانية
الدولة الصفوية
الإمبراطورية المغولية
التبت
القاهرة
الجزيرة العربية
مكة
عمان
اليمن
دارفور
وادي
كانم بورنو
الحبشة
أرومو
أراكان
غوا
أراضي المرهتها
الممالك الهندية
سيلان
المدن/ الدول الإسلامية
مومباسا
كونغو
لواندا
لوندا
لوبا
جزر القمر
موزمبيق
روزوي
ج موريشوس
فورت دوفين
خليج دلغوا
مدينة الكاب
أوختشوك
إمبراطورية مانشو الصينية
كوريا
اليابان
فورموزا
جزر الفلبين
مانيلا
كامبوديا
ملقا
بورنيو
جزر سيلويبز
جزر التوابل
سومطرة
ماتارام
تيمور
غينيا الجديدة
المحيط الهادىء
المحيط الهندي
هولندا الجديدة



انتشار الإسلام (1700-750)
انتشار الإسلام حتى 900
انتشار الإسلام حتى 1300
انتشار الإسلام حتى 1500
انتشار الإسلام حتى 1700
أراض فقدها الإسلام بحلول 1300
أراض فقدها الإسلام بحلول 1500
أراض فقدها الإسلام بحلول 1700
المحيط الهادىء
المحيط الأطلسي
نيابة الملك لإسبانيا الجديدة
غرينلاند
أراضي روبرت
فرنسا الجديدة
نيوفاوندلاند
نوفا سكوتشيا
المستعمرات البريطانية
فلوريدا
البهاما
كوبا
هسبانيولا
جامايكا
بليز
بورتوريكو
ساحل البعوض
ترينيداد
سنتافي
كيتو
ليما
لاباز
سنتياغو
رسيف
باهيا
إيسلندا
سكوتلندا
إيرلندا
انجلترا
فرنسا
البرتغال
جزر الأزور
ماديرا
المغرب الأقصى
جزر الكناري
جزيرة كاب فردي
سانت لويس
مالي
المينا
مدار السرطان
مدار الجدي
خط الاستواء
الدائرة القطبية

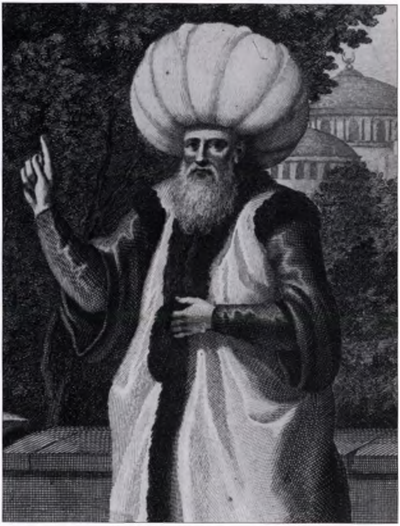
السُّنّة، والشيعة، والخوارج 660 - ن 1000

الانقسامات الرئيسية في الإسلام، المتمحورة أساساً على مسألة الزعامة، ترجع زمنياً إلى وفاة الرسول محمد، إلاّ أنها اشتدت وتفاقمت مع أولى الحروب الأهلية (656–661)، وتداعياتها في الجيل التالي (680–681). كان الخليفة الأول، أبو بكر، واحداً من أقدم صحابة الرسول ووالد أصغر زوجاته سنّاً، عائشة. وقد اختير عند وفاة الرسول بدعمٍ قوي من عمر، وكان من أوائل المهتدين إلى الإسلام ويتحلّى بكل مزايا القائد بالفطرة. وحين حضرت الوفاة أبا بكر، لقيت خلافة عمر قبولاً عاماً. وخلال فترة حكمه التي دامت عشر سنوات، أخذت الدولة الإسلامية بالتشكّل. كذلك بدأت تظهر في عهده التوترات والمنازعات الناجمة عن الفتوحات، وذلك حول تقاسم الغنائم ومكانة زعماء القبائل في النظام الإسلامي الجديد. وقد بقي هذا التوتر تحت السيطرة بفضل حكم عمر الذي اتسم بالصرامة والطُهرانية، إلاّ أنه لن يلبث أن ينفجر على نحو فاجع إبّان عهد خَلَفِهِ، عثمان، الذي اغتيل في المدينة على أيدي مُقاتلين ساخطين عائدين من مصر والعراق. فبالرغم مما عُرف عن عثمان من التزام شديد بالدين الجديد، وهو الذي كان من أوائل الداخلين فيه، لطالما ارتبط اسمه بعشيرة بني أميّة في مكّة، التي عارضت في الأصل رسالة محمد. فقد اتُهم بمحاباة أبناء عشيرته على حساب مسلمين أكثر تقوى وصلاحاً منهم. وقد تكوكب هؤلاء حول علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول وأقرب أنسبائه الذكور من الأحياء، الذي رأى بعض أتباعه أنه الشخص المختار أصلاً لخلافة الرسول، والذي تبوأ الآن سدة الخلافة فعلاً. غير أن إخفاق علي في معاقبة قتلة عثمان حمل اثنين من أقرب صحابة النبي محمد، وهما طلحة والزُبير، على شق عصا الطاعة بدعمٍ من عائشة. ولئن هزم عليّ هذين الرجلين، إلا أنه لم يتمكّن من التغلّب على نسيب عثمان، معاوية بن أبي سفيان، والي بلاد الشام، في معركة صفّين. وقراره الأخير بالسعي إلى إجراء تسوية مع معاوية، أثار تمرداً في صفوف أشدّ أنصاره تشدّداً وكفاحيةً، أولئك الذين عُرفوا فيما بعد باسم «الخَوارج». صحيح أن علياً أنزل هزيمة نكراء بالخوارج في تموز/يوليو 658، إلاّ أنه كُتب البقاء لعدد كافٍ منهم لمواصلة الحركة إلى يومنا هذا، وإنّ في صيغة معتدلة تُعرف بـ« الإباضية». وقد ثأر أحد زعماء الخوارج، ويُدعى ابن ملجم، لرفاقه بأن اغتال علياً عام 661. فتوصل الحسن، أكبر أبنائه سنّاً، إلى تسوية مع معاوية المنتصر، الذي أضحى بذلك أول خليفة أموي. وعند وفاة معاوية في العام 680، ووراثة ابنه يزيد الحكم، قام الحسين، الابن الأصغر لعلي، بمحاولة لاسترجاع الخلافة وإعادتها ثانيةً إلى ذرية النبي الأقربين. لكن المذبحة التي أودت بحياة الحسين ونفرٍ من أتباعه في كربلاء في العام 680 على أيدي جنود يزيد، ولّدت موجةً من الندم والتوبة بين أتباع علي في العراق [حركة التوّابين] وصاروا هؤلاء يُعرفون منذئذ بـ «الشيعة»، أي شيعة علي.

لطالما أبدى أباطرة المغول وذرّيتهم عناية ثابتة بتاريخ دينهم وحكمته، وقد تجلّى ذلك في مذكراتهم ورسومهم على السواء. بحلول منتصف القرن السابع عشر، كان الفنانون التابعون للأمبراطور جاهانغير قد طوّروا تصميماً تصويرياً يظهر فيه حكيمان أو وليّان على الأقل وقد اقتعدوا بساطاً يتناقشون فيما بينهم. لم يتورع فنّانو الحقبة المغولية عن تصوير أولياء خرافيين من الماضي كما لو أنهم بعد أحياء. الشخصيات البادية في هذا الرسم تُمثّل الاتجاه السلفي. وحده الدرويش حاسر الرأس إلى يسار الصورة يُمثّل الخروج عن «الخط المألوف».



الخلافة العباسية في ظل هارون الرشيد



صورة تُمثِّل هارون الرشيد يغلب عليها الطابع الرومانسي للقرن التاسع عشر، ويظهر في خلفية الرسم مسجد على الطراز العثماني. كان إحياء الخلافة الإسلامية من جانب سلاطين بني عثمان خطوة يُراد منها تخويلهم حق رعاية المسلمين في البلدان الأوروبية، وذلك لموازنة الحقوق المدّعاة من طرف هذه الأخيرة على رعايا السلطان من المسيحيين.

ثمة إجماع على أن فترة حُكم الخليفة هارون الرشيد (ن 764–809) تُمثل ذروة الفتوحات العسكرية والتوسّعات الإقليمية في ظل الدولة العباسية، حيث امتدت الخلافة من حدود الهند وآسيا الوسطى إلى مصر وشمال إفريقيا.

برز هارون الرشيد من خلال ارتقائه الصفوف كقائد عسكري قبل تسلّمه مقاليد الخلافة من أخيه المغدور، الهادي (ح 785–786)؛ كما عمل والياً على عددٍ من الأمصار، منها إفريقية (تونس حالياً)، ومصر، وسورية، وأرمينيا، وأذربيجان. وحملاته العسكرية على البيزنطيين (الروم)، أجبرتهم على البقاء في وضعٍ دفاعي حرج. لدى تبوئه سُدّة الخلافة في العام 786، أقام هارون علاقات دبلوماسية مع شارلمان (ح 742–814) ومع أمبراطور الروم. كما أنشأ صلات دبلوماسية وتجارية مع الصين.

كثيراً ما يُشار إلى حكم هارون الرشيد على أنه «العصر الذهبي»؛ أي حقبة من النشاط الثقافي والأدبي الفائق الأهمية، ازدهرت خلالها الفنون، والنحو العربي، والآداب والموسيقى بفضل رعايته لها. هذا ويبرز الرشيد كأجلى ما يكون البروز في العمل الأدبي الشهير: «ألف ليلة وليلة». ومن بين جُلسائه وسُمّاره، نذكر الشاعر أبا نواس (ت 815)، الذي عُرف بخمرياته وغزلياته، والموسيقي إبراهيم الموصلي (ت 804). وكان أبو الحسن الكسائي (ت 805)، معلّم الرشيد ومؤدب أولاده، وجهاً مرموقاً بين النُّحاة العرب ومقرئي القرآن في عهده. وفي عهده أيضاً، نُقلت بعض النصوص الكلاسيكية من اليونانية والسريانية وغيرهما إلى العربية. واشتهر هارون بهباته السخية؛ فكانت قصيدة مُحكمة النظم قمينة بأن تُكسب صاحبها فرساً، أو صُرّة ذهبٍ أو حتى عزبة بحالها. كذلك عُرفت زوجته زبيدة بعمل البرّ وصنيع الخير، ولاسيما وقوفها وراء حفر عدد كبير من آبار

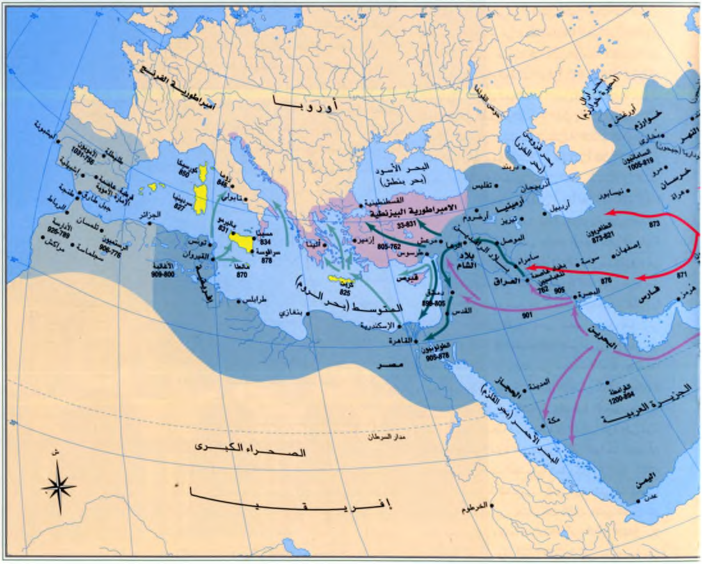


المياه على طريق الحجّ من العراق إلى المدينة.

كذلك شهدت حركة التصوُّف الإسلامي ازدهاراً كبيراً في عهد الخليفة هارون الرشيد. فكان الزاهد والمتصوّف الشهير، معروف الكرخي (ت ن 815)، من بين أبرز الشارحين للصوفية في بغداد. على النقيض من ذلك، انتهج هارون الرشيد سياسة التضييق على الشيعة، الذين دأبوا يتحدّون سلطانه على أرجح الظنّ.

اتسم النصف الأخير من حكم الرشيد بالقلاقل وعدم الاستقرار السياسي. فمنح والي إفريقية، إبراهيم بن الأغلب، حُكماً شبه ذاتي في العام 800، وكذلك قضاؤه على آل البرمكي المتنفّذين، أفضيا إلى فترةِ سادها التدهور السياسي والإقليمي. إلا أن قرار الرشيد بتقسيم الأمبراطورية بين ولديه الأمين والمأمون واختياره أكبرهما سنّاً، الأمين، ليخلفه على العرش (ح 809–813)، أسهم في نشوب حرب أهلية دامت سنتين، تلتها فترات من الاضطراب المتواصل والعصيان المسلّح. هذا ولئن عرف عهد المأمون (ح 813–833) تألقاً فكرياً مثيراً للإعجاب، إلاّ أنه شهد مع ذلك تدهوراً على صعيد الامتداد الإقليمي، فضلاً عن انحسار دائرة النفوذ العباسي.





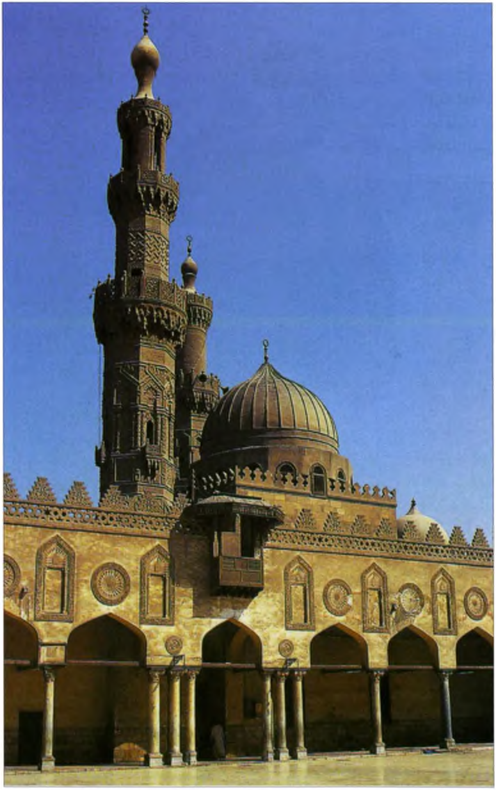
انتشار الإسلام، والشرع الإسلامي، واللغة العربية

عمل الانتشار السريع للإسلام بمثابة قوة تغييرية هائلة في العالم القديم. فما إن انتهى عهد عمر بن الخطاب (ت 644)، حتى كانت الجزيرة العربية بأكملها قد تمّ فتحها، ومعها معظم أراضي الأمبراطورية الساسانية، علاوةً على الأقاليم السورية والمصرية من الأمبراطورية البيزنطية. وفي أعقاب موقعة كربلاء المأساوية، التي انتهت بمقتل الإمام الحسين (680)، بدأت مرحلة جديدة بقيام الأمبراطورية الأموية (661–750)، التي امتد سلطانها في نهاية الأمر من نهر إبرو في إسبانيا إلى نهر أوكسوس (جيحون) في آسيا الوسطى. وإذ بسطت على هذا النحو سلطتها الشاملة على بلادٍ مترامية الأطراف، اتخذت السلالة الأموية من دمشق عاصمةً لها، وبقيت عملياً من دون أي تحدٍ لسلطانها إلى حين صعود الخلافة العبّاسية وعاصمتها بغداد (749–1258). وفي حين بقيت إسبانيا (الأندلس) تحت الحكم الأموي (756–1031)، قامت قوى إقليمية جديدة بالتصدّي للهيمنة العبّاسية، كالفاطميين في مصر (909–1171)، والسلاجقة في إيران والعراق (1038–1194). وقد ترافق كل ذلك مع موجات من الغُزاة الصليبيين ضربت الشرق.

لقد ازدهرت مدارس وتيارات عديدة في الفكر، مثل مذاهب الاجتهاد السُّنيّة (الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي)، والمذهب الشيعي «الإثني عشري» المتحدّر من إمامة عليّ (ت 661). كذلك طبع فوران النشاط الفكري ظهورُ تيارَيْ المعتزلة والأشعرية في مناهج «علم الكلام»، ونُضج الفلسفة والعلم والتصوّف. وقد تأسّست العديد من مراكز التعليم المرموقة، واقترنت بإنتاج غزير للمخطوطات، نذكر منها: الأزهر في القاهرة، والزيتونة في تونس، والقرويين في فاس، وحلقات قرطبة في الأندلس، وحوزات النجف وكربلاء في العراق، وحوزات قُم ومشهد في إيران.

وبوصفها لغة القرآن، انتقلت العربية إلى المتأسلمين الجُدد؛ وبصيرورتها اللغة المشتركة للإسلام القروسطي، تجلّت أوجه تفوّقها في سائر حقول الثقافة العالية، من المجال الديني إلى القانوني، ومن المجال الديواني إلى الفكري، وصولاً إلى الأساليب الأدبية نفسها. وفي حين سيطرت العربية على اللهجات المحلّية في الولايات الغربية، ظلّت الفارسية قيد التداول في الولايات الشرقية، وقد شهدت هذه الأخيرة نهضة أدبية كبرى في القرن العاشر الميلادي بظهور لغة جديدة هي مزيج من العربية والفارسية، ما لبثت أن سادت إيران بأسرها، فضلاً عن بلاد ما وراء النهر وشمال الهند.

وثمة موضوع ظلّ يطرح نفسه المرّة تلو الأخرى في تلك الحقبة التكوينية من الفكر الإسلامي، وأعني به العلاقة ما بين الوحي والعقل، التي غالباً ما اتسمت بالحدّة والتشنّج. في عهد الخليفة العباسي المأمون (ح 813–833)، خرجت إلى حيّز الوجود مجموعة من المتكلّمين (علماء العقائد) عُرفوا بـ«المعتزلة». كانوا قد تشبّعوا بأعمال الفلاسفة الإغريق وتبنّوا الأسلوب العقلاني في الجدل والحِجاج الذي يُساوي ما بين الله والعقل المحض. بالنسبة للمعتزلة، العالمُ الذي خلقه الله إنما يسير وفق المبادىء العقلية التي يستطيع البشر إدراكها عن طريق إعمال العقل. وحيث إن البشر كائنات حُرّة، فهم مسؤولون أدبياً عن أعمالهم. ولمّا كان للخير والشر كليهما قيمة جوهرية، فإن العدالة الإلهية محكومة بنواميس عامّة، كونية. كان المعتزلة من أصحاب الرأي القائل إن القرآن «مخلوق» في الزمن، وقد أوحى به الله لمحمد، إلاّ أنه ليس جزءاً من جوهره. أما خصومهم من «علماء الحديث»، فكانوا يُصِرُّون على أن القرآن «غير مخلوق»، بل هو أزلي تماماً مثل أزلية الله نفسه. كما كانوا يرون أن ليس من شيمة الإنسان أن يُشكك في مشيئة الله أو يتحرّاها بصورة عقلانية، بل إن أعمال الإنسان كافة محكومة بالقضاء والقدر في النهاية. والنظرة المعتزلية هذه، التي زادتها «المحنة» (محنة خلق القرآن) قوة على قوة، فرضت نفسها فترةً من الزمن. غير أنها ما لبثت أن تراجعت في عهد الخليفة المتوكل (ح 847–861)، بفضل الضغوط الشعبوية المتركّزة على الشخصية البطولية لأحمد بن حنبل (ت 855)، الذي تحمّل كل صنوف السجن والتعذيب دفاعاً عن الرأي القائل بلا مخلوقية القرآن. وقد أمكن التوصل إلى حلٍ وسط بين



الوحي والعقل في أعمال أبي الحسن الأشعري (ت 935)، الذي كان يلجأ إلى استخدام طرائق عقلية دفاعاً عن فكرة عدم خلق القرآن، ويقبل بقدرٍ معيَّن من مسؤولية البشر عن أفعالهم. بيد أن هزيمة المعتزلة كانت لها ذيول بعيدة المدى؛ فقد بَطُل بعد الآن أن يكون الخلفاء أصحاب الكلمة الفصل في أمور العقيدة. واعتنق التيار السائد في علم الكلام السُّنّي نظرية الأمر على صعيد الأخلاق: أي أن عملاً ما يكون صائباً لأن الله أمر به؛ والله لا يأمر به فقط لأنه صائب. والمعتزلية اصطلاحٌ دالّ على الفساد والاعتساف في نظر الكُثُر من الإسلاميين المحافظين، ولاسيما في المملكة العربية السعودية، ممّن يأخذون بالمذهب الحنبلي في الشرع.

صحن الجامع الأزهر في القاهرة. أسَّسه الفاطميون الشيعة عام 970م، لكنه صار فيما بعد أهمّ مركز للدراسات الفقهية السُّنّية وينبوعاً غزيراً للمخطوطات.

الدول الوريثة إلى العام 1100



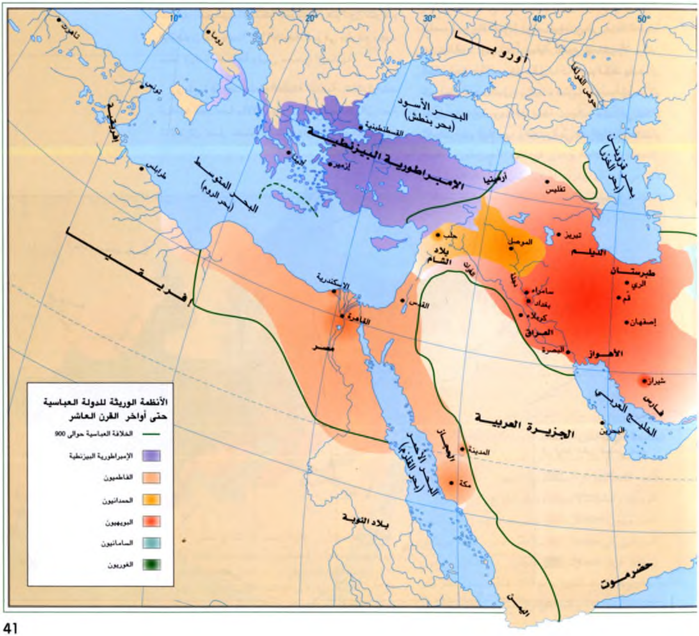
هذا التمثال من الصلصال يُبيِّن بجلاء القسمات الجسمانية التي لفتت أنظار المعلّقين العرب والفُرس بوصفها الملامح النموذجية للجنود الأتراك الذين يجنّدهم الخلفاء في جيوشهم.

لم يتسنَ للدولة العباسية، حتى وهي في أقصى امتدادها، أن تضم العالم الإسلامي برمّته. ففي إسبانيا، تأسست سلالة حاكمة مستقلّة على يد ناجٍ من بني أمية هو عبد الرحمن الأول (ح 756–788). كان عبد الرحمن هذا حفيداً للخليفة هشام بن عبد الملك، وقد أفلت من مذبحة أودت بذويه وأقاربه، وتمكّن بعد مغامرات شتّى من أن يجد طريقه إلى شبه الجزيرة الإيبيرية. هنا أقنع العرب والبربر المتخاصمين بأن يقبلوا به زعيماً بدلاً من الوالي المُعيَّن عليهم من قبل العبّاسيين. وإلى ما يُعرف بالمغرب حالياً، وصل أحد المتحدّرين من نسل علي وفاطمة، ويُدعى إدريس بن عبد الله، بعد فراره من الجزيرة العربية إثر فشل ثورة شيعية في العام 786، وحلّ في العاصمة الرومانية القديمة: فولوبيليس. هنا شكّل إدريس ائتلافاً قبلياً سرعان ما استولى على جنوب المغرب. أنشأ ولده إدريس الثاني مدينة فاس في العام 808. وفي إفريقية (تونس حالياً)، قام أحفاد إبراهيم بن الأغلب، عامل هارون الرشيد الذي مُنح حُكماً ذاتياً على البلاد التي يتولاّها لقاء دفع أتاوة سنوية، بتأسيس سلالة حاكمة [الأغالبة] دام عهدها حتى عام 909. والخوارج



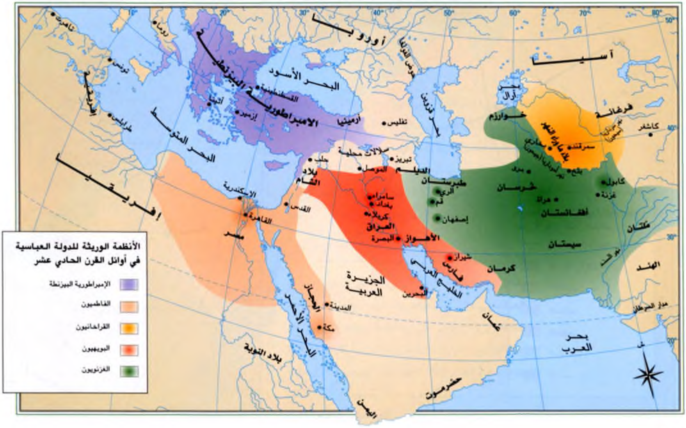
المتـزمـتـون، المعتصمـون بمبدأ انـتـخـاب الإمـام أو الخليفة، أقاموا لأنفسهم دويلات مستقلّة في كلٍ من واحة ورجلة وتاهرت وسجلماسة. وعن مدينة تاهرت الـتـي دمّرهـا الـفـاطـمـيـون في الـقـرن الـعـاشر، كتب الإخباري ابن الصّغِر يقول: «ما من غريب توقف فيها إلاّ واستوطنها وبنى فيها، مأخوذاً بالبحبوحة الضافية عليها، وعدل إمامها، وحقّانيته تجاه البَرِيّة، والأمان الذي ينعم به الجميع في الأنفس والممتلكات جميعاً».

غير أن التوترات السياسية والدينية كانت ما فتئت مستفحلة في عقر دار الأمبراطورية. فالنزاع على الخلافة بين ولدَيْ هارون الرشيد، الأمين والمأمون، انفجر احتراباً أهلياً دام قُرابة عقدٍ من الزمن، مما فتّ في عضد الجيوش العباسية وأوهن مؤسسة الخلافة



نفسها. ولئن كسب المأمون الحرب، إلاّ أن محاولته فرض عقيدة المعتزلة القائلة بـ «خلق» القرآن، واجهت مقاومة عنيفة من جانب العلماء الشعبويين المتحلّقين حول أحمد بن حنبل. في عُرف هذا الأخير، الذي كان يؤمن بأن النصّ الإلهي «غير مخلوق»، لا بل ويتّصف بـ «القِدَم»، من شأن العقيدة القائلة بعكس ذلك أن تنتقص من فكرة أن القرآن كلام الله. لذلك كان ابن حنبل وأتباعه ينظرون إلى القرآن والحديث على أنهما المصدر الوحيد للسلطة الدينية، وهم دون سواهم المؤهّلون لتأويلهما. أما الخليفة، فهو في نظرهم مجرّد منفّذ لإرادة الجماعة وليس مصدراً لإيمانها.

ومثلما ضعفت سلطة الخليفة الدينية، كذلك تراخت قبضته السياسية والاقتصادية. ففي المناطق الزراعية كالعراق، عمل نظام الإقطاع (أو الزراعة الخراجية) على بناء طبقة من ملاّك الأراضي على حساب الحكومة المركزية. وفي إيران والولايات الشرقية، أقام طاهر [بن الحسين بن مصعب]، أكفأ قوّاد المأمون العسكريين على الإطلاق، حكماً وراثياً. وبغية التصدّي لقوة الطاهريين، عوّل خَلَف المأمون، الخليفة المعتصم، وبشكل متزايد على المرتزقة المجنّدين من القبائل الناطقة بالتوركية في آسيا الوسطى – هذه الممارسة التي عجّلت بتفسّخ الدولة العبّاسية وظهور سلالات قبلية حاكمة بحكم الأمر الواقع. ولعلّ بناء عاصمة جديدة للدولة في سامراء زاد في عُزلة الخليفة عن رعاياه. ولم تحلّ نهاية القرن العاشر إلاّ وكان الخلفاء العبّاسيون ملوكاً بالاسم فقط، يتحدّى شرعيتهم مُطالبون بالحُكم لذرّية عليّ. وأشدّ هؤلاء تطرّفاً وجذرية، وهم القرامطة، لم يألوا جهداً في إذكاء نار الثورات الفلاحية والبدوية في العراق وبلاد الشام



والجزيرة العربية باسم «مخلِّص» يتحدَّر من نسل عليّ عبر سليلة إسماعيل بن جعفر. وفي عشرينيات القرن العاشر الميلادي، أصاب القرامطة الذين خلقوا دولة مستقلّة لهم في البحرين، العالم الإسلامي كله بالصدمة والذهول عندما نهبوا مكّة ونقلوا معهم «الحجر الأسود». وفي عام 969، انتُزعت مصر، وكانت شبه مستقلّة تحت حُكم ابن طولون وخلفائه الأخشيديين، من جانب الفاطميين الإسماعيليين الذين أقاموا خلافة يتولاّها «إمام حي» من نسل علي وإسماعيل. وفي شمال سورية وأعالي نهر دجلة، حكمت أسرة بني حمدان العربية البدوية – وكانت هي الأخرى من الشيعة – دولة شبه مستقلة، وفي بعض الأحيان مستقلّة بالتمام. وفي خراسان وبلاد ما وراء النهر، حلّ السامانيون محل الطاهريين كمدافعين عن الثقافة العالية العربية – الفارسية في وجه القبائل البدوية المتكالبة. وحتى في قلب الأمبراطورية نفسه، أي في العراق وغرب إيران، كان الخلفاء العبّاسيون سجناء فعليين للبويهيين الشيعة، وهم عشيرة مُحاربة من الديلم كانت تستوطن جنوبي بحر قزوين.

وفي آسيا الداخلية، حيث أسَّس السامانيون عاصمة مزدهرة في بُخارى، أفسد اعتناق القبائل الناطقة بالتوركية الإسلام على السامانيين دورهم كغزاة. كان هؤلاء محاربين أشدّاء عُهد إليهم بالدفاع عن حدود الإسلام من تعدّيات البدو الرُحَّل. لكن تجنيد المحاربين بالاسترقاق، المعروفين بالمماليك أو الغلمان، من سكان المناطق الجبلية أو القاحلة، عجّل في تفكك أوصال الأمبراطورية. وحينما تداعت السلطة في المركز، تنطّع المماليك إلى إنشاء «سلالاتهم الرقّية» الخاصة بهم. وهكذا شرع الغزنويون – الذين حلّوا محل سادتهم السامانيين السابقين في خُراسان – بالعمل جنوداً مسترقّين في منطقة غزنة الحدودية إلى الجنوب من كابول. وحين انهار حُكم السامانيين عام 999، قام محمود الغزنوي (ح 998–1030)، وهو ابن والٍ من الأرقاء، بتقاسم ممتلكاتهم مع قبيلة الكراكلة التركية بزعامة السُلالة القرخانية، وقد بذل محمود قصاراه لحصرها في حوض نهر جيحون في الشمال. كذلك عبر محمود نهر السند حيث أرسى لنفسه حُكماً دائماً في البُنجاب، وراح يشنّ غارات على شمال غربي الهند، ناهباً المدن ومُحطِّماً العديد من الآثار الفنية بحجة أنها «وثنية». وهذا ما أكسبه سمعة مخيفة كغازٍ للكفّار. وعلى جبهته الغربية، في أراضي «الإسلام القديم»، دحر محمود البويهيين حتى تخوم العراق تقريباً.



محمود الغزنوي [يمين الدولة] يعبر نهر الغانج. حظي الغزنويون، وكانوا ولاةً عسكريين أتراكاً، بشهرة طائلة في الأزمنة المتأخرة باعتبارهم أول من أدخل سلطان المسلمين إلى الهند. الرسم مأخوذ من «جامع التواريخ» للوزير رشيد الدين، المصنَّف في مطلع القرن الرابع عشر ميلادي.

العصر السلجوقي

بالرغم من كل التحديّات التي واجهت سلطة الخلفاء العبّاسيين وفقدانهم المنعة العسكرية والسلطان السياسي الفعّال، إلا أنهم احتفظوا بهيبة كبيرة واعتبارٍ لا يُستهان به في أعين معظم أهل الأمصار والعديد من القبائل باعتبارهم الورثة الشرعيين للنبي محمد ورأس جماعة المسلمين.



لقد ساعد تقسيم العالم إلى «دار الإسلام» و«دار الحرب» على انتشار الإسلام وتوسّعه في اتجاهين، اتجاه طارد بعيداً عن المركز، وآخر جاذب نحو المركز: حين كانت القبائل تتقبّل الإسلام من خلال احتكاكها بالتجّار والعلماء المسلمين أو بالمتصوّفة الجوّالين، كان الخلفاء يميلون إلى إضفاء الشرعية على حُكمها، فيُعيّنون زُعماءها ولاةً على مناطقهم. والدخول في الإسلام عمل على تمدين الأقوام البدوية والرعوية بإخضاعها شكلياً – وإن ليس دائماً في الممارسة – للشريعة، مما قلّص الفجوة الثقافية بين سكّان البوادي والسهوب من جهة، وسكّان المُدن والأمصار من جهة أخرى. وكم من مرّة صارت القبائل الداخلة حديثاً في الإسلام من كبار بُناة ورُعاة الثقافة العالية الإسلامية، ممثّلة بالفن والعمارة والأدب. لكن الدخول في الإسلام صعَّب، في الوقت عينه، على الحكّام أن يدافعوا حتى عن قلب العالم الإسلامي في وجه غزوات وتعدّيات البدو الرُّحّل، طالما أن هؤلاء لم يعودوا بعد الآن في عداد الكفّار، وبالتالي فَقَدَ الجهاد (أو «الحرب المقدسة») ضدهم كل أسبابه الموجبة.

وثمة مجموعتان من الشعوب الناطقة بالتوركية، وهما الأتراك الكراكلة والأتراك الغزّية (الغُزّ)، أسّستا دولتين كان لهما إسهامهما الكبير في هذه السيرورة. ففي بلاد ما وراء النهر، قبلت السُّلالة القرخانية بالسلطة الصورية للخلفاء العبّاسيين، وأضحت راعية لثقافة تركية جديدة مستمدة جزئياً من النماذج العربية والفارسية. وبعد إنزال الأتراك الغزّية، بقيادة الأُسرة السلجوقية، الهزيمة بالغزنويين، بسطوا سيطرتهم على خُراسان، واضعين بذلك الحجر الأساس للأمبراطورية السلجوقية. وفي أعقاب دحرهم البويهيين عام 1055، آلت بغداد إليهم، حيث قام الخليفة العباسي بتتويج زعيمهم طغرلبك سلطاناً، اعترافاً منه بسُلطته العُليا. وفي مقابل هذا الاعتراف

في أعقاب التقدّم السريع الذي أحرزه السلاجقة داخل بلاد الأناضول، اتخذ هؤلاء من قونيا [إيكونيوم سابقاً] عاصمةً لهم. هذه البوابة ذات الزخرفة البديعة لمدرسة «إينجه مينار» دليلٌ وافرٌ على الثراء الاستثنائي للطراز السلجوقي في العمارة. و«المئذنة الهيفاء» التي اشتقت منها المدرسة اسمها، دُمّرت جزئياً حين ضربتها إحدى الصواعق عام 1900.



الرسمي، وافق السلاطين السلاجقة على التقيُّد بأحكام الشرع الإسلامي والذود عن حياض الإسلام في وجه أعدائه الخارجيين. والهزيمة الفادحة التي أنزلها السلاجقة بجيش الروم في ملازكرد عام 1071، شكّلت أحد العوامل المُفضية إلى أولى الحملات الصليبية في العام 1096. صحيح أنَّ السلاجقة استولوا على نصف بلاد الأناضول، مما أسَّس لقيام الحُكم التركي العثماني فيما بعد، إلاَّ أن نظامهم السلطوي كان أكثر تشرذماً من أن يحفظ وحدة الدولة، أو يحمي تخوم الإسلام من المزيد من غارات وانتهاكات البدو الرُّحَّل.



التجنيد العسكري 900 - 1800

صار تجنيد الجيوش من مناطق الأطراف، ولاسيما من أراضي السهوب في آسيا الداخلية والقوقاز والبلقان، من أبرز العلامات الفارقة لأنظمة الحُكم الإسلامية حتى العصر الحديث. كان هؤلاء المُقاتلة، المعروفون بـ«المماليك»، يُشترون كعبيد أرقاء في النجود والسهوب، أو يُؤسرون من بين أفراد القبائل المهزومة. ولمّا كان يُؤتى بهم خصيصاً للانخراط في جيش السلطان الخاصّ أو للعمل في حراسة قصوره، فقد كانوا يُلقنون مبادىء الدين الإسلامي وشيئاً من الثقافة الإسلامية، ويتلقون تدريباً على فنون القتال. إلاّ أن إلصاق الصفة «أرقاء» بالمماليك (مثلما نقول: «مقاتلة أرقاء» أو «سلالات رقيّة»)، أمر مضلّل إلى حد ما. فلئن كان المماليك والغلمان (الرقيق المنزلي) يُشترون ويُباعون كمتاع شخصي، فإن مكانتهم الاجتماعية كانت تعكس مكانة أسيادهم نفسها وليس وضعهم هم العبودي. ولدى إعتاقهم من نير العبودية في نهاية المطاف، كان هؤلاء يُصبحون أحراراً، بل ووكلاء لأسيادهم السابقين، يتمتعون بكامل حقوقهم في التملّك والزواج والأمن الشخصي، لا بل ويرتقي بعضهم إلى مصاف الأمراء.

بدأت هذه الظاهرة، أعني ظاهرة المماليك، مع الخلفاء العبّاسيين الذين أخذوا يجنّدون أبناء القبائل في بلاد ما وراء النهر وأرمينيا وشمال إفريقيا، كي يُوازنوا بهم قوة الطاهريين. كما عمدوا إلى موازنة تلك القبائل بدورها بواسطة الغلمان الأتراك الذين كانوا يُشترون في أسواق النخاسة فرداً فرداً، قبل أن يُصار إلى تدريبهم وتطويعهم في كتائب ذات إمرة فردية. ولمّا كان هؤلاء الغلمان يقيمون داخل معسكرات منفصلة، لها مساجدها وأسواقها الخاصّة، فقد كان ولاؤهم لقادتهم أكثر منه للخليفة. وبعد سقوط الدولة العباسية في العام 945، تبنّى هذه السياسة حكّام الأمر الواقع ممن ورثوا السلطة السياسية عن العبّاسيين. فجميع الدول التي ظهرت في الشرق غداة العصر العباسي، أي البويهية والغزنوية والقراخانية والسلجوقية، إنما نشأت على أكتاف أقليات عرقية، من بينهم مرتزقة جاؤوا من منطقة بحر قزوين، وقبائل تركية وبدوية أخرى أتت من آسيا الداخلية. ولمّا كان الأمراء العسكريون الجُدد لا تربطهم أية رابطة، عرقية كانت أم ثقافية أم لغوية أم تاريخية، بالشعوب التي يحكمونها، فقد رأينا المجتمع ينزع إلى التطوّر خارج نطاق سلطة الدولة ومسؤوليتها، ووجدنا العلماء (رجال الدين وقُضاة الشرع) يندمجون بالتّجار والبيوتات المتملّكة ليشكّلوا معاً نُخباً من الوجهاء والأعيان تتوقف الهيبة التي تتمتع بها على مدى تضلّعها في المعارف الدينية. ولئن سمحت الظاهرة المملوكية بنشوء شكل من أشكال المجتمع المدني المنفصل عن الدولة العسكرية، إلا أنها عملت ضد بلورة نمطٍ من الولاء المجتمعي، أو الروح الوطنية، كالذي سيبرز لاحقاً في بلدان غرب أوروبا. وكُنتَ تجد هذه المُمارسة، أي تطويع المُغيرين البدو لحماية المجتمع

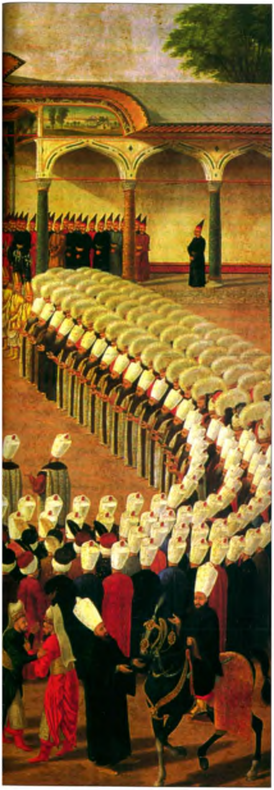


من بدوٍ آخرين – وبمعنى آخر: «تحويل الذئاب إلى كلاب رعيان» – قائمةً في كل أرجاء العالم الإسلامي، من المغرب إلى وادي السند.

ونظام الاسترقاق العسكري هذا بلغ ذروة اكتماله في مصر، البلد الكثيف السكّان من الفلاحين والمفتقر إلى أية طبقة عسكرية أصلية من صُلبه. وقد تمأسس هذا النظام في مصر بنجاح مُطلق، حتى إن حُكم المماليك دام ما يربو على قرنين ونصف القرن (1250–1517)، وعاد وظهر ثانيةً، وإنْ في شكلٍ معدّل، في ظل العثمانيين (1517–1811). وحيث إن المماليك المصريين كانوا يسدّون النقص الحاصل في صفوفهم باستمرار من الخارج (بدايةً من الأتراك الكيبتشاك ثم لاحقاً من الشركس في القوقاز)، فقد استطاعوا أن يقاوموا كل محاولات امتصاصهم داخل صفوف النُخب الأصلية. وظلّوا في الأغلب الأعمّ يشكلّون شريحة أرستقراطية من جيل واحد، لا تجمعها أواصر القربى ببقية المجتمع المصري.

وقد تطوّر نظام الاسترقاق العسكري في اتجاه مختلف نوعاً ما في ظل العثمانيين. فاعتباراً من أواخر القرن الرابع عشر، بدأ السلاطين يُوازنون قوة الخيّالة السباهية في جيوشهم الخاصة، المجنّدين أساساً من إقطاعات النبلاء والأشراف أو المتطوعين كمرتزقة من عشائر البدو العربية والكردية والناطقة بالفارسية، بتشكيلات عسكرية من المشاة عُرف أفرادها من العساكر الجُدد بـ«الإنكشارية»، المجنّدين غالباً من الولايات العثمانية المسيحية في البلقان. فكان





التجنيد، المعروف بـ«الدفشرمة» (ضريبة الدم بالتركية)، يجري في القرى والدساكر كل أربع سنوات مرة تقريباً. في حين كانت المدن والبلدات مُعفاة من ذلك، لاعتبارهم أبناء المدن والحواضر متعلّمين أكثر مما ينبغي أو غير أشدّاء جسدياً بما فيه الكفاية. فكان يقع الاختيار على الفتيان ممن تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة (وإنْ أفادت بعض التقارير عن تجنيد صبية دون الثامنة من عمرهم). ولمّا كان الرجال المتزوجون مستثنين من التجنيد، فقد كان الفلاحون الأُرثوذكس يلجؤون في كثير من الأحيان إلى تزويج أولادهم وهم بعد صغار السنّ للتهرّب من أخذهم إلى العسكرية. والفتيان الذين يتمّ انتقاؤهم من بين البقية (وتصل نسبتهم إلى 20 بالمئة)، كانوا يُعطون هوية إسلامية ويُدربون على فنون القتال، مع اختيار أبرعهم وألمعهم لخدمة السلطان شخصياً. ومن موقعهم هذا، كثيراً ما كانوا يرتقون الصفوف ليغدوا حكّاماً للأمبراطورية نفسها. وإذا كان التجنيد الاسترقاقي قد توقف منذ أربعينيات القرن السابع عشر، إلاّ أن ظاهرة الإنكشارية لم تعرف الانحسار بفضل التحاق المزيد من الصبية المولودين مسلمين هذه المرة بصفوفهم. وبالنظر إلى ما كانوا يتمتعون به من مصالح تجارية لا يُستهان بها، وما يتقاضونه من رواتب ومعاشات تقاعدية من خزينة الدولة، فقد تحول الإنكشارية إلى نخبة ذات امتيازات، مستبدّة وممانعة لكل تغيير. في عام 1826، استخدم السلطان محمود الثاني قوته العسكرية المكوّنة حديثاً للإجهاز على معظم هؤلاء الإنكشارية أثناء تجمّعهم للتفتيش في استنبول.

عرضٌ لسرايا الإنكشارية بكامل بهارجهم وثيابهم الموشاة بالذهب أثناء أحد الاستقبالات في بلاط السلطان. والإنكشارية المجنّدون أصلاً من نصارى البلقان، صاروا قوة يُحسب لها حساب داخل الدولة. وقد حظر السلطان محمود الثاني تشكيلات الإنكشارية هذه عام 6281 كجزء من برنامجه التحديثي.



الدولة الفاطمية 909 - 1171



تأسّست الخلافة الإسماعيلية الشيعية للفاطميين في إفريقية بالمغرب، عندما قبلت عشيرة بوكتامة البربرية ادّعاء أبي عبدالله المهدي بأنه السليل الشيعي لعليّ وفاطمة، وثارت على الأغالبة في العام 909. وبحلول عام 921، كان المهدي قد استقرّ في عاصمته الجديدة، مدينة المهدية، الواقعة على ساحل إفريقية. وبوصفهم ورثة الأغالبة، ورث الفاطميون كذلك أسطولهم البحري وجزيرة صقلية. وفي أواخر عهد المهدي (ح 909–934)، امتدت الدولة الفاطمية من الجزائر وتونس الحاليتين إلى ساحل طرابلس في ليبيا. بنى الخليفة الفاطمي الثالث المنصور (ح 946–956) عاصمة جديدة سُمّيت على اسمه: «المنصورية». وظلّت المنصورية الواقعة بالقرب من صبرة إلى الجنوب من القيروان، عاصمةً للفاطميين من عام 948 إلى عام 973.

إلاّ أن الحُكم الفاطمي لم يتوطد على وجه الرسوخ في شمال إفريقيا إلاّ إبّان سلطة العضو الرابع من السلالة الحاكمة، المعزّ لدين الله (ح 953–975)، الذي حوّل الخلافة الفاطمية من مجرد قوة إقليمية محلّية إلى أمبراطورية كبرى. فقد نجح في إخضاع المغرب بأسره، فيما عدا صبرة، قبل أن ينصبّ اهتمامه على فتح مصر، وهذا ما تحقّق له في العام 969. فأُقيمت عاصمة فاطمية جديدة خارج الفسطاط، وقد دُعيت في البدء «المنصورية»، إنما أُعيدت تسميتها بـ«القاهرة المعزّية»، أي مدينة المعزّ الظافرة، عندما تسلّم الخليفة عاصمته الجديدة في العام 973. وأضحى توسيع رقعة السلطة الفاطمية لتشمل بلاد الشام الشغل الشاغل لولد المعزّ وخَلَفه، العزيز بالله (ح 975–996). وفي نهاية عهده، تمكّنت الدولة الفاطمية من بلوغ اتساعها الأقصى، أقلّه من الوجهة الاسمية، مع الإقرار بسيادة الفاطميين من المحيط الأطلسي وغرب المتوسط غرباً، إلى البحر الأحمر والحجاز وسورية وفلسطين شرقاً. وفي عام 1038، مدّ الفاطميون نطاق سلطانهم إلى إمارة حلب شمالاً.

في عهد الخليفة المستنصر بالله المديد (ح 1036–1094)، دخلت الخلافة الفاطمية طور الانحطاط. فقد خسرت شمال بلاد الشام إلى الأبد في العام 1060. آنذاك كان الفاطميون يُجابهون الخطر المتعاظم

للأتراك السلاجقة، الذين كانوا في صدد إرساء الدعائم لدولتهم الجديدة. في العام 1071، صارت دمشق عاصمة لأتابكية سورية وفلسطين الجديدة التابعة للسلاجقة. ولم ينتهِ عهد المستنصر بالله إلاّ ولم يبقَ في أيدي الفاطميين من ممتلكاتهم في سورية وفلسطين سوى عسقلان وبضع مدن ساحلية من بينها عكا وصور. وبحلول عام 1048، قام الزيريون، الذين استخلفهم الفاطميون في حكم إفريقية، بالانفصال عنهم وأعلنوا الخطبة للعباسيين. وفي العام 1070، حين خسروا صقلية لصالح النورمانديين، صارت برقة الحدّ الغربي للدولة الفاطمية، التي ما لبثت أن انحصرت فعلياً داخل حدود مصر وحدها. أما عسقلان، وهي آخر موطىء قدم فاطمي في سورية وفلسطين، فقد انتزعها منهم الفرنجة عام 1153. وانتهى حُكم الفاطميين في العام 1171، يوم أعلن صلاح الدين الأيوبي، وكانَ آخر وزير فاطمي بُعيد بسط سيطرته على مصر، الخطبة للخليفة العباسي فيما كان الخليفة الفاطمي الأخير، العاضد لدين الله (ح 1160–1171) يُعاني سكرات الموت في قصره.



قصعة خزفية من الفسطاط (القاهرة). تعود إلى القرن العاشر – الحادي عشر ميلادي. هذا الإناء الخزفي المطلي بطلاء لمّاع، مزوّقٌ بموتيفات فاطمية نموذجية، كالأرنب الظاهر في وسط القصعة والنباتات

طُرُق التجارة ن 700 - 1500

يُقال إن النبي محمد كان يُسافر إلى خارج الجزيرة العربية طلباً للتجارة؛ وقبيلته قُريش، التي قادت الفتوحات العربية، كانت من بين أوائل التّجار في الجزيرة العربية. وقد ظلّ التجار موضع تقدير واحترام، وكثيراً ما كانوا يُصاهرون عائلات العلماء الذين يحظون بدعمهم على هيئة وقفيات تُوقف على مؤسّساتهم التعليمية. إن الأعراف الإسلامية تحبّذ النشاط التجاري. فالمساجد غالباً ما تكون في جوار الأسواق. ولئن كان يوم الجمعة مُكرّساً للصلاة الجامعة، فهو لم يتكرّس عطلة رسمية إلاّ في أزمنة متأخرة فحسب. كانت الأسواق تُفتح قبل صلاة الظهر وبعدها. وحيث إن معظم السكّان الذكور متجمّعون في المدينة، فقد كانت أيام الجُمَع ملائمة جداً لتعاطي التجارة. وكذلك الأمر بالنسبة للحجّ أو العُمرة في مكّة، حيث يأتيها المسلمون من أقاصي الدُّنيا ليلتقوا بعضهم بعضاً، فكانت هذه المناسبات هي الأخرى عامل تسهيل لأمور التجارة. كان الحجّاج يؤمّنون نفقات رحلتهم الطويلة والشاقة (التي ربما كانت تستغرق من المرء نصف عمره في الأزمنة القديمة)، عن طريق تبادل السلع فيما بينهم، أو من خلال صُنع بعض المشغولات الحرفية. كما كان التجّار يلتحقون بقوافل الحجيج كي يبيعوا بضائعهم في الحجاز.

إنّ إخضاع الفاتحين العرب مساحات شاسعة من الأراضي الساحلية لسلطة حكومة واحدة، أتاح لهم خلق منطقة هائلة للتجارة الحُرّة، وسهّل عليهم مدّ النطاق التجاري إلى ما وراء حدود الأمبراطورية ببعيد. وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن مدى اتساع نطاق هذه التجارة، فعُثر على عدد وفير من النقود المعدنية العائدة إلى العصر العباسي في البلاد الاسكندينافية، وعلى أقمشة حريرية وآنية خزفية صينية مطمورة في مقابر في غرب آسيا. لم يكن التجّار المسلمون مجبرين على دفع المكوس أو الرسوم الجمركية داخل حدود الأمبراطورية. أما التّجار الأجانب الذين يدخلون ديار الإسلام، فكانوا يخضعون للنسب نفسها من الرسوم المفروضة على التجّار المسلمين في ديارهم هم. ولعلّ النخب الجديدة التي عرفتها قصور الخلفاء، وما كانت تتطلّبه من سلع مترفة وكماليات، كانت وراء تشجيع التجارة ومضاعفة حجمها. صحيح أنّ تفكك أوصال الأمبراطورية حمل معه تدهوراً اقتصادياً في بعض المناطق، مع قيام السلالات الحاكمة المتنافسة برفع ميزانياتها عن طريق فرض المزيد من الضرائب والرسوم، إلاّ أن الوتيرة التي شُجبت بها مثل هذه الخطوات بوصفها تدابير غير مشروعة، وجائرة وغير عادلة، إنما تدلّ على المزاج العام. الذي ظلّ محابياً للنشاط التجاري حتى وإنْ كانت الظروف السياسية غير مؤاتية له.

كان من نتيجة الفتح العربي في بادىء الأمر جمع طريقين للتجارة البحرية – واحد عبر الخليج والثاني عبر البحر الأحمر – ضمن سوق واحدة قائمة على شرعة ولغة وعملة مشتركة. في العصر العباسي، كان الطريق المفضّل للبضائع الآتية من شرق آسيا وجنوبها إلى المتوسط هو مجرى نهر دجلة صعوداً حتى بغداد، أو مجرى الفرات وصولاً إلى أيسر وسيلة نقل إلى حلب، ومنها إلى مرفأ سوري كإنطاكية. وكانت المُدن الواقعة على امتداد هذه الطُرُق تعتمد في معيشتها على تبادل البضائع.

كانت مدن بلاد ما بين النهرين تمتص السلع الكمالية الآتية من الهند والصين؛ فكانت هذه تُباع في الأسواق إلى جانب السلع الضرورية، مثل الحبوب والوقود والأخشاب وزيوت الطهي. كما كانت بلاد ما بين النهرين المحطة الأولى على الخط التجاري الرئيسي المتجه نحو الصين والهند، وكذلك شمالاً نحو حوض الفولغا وأراضي أوروبا الشرقية المروية جيداً، منبع الفراء والكهرمان والسلع المعدنية والمدبوغات الجلدية. في الفترة المبكرة، كانت السفن الإسلامية المنطلقة من موانىء كالبصرة أو هُرمز، تقطع الطريق بطوله إلى الصين، وتعود من هناك بعد سنتين أو ثلاث محمّلة بالبضائع كالحرير والخزف الصيني واليشب وسواها من الأشياء النفيسة. لكن مع ازدياد التجارة تعقيداً وتكلّفاً، لم يعد التّجار يتعاملون مباشرةً مع غوانغزو (كانتون) وهانغزو في الصين، بل صاروا يقتنون البضائع الصينية من موانىء في جاوه وسومطرة أو على ساحل مالبار.

أما التجّار المسلمون من المغرب فكانوا ينشطون في تجارة الذهب، التي أخذتهم عبر فيافي الصحراء الكبرى إلى مدن الساحل، مثل تمبكتو وغاو وما بعدها إلى مناجم الذهب في غرب إفريقيا. وسلسلة المراكز

التجارية التي أقامها التجّار المسلمون على الساحل الشرقي لإفريقيا، مثل لامو وماليندي وجزيرة زنجبار، وصلت جنوباً حتى إلى صوفالا في موزامبيق الحالية. لقد اخترق رحّالون مسلمون يتصفون بجسارة فائقة الداخل الإفريقي بحثاً عن الذهب والعبيد والعاج والأخشاب النادرة والأحجار الكريمة قروناً عديدة قبل أن يقتفي أثرهم الأوروبيون.

وحين جعل انحطاط الدولة العباسية وغزوات القبائل التركية الطُرُق التجارية عبر بلاد الشام أقل

كانت الطرق البرّية التي تربط غرب آسيا والبحر المتوسط بشرق آسيا وجنوبها لا تقلّ أهميةً، بأي حال، عن الطُرُق البحرية. فبوجود العديد من المدن مُحاطة باليابسة أو بعيدة عن الأنهار والمحيطات، تعيَّن لزاماً نقل البضائع، بما فيها السلع ذات الأحجام الضخمة، بواسطة الدواب. لذلك، كان الأمر يتطلّب تخطيطاً دقيقاً وحذراً قبل انطلاق القوافل في رحلاتها الطويلة. كما كان من الضروري تأمين العلف للدواب والغذاء للمسافرين، ناهيك عن استئجار أفراد من البدو لحراسة



لم يحلَّ القرن السادس عشر إلاّ وكانت الأمبراطورية العثمانية، وعاصمتها القسطنطينية (إستنبول)، قد صارت واحداً من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي. فكان السلطان، فضلاً عن بطانته ومستشاريه، أشدّ ما يكونون حرصاً على الوقوف على حالة التجارة سنةً بسنة.

أمناً، برز إلى الوجود طريق بحري بديل يمرّ عبر البحر الأحمر ونهر النيل. كانت صعوبات جمّة تكتنف هذا الطريق، حيث إن المسافة من خليج السويس إلى نهر النيل كانت أشد وعورةً من المسلك المارّ عبر سورية، باستثناء فترة وجيزة أحيا فيها سلاطين المماليك ترعة قديمة كان حفرها الفراعنة أصلاً. وقد جنت موانىء البحر الأحمر، مثل عدن وجدة وعيذاب والقلزم (السويس حالياً)، فوائد جمّة من هذه التجارة، وكذلك فعلت القاهرة والإسكندرية. وهكذا احتكر المسلمون التجارة في المحيط الهندي إلى حين مجيء البرتغاليين ومن بعدهم الإنجليز والهولنديين اعتباراً من القرن السادس عشر فصاعداً.

القوافل. وفي المناطق النائية، كانت هناك شبكة من الخانات (للاستراحة والمبيت حتى صباح اليوم التالي)، والخانقانات (مهاجع للمتصوّفة) توفّر الطعام وحُسن الوفادة. وقد شُيِّد بعضها على هيئة حصون لتصمد في وجه عصابات النهب البدوية. ونظراً لطول المسافات وسط تضاريس بالغة الوعورة، زِدْ على ذلك انهيار السلطة الإقليمية، صار بناء الطُرُق أمراً غير عملي بالمرة. حتى في أواخر أيام الرومان، كان النقل المدولب قد اختفى أو يكاد. وبالإمكان تلمّس نتّيجة ذلك في كثير من مدن غرب آسيا وشمال إفريقيا. فقبل العصر الحديث، لم تكن سوى قلة قليلة منها تملك جادات عريضة بما يكفي لمرور الكارّات والمركبات.


الممالك والمسالك التجارية (حوالى 1500)
الممالك
برتغالية
اسبانية
مجتمعات دولة
أخرى
المسالك
طرق التجارة
تجارة الذهب
طريق الحرير
رُعاة رنّة سيبيريون
تتار سيبيريا
بدو رُحّل في سهوب وبوادي أوراسيا
كالميك
منغول
صيّادون جامعو ثمار آينو
كوريا
اليابان
امبراطورية مينغ الصينية
التبت
امبراطورية المغول الهندية
طشقند
بخارى
سمرقند
شاريشبز
كاشغر
بلخ
لاهور
دلهي
راجبوتانا
دويلات إسلامية وهندوسية
كمبايا
ثانة
غوا (برتغال)
البنغال
أوريسا
فيجاياناكر
كولم مالي
سيلان
قلب (برتغال)
الممالك البورمية
بيغو
لاوس
كامبوديا
تايوان
جزر الفيليبين
المحيط الهادي
اتشيه
ملقا (برتغال)
ملقا
بورنيو
سومطرة
جاوه
دول الملايو الإسلامية
غينيا الجديدة
المحيط الهندي
صيّادون - جامعو ثمار أرومبون (أستراليا)
75°
90°
105°
120°
135°
150°
165°
ش


ايسلندا
(دنمارك)
الدنمارك
النرويج
السويد
روسيا
اسكتلندا
انجلترا
المحيط الأطلسي
الامبراطورية
الرومانية
المقدسة
بولندا
ليثوانيا
المجر
فرنسا
البندقية
بيزا
مرسيليا
روما
البندقية
دول
باباوية
أمالفي
باليرمو
اسبانيا
البرتغال
فالنسيا
قرطبة
المرية
جزر الأزور
(برتغال)
الجزائر
الجزائر
تونس
القيروان
المهدية
تونس
تلمسان
فاس
مكناس
مراكش
المغرب الأقصى
طرابلس
طرابلس
جزر الكناري
(اسبانيا)
سجلماسة
غات
مدار السرطان
بدو رُحّل جمّالون
السلطنة العثمانية
أدرنة
القسطنطينية
بورصة
أزمير
قونية
كريت
قبرص
لاجاز
دمشق
القدس
القاهرة
سيوة
كبري
سامراء
بغداد
البصرة
تبريز
أردبيل
دامغان
نيسابور
الدولة
الصفوية
استرخان
نوغاي
تتار قازان
تتار استراخان
بدو رُحّل عرب
المدينة
مكة
سواكن
مسقط
عُمان
قارة
مهرة
حضرموت
صنعاء
اليمن
عدن
زيلع
أدال
الحبشة
غالة
رومو
مقديشو
لامو
مومباسا
(برتغال)
زنجبار
مدن / دول
إسلامية
الفنج
صوبة
أبيشي
دارفور
وادي
الكانم
بورنو
دويلات
الهوسا
دويلات
الموسي
سنغاي
تمبكتو
مالي
السنغال
جزيرة الرأس
الأخضر (برتغال)
كاجو
(برتغال)
أويو
بنين
بنين
عكان
المينا
(برتغال)
فرناندو بو
(برتغال)
الكونغو
لوندا
لوبا
رُعاة رنّة لأبيون

الممالك الصليبية

جاءت الحملات الصليبية في زمن الانحلال والتراجع الإسلامي: ففي الأندلس، تتالت النجاحات المسيحية، فسقطت طليطلة عام 1085، ثم استولى النورمانديون على صقلية في العام 1091–1092. من الناحية الاقتصادية، أسفر تدهور أحوال الخلافة العباسية وغزوات السلاجقة عن تحويل خط سير التجارة مع شرق آسيا بعيداً عن بغداد والقسطنطينية. ومن خلال مرور البضائع في الأراضي المصرية لتتلقفها من ثم السفن التجارية الإيطالية، انتعشت مدن إيطاليا أيما انتعاش. ومن جراء المضايقات التي كان يُسبّبها القراصنة المسلمون، أقدمت بيزا وجنوى على تدمير المهدية، العاصمة السياسية والتجارية لشمال إفريقيا المسلم عام 1087. فيما أتاح تذبذب خط الحدود بين الأمبراطورية البيزنطية والدولة الفاطمية قدراً لا يُستهان به من الاستقلالية للمدن السورية والفلسطينية، وهذا ما جعل من المتعذر عليها أن تتحد معاً لصدّ الغزاة. لقد فتحت هزيمة الروم في معركة ملازكرد عام 1071 مراعي الأناضول أمام هجرة أرهاط من الأتراك الغزّية لا تأتمر كلها بإمرة السلاجقة. انتاب البابا أوربان الثاني الذعر إزاء الخطر الذي يتهدّد العالم المسيحي من جانب الأتراك، وكذلك من جانب النورمانديين الذين دأبوا على مهاجمة الممتلكات البيزنطية في إيطاليا، فأمر بشن «حرب مقدسة» دفاعاً عن وحدة العالم المسيحي. وقد لقيت هذه الحركة حافزاً قوياً بفضل وعّاظ كاريزميين وشعبويين من أمثال بطرس الناسك، وكذلك بفعل الشعبية المتزايدة للحجّ إلى القدس كوسيلة لاكتساب الجدارة الروحية أو الفوز بالتوبة والغفران على خطايا مرتكبة كالقتل مثلاً.

لكن الفرسان من الغرب اللاتيني، بما فيه ذلك إنجلترا واسكندنافيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا، ترافقهم جيوش من الغوغاء والرِّعاع، وهم في معظمهم من أهل المدن والفلاحين الذين أغرتهم الوعود بنيل الغفران، لم يكونوا معنيين تماماً بإنقاذ العالم المسيحي من خلال المسارعة إلى مساعدة إخوانهم الأرثوذكس، وقد رأينا كيف استباحوا القسطنطينية عام 1204، وعاثوا في عاصمة المسيحية الشرقية خراباً يعزّ وصفه. كانوا في حقيقة الأمر يطمعون في اقتطاع مُلكيات إقطاعية لهم من الأراضي المروية جيداً على ساحل



المتوسط. لكن النجاحات الباهرة التي أحرزتها الحملة الصليبية الأولى، والتي تتوّجت بالاستيلاء على مدينة القدس من الفاطميين في العام 1099، حملت معها بذور الاضمحلال النهائي للأمبراطورية البيزنطية. فمع الحاجة إلى دعم الدول اللاتينية الطفيلية في الشرق، التي يتوقف وجودها نفسه على تفرّق شمل المسلمين وتشرذمهم، انتفت الحاجة الأخرى إلى حماية الحدود الشرقية لبيزنطة. وعلى وجه العموم، كان الفرنجة – كما كان يُسمى الغُزاة – مكروهين لبطشهم وظلمهم من المسلمين والمسيحيين المحليين على حد سواء، ناهيك باليهود الذين فقدوا الحماية التي كانوا ينعمون بها في ظل الحُكم الإسلامي، وذُبحوا في فلسطين كما ذُبحوا في أوروبا. وهكذا بدلاً من صدّ التقدم التركي على الأراضي المسيحية، ساعدت هجمات الصليبيين على بيزنطة في تدمير الدولة الوحيدة القادرة على الحؤول دون ذلك. ولئن قُضي على الممالك اللاتينية في نهاية المطاف، إلاّ أن وجودها أوقع أفدح الضرر بالعلاقة الجيدة التي كانت قائمة فيما سبق بين الكنائس الشرقية وحُماتها المسلمين والمجتمعات الإسلامية المحليّة، تاركةً خلفها إرثاً من الارتياب بالغرب لم يتبدد إلى يومنا هذا.



الصليبيون يقتحمون دمياط في مصر في حزيران/يونيو 1249. بعد فقدانهم القدس، شنّ الصليبيون عدّة هجمات على مصر أملاً باستعادة المناطق التي خسروها في الأراضي المقدسة. الرسم مأخوذ من مخطوط موشّى بالألوان وماء الذهب وُضع في عكا بعد عام 1277 بقليل. ويُعتقد أن مدرسة المزخرفين هذه أنشأها الملك لويس التاسع إبّان مكوثه في فلسطين (1250–1254)



الطُّرُق الصوفية 1100 - 1900

كانت الطُّرُق الصوفية ولا تزال أهم تعبير منظَّم للتعلُّق بالقيم الروحية في الإسلام. إن كلمة «صوفية» (أو تصوّف) مشتقّة من اللفظة العربية: صوفيّ، أي لابس الصوف؛ ويُعتقد أنها عائدة إلى الملابس الخشنة المصنوعة من الصوف التي كان يرتديها أوائل الزهّاد المسلمين، ممّن سعوا إلى إنماء ما لديهم من طاقة روحية جوّانية. وهذا ما يُعبَّر عنه في بعض الأوقات بنشدان الاتحاد مع الخالق (الحلول)، ويُميزهم عن سائر المؤمنين الذين يقنعون بالتقيُّد الشكلي بالشريعة والشعائر الدينية. وثمة بعض المريدين الأوائل، وكانوا يُدعون أحياناً بالمتصوّفة «السكارى»، قد صقلوا لديهم حالات ذهنية تقودهم إلى تجربة الفناء في الحضرة الربّانية، والتوق إلى الاتحاد وجدانياً مع الله، والألم المتأتي عن الافتراق عنه، وهي الموضوعات التي يطرقها الكثير من الشعر الصوفي.

هذا وتتخذ الصوفية «السكرى» أحياناً شكل عروض مسرفة في التهوّر ترمي إلى ابداء الازدراء بالجسد، من غرز أسياخ الحديد في اللحم إلى الإمساك بحيوانات ضارية... أما الصوفية «الصاحية»، كما تجسِّدها تعاليم أبي حامد الغزالي (ت 1111)، فتصرّ على أن السبيل إلى تحقيق الكمال الروحي إنما يقع قطعاً ضمن حدود العبادات الشرعية والطقوس الشعائرية المتعارف عليها.

وكونها حاضرة منذ بدايات الإسلام الأولى، فقد كان في مستطاع جميع الحركات الصوفية أن تدّعي أنها تعود في منشئها إلى التجربة الدينية للنبي محمد واثنين من أقرب صحابته إليه، هما: أبو بكر وعلي. غير أن التصوف المنظَّم لم يستتب على أُسس راسخة إلاّ في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، محرزاً تقدماً سريعاً في آسيا إثر الغزوات المغولية حين اختلّت الركائز المؤسّساتية للحياة الإسلامية على نحو خطير. داخلياً، عملت الطُّرُق الصوفية على تمتين النظام الاجتماعي – السياسي بأن وفّرت للأمراء المصادر الشعبية للشرعية الدينية، وأكملت حيثيات السلطة الرسمية التي يُمثلها العلماء. فكان العديد من الأمراء بمثابة رُعاة وحُماة للطُّرُق الصوفية، يمتثلون للإرشاد الروحي الصادر عن مشايخ تلك الطُّرُق، ويستمدّون من «بركتهم» منافع جمّة. وخارج ديار الإسلام، أثبتت الطُّرُق الصوفية فائدتها العملية في نشر الإيمان في مناطق طرفية، مثل أرخبيل الملايو وآسيا الوسطى وجنوبي الصحراء الكبرى الإفريقية. كان الوصول إلى الإسلام النصّي المعياري المأثور عن العلماء والقائم على القرآن والحديث والفقه والتفسير، يتطلّب معرفة باللغة العربية، وهذا ما كان يحدّ كثيراً من تأثيره وجاذبيته. في حين أن مشايخ الصوفية (ويُسمّون بالفارسية «البير») كانوا مهرةً في الارتجالات الروحية، فاستطاعوا إيصال تعاليم الإسلام شفاهاً بواسطة اللّغات المحلّية. كما أتاحت لهم الطقوس الصوفية السرّية المعروفة بمجالس «الذكر» (أو الحضرة) أن يطوّروا فنوناً روحية تتماشى والممارسات المستمدّة من التقاليد غير الإسلامية، كالرقص الطقسي أو التحكّم بالتنفس على منوال اليوغا في الهند. أما في إفريقيا، فقد تمكّن الصوفيون والمرابطون (الذين كانوا في أول أمرهم زهاداً مسلمين) من نشر الإسلام من خلال تشبيههم الآلهة أو الأرواح المعبودة محلياً بالقوى الخارقة للطبيعة كالجان والملائكة الوارد ذكرها في القرآن. كما أمكن تكييف عبادة الأسلاف عبر إضافة بُنى قرابية محلية على أنساب عربية أو على سلاسل صوفية، في ما يُشتبه عُرى روحية تربط المشايخ والأولياء بالنبي محمد وصحبه. وقد وفّرت مثل هذه السلاسل، في مناطق طرفية كجبال الأطلس الأعلى، إطاراً شبه دستوري حققت من خلاله الأفخاذ والبطون القبلية حداً أدنى من التعاون فيما بينها، مع قيام زعماء الأُسر المُحاطة بهالة من القداسة بدور الوسطاء المحكّمين في حل النزاعات الناشبة بين القبائل المختلفة. وفي كل أرجاء العالم الإسلامي، صار الأولياء من المتصوّفة (وكان ثمة نساء من بينهم من وقت لآخر) موضع تبجيل شعبي يبلغ حد التقديس. لكن هذه البدعة ما لبثت أن صارت بعد حين هدفاً للمصلحين الذين اعتبروا الغلو في تبجيل الوسطاء



لفيف من المتصوّفة المولويين أو الدراويش، أثناء تأديتهم طقوسهم المدوّمة التقليدية. الرقص، ويُدعى «الذِّكْر» (أي ذِكْر الخالق) يحمل المريد على الاقتراب من الحضرة الربّانية، في ما يُشبه التوازن الدقيق بين النشوة الروحية والسيطرة المنهجية على الذات. تأسّست الطريقة الصوفية المولوية على يد الشاعر والمتصوّف الشهير: جلال الدين الرومي (1207–1273).

وإضفاء هالة من القداسة عليهم انتهاكاً لتحريم الإسلام الوثنية.

وخلافاً للعلماء الذين يعكسون، في العادة، إجماع الرأي لدى المتعلمين، طوّرت الطُرُق الصوفية منظمات ذات تراتبية هرمية تتمتع بالسلطة الروحية المتركّزة في يد الرئيس الذي يُكنى بأسماء شتى، مثل: الشيخ، أو المرشد، أو البير. أما المريدون أو المنتسبون إلى الطريقة، فهم مقيّدون بالبيعة أو يمين الولاء للرئيس أو المرشد الذي يتربع على رأس مراتب متسلسلة من الصفوف داخل الطريقة، وفقاً لدرجة تسامي الحالة الروحية للمرء. ومع أن الأنظمة السارية المفعول تختلف وتتفاوت إلى حد بعيد فيما بينها، مع اتصاف بعض الطُرُق الصوفية بدرجة أكبر من الحصرية والانضباطية من بعضها الآخر، فإن الجمع بين التعلّق بالرئيس وتكريس الذات للصفوف ضمن الجماعة الصوفية تتيح لأتباع الطريقة أن يجعلوا من أنفسهم قوة مقاتلة جبّارة. ففي القوقاز مثلاً، خاض الإمام شامل ثورة ضد الروس دامت من عام 1834 إلى عام 1839، وذلك تحت جناح مُرشده الروحي وحميه السيد جمال الدين الغازي الغموقي، شيخ مشايخ الطريقة الخالدية المتفرّعة عن النقشبندية. وفي شمال إفريقيا، تقدّم عبد القادر، أحد مشايخ الطريقة القادرية، الصفوف في النضال ضد الفرنسيين، وكذلك فعلت الطريقة السنوسية في المقاومة ضد المحتلّين الإيطاليين (في ليبيا). لكن في مناطق أخرى، سارت بعض الطُرُق الصوفية في ركاب قوى الاستعمار. ففي مراكش مثلاً، وما بين أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، قبلت الطريقة التيجانية الواسعة النفوذ إعانات مالية طائلة من الفرنسيين الذين سخّروا تلك الطريقة لتعزيز مصالحهم الاستعمارية. وفي السنغال، انصرفت الطريقة المريدية التي أسّسها أمادو بامبا (ن 1850–1927) عن المقاومة لتتّبع عوضاً عنها ضرباً من أخلاق العمل قائماً على زراعة الفول السوداني، مما أعاد الاستقرار إلى البلاد في ظل نظامٍ خاضع للسيطرة الفرنسية.

وفي حالات كثيرة، أمّنت الطُرُق الصوفية القيادة اللازمة للحركات الإصلاحية والنهضوية التي اكتسحت العالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين. فعبارة «الصوفية الجديدة» تنطبق أحياناً على حركات تجهد لإقامة توازنٍ ما بين النشاط السياسي «البرّاني» والتجربة الروحية «الجوّانية»، فيما يوفّر البناء الهيكلي للطريقة الآلية الضرورية لنقل الأفكار ووضعها موضع التنفيذ. ولعلّ أشهر مثال على ذلك، حركة «نور خُلق» التي أسّسها سعيد نورسي (1876–1960) في تركيا. كان سعيد نورسي هذا داعية وكاتباً ذا خلفية نقشبندية، وقد سعى إلى إحياء الفكر الإسلامي عن طريق دمج العلم والإيمان واللاهوت والتصوّف في صيغة جديدة من الشعار النقشبندي: «اليد تنكبّ على العمل، والقلب يهفو إلى الله». وعلى عكس جماعة الإخوان المسلمين في مصر، التي تأثرت هي الأخرى بالأفكار الصوفية، فإن حركة «نور خُلق» تعمل على وفاق تام مع الدولة العلمانية في تركيا.

استُهدفت الأفكار الصوفية والممارسات التقديسية، في العقود الأخيرة، بالهجوم من جهتين: من جانب الحداثويين الذين يعتبرون الصوفية اتجاهاً رجعياً، ومن جانب الإسلاميين الوهّابين الذين يضعون أيديهم على العديد من المؤسّسات الإسلامية بفضل الدعم المالي من المملكة العربية السعودية وغيرها من البلدان الغنية بالنفط. وإذا كانت هاتان الأجندتان مختلفتين إلى حد ما، إلاّ أن نتائجهما واحدة في المحصّلة. لقد بدأ الحداثويون، المعتنقون أفكار التنوير الأوروبي، بالمطالبة بدينٍ «عقلاني»، لكنهم انتهوا برفض الدين جملةً وتفصيلاً. وفي ردّهم على الحداثويين، وقع الإسلاميون أسرى الموقف ذاته: «إما كل شيء أو لا شيء».

تحتل الصوفية مكاناً وسطاً بين الحداثة والأصولية، وهذا ما يتيح للدين أن يتكيّف مع الظروف الاجتماعية المتبدّلة. ومن غير هذه القوة التوسطية والتكييفية التي تتمتع بها الصوفية، من غير المرجّح أن يتمكّن أنصار الإسلام السياسي من النجاح في استيعاب أطياف الإسلام المنوّعة ضمن النظام الإسلامي «المُستعاد» الذي يهفون إليه.

الطريقة	الوليّ المؤسّس	موقع التأسيس
السهروردية	شهاب الدين أبو حفص عمر (1145-1234)	بغداد
الرفاعية	أحمد بن علي الرفاعي (1106-1182)	أم عبيدة
القادرية	عبدالقادر الجيفاني (1077-1106)	بغداد
الشاذلية	أبو مدين شعيب (1126-1197)	تلمسان
	أبو الحسن علي الشاذلي (1196-1258) مريد لمريد أبي مدين، وعلى اسمه سُميت هذه الطريقة الصوفية	
البدوية	أحمد البدوي (1199-1276)	طنطا
الكُبراوية	نجم الدين الكُبرى (1145-1221)	خيوة
الياسوية	أحمد بن إبراهيم بن علي الياسي (ت 1166)	تُركستان
المولاوية	جلال الدين الرومي (1207-1273)	قونية
النقشبندية	محمد بهاء الدين النقشبندي (1318-1389) ويعتبر عبد الخالق الجويدواني المنظم الأول للطريقة النقشبندية	بُخارى
الششتية	معين الدين حسن الششتي (1142-1236)	أجمير

الطُرق الصوفية 1145-1389

- ● مقام ولي مؤسِّس لواحدة من أهم الطرق الصوفية
- تقاليد صوفية مصرية وإفريقية شمالية متحدّرة من تقاليد عراقية
- تقاليد صوفية إيرانية وآسيوية من وسط القارة مستمدة من الجنيد والبسطامي
- تقاليد صوفية عراقية مستمدة من الجنيد

الرفاعية طريقة رئيسية في تطور مؤسسة الصوفية. ويعود أصل جميع الطرق اللاحقة إلى إحدى هذه الطرق الرئيسية. وقد سادت في مكان نشأتها الأولى، رغم أنها انتشرت بعد عام 1500 خارج هذه المناطق، ما عدا الطريقة المولوية والقادرية والكستية

الواعيّة طُرق صوفية أخرى ذات أهمية في العام 1500، مشار إلى موقعها حيث تكون هي الأبرز



الأيوبيون والمماليك

يظهر صلاح الدين الأيوبي، في هذا الرسم لغوستاف دوريه (1884)، بوصفه النموذج الأصل للبطل السراسيني (الشرقي). كان صلاح الدين موضع إعجاب المسلمين وكذلك أعدائه الصليبيين سواء بسواء، نظراً لما كان يتحلّى به من حسّ رفيع بالشرف والإنسانية، وقد طارت شهرته في الغرب بفضل الرواج الواسع الذي حظيت به رواية ووالترسكوت: «الطلسم» (1825).

أما وقد فرضت نفسها على ذلك الشطر المتشرذم من العالم الإسلامي، لم تفعل الممالك الصليبية سوى أنها خلقت استجابة متضامنة ضدها. وبالوسع تتبّع آثار هذا النهوض إلى استيلاء أتابك (والي) الموصل السلجوقي، عماد الدين زنكي، على مدينة حلب في العام 1128. وابنُه نور الدين زنكي، الذي حكم دمشق في الفترة 1154–1174، وطّد دعائم سلطته في الشام وبلاد ما بين النهرين، وبعث بقائد كردي لديه، يُدعى صلاح الدين الأيوبي، إلى مصر في العام 1169 كي يقبض على زمام الأمور هناك. وبالفعل، تولّى صلاح الدين السلطة رمزياً في مصر عندما عزل آخر خلفاء الفاطميين بعد ذلك بسنتين. وقد وسّع صلاح الدين وذريته، الأيوبيون، من جاذبية المذهب السنّي في مصر بسماحه للعلماء والدارسين من مختلف المذاهب الفقهية بالعمل سويةً، مع ترك التعلّق الشّعبي بالطالبيين (آل علي بن أبي طالب) يأخذ مجراه في مسجد الحسين، حيث يُعتقد أن رأس السبط الشهيد قد دُفن هناك. ومن مصر، انطلق صلاح الدين لإخضاع بلاد الشام وأعالي بلاد الرافدين، فأعاد بذلك الحياة للدولة الموحّدة في الشرق للمرَّة الأولى منذ العصر العباسي الأول. وفي عام 1187، توّج صلاح الدين إنجازاته بانتزاع مدينة القدس من أيدي الفرنجة.



غير أن سلالة صلاح الدين، السلالة الأيوبية، لم يُكتب لها البقاء. ففي عام 1250، قُتل آخر سلطان أيوبي على أيدي جنده من المماليك الأتراك، الذين نادوا بقائدهم هم سلطاناً عليهم، مفتتحين بذلك حقبةً مديدة من الحكم المملوكي دامت أكثر من قرنين ونصف القرن. بعدها بعشر سنوات، أنزل القائد المملوكي اللامع، بيبرس، الهزيمة بالغُزاة المغول في موقعة عين جالوت في فلسطين. وبحلول عام 1291، كان خلفاؤه قد وحّدوا بلاد الشام، وطردوا الصليبيين، ووسّعوا حدود دولتهم إلى وادي الفرات الأعلى وأرمينيا. احتفظ المماليك بأسمائهم التركية وبحقّهم الحصري في ركوب الخيل واتخاذ مماليك آخرين عبيداً لهم. لكنهم كانوا على وجه العموم، لا يتزوجون إلاّ بمن يجلبون من نساء مسترّقات. لأنهم إذا ما اقترنوا بنساء محلّيات أو تسمّوا بأسماء عربية – إسلامية، فقد يفقدون اعتبارهم واحترام أبناء جلدتهم لهم. وحين بدأ إمداد العبيد من الأتراك الكِيبتشاك (وكانوا يُعرفون بالمماليك البحرية) بالنضوب، حلّ محل المماليك الكيبتشاك الشركس (الذين عُرفوا بالمماليك البُرجية). هذا ولئن حاول معظم السلاطين المماليك إقامة سلالات حاكمة لهم، إلا أن مساعيهم نادراً ما كان يُكتب لها النجاح، نظراً إلى أن القاصرين منهم أو الضعفاء كانوا يُعزلون على الدوام من قبل منافسين أقوى شكيمة منهم. مهما يكن من أمر، فقد أبدى المماليك إخلاصهم للإسلام بأن رعوا العلم والطُّرُق الصوفية، وكذلك من خلال تلك الصروح المعمارية المهيبة، من مساجد ومدارس وخانات، التي أغدقوها على القاهرة بطرازها الهندسي المميّز والمنمّق الذي يحمل اسمهم.


الشرق الأدنى المسلم
1174-1127
أراضي زنكي، حوالى 1145
أراضي نور الدين، حوالى 1174
أراضي إسلامية أخرى، حوالى 1174
أراضي مسيحية، حوالى 1174
عاصمة الخلافة (العباسية)
عاصمة الخلافة (الفاطمية)
البحر الأسود
(بحر بنطش)
بحر قزوين
(بحر الخزر)
البحر المتوسط (بحر الروم)
البحر الأحمر (بحر القلزم)
الخليج العربي
الامبراطورية البيزنطية
دولة سلاجقة الروم
تركمان
أرمن
جورجيا
أذربيجان
إسماعيليون
أرمينيا
ديار بكر
بلاد الشام
إسماعيليون
إيران
العراق
جزيرة العرب
بدو رُحّل
مصر
الحجاز
بلاد النوبة
اليمن
قبرص
كريت
أدرنة
القسطنطينية
نيقية
أزمير
إفسس
أفيون
قونية
أضاليا (أنطاليا)
طرسوس
أماسيا
طرابزون
سيواس
قيصرية
ملاطية
مرعش
تفليس
شماخة (باكو)
تبريز
المراغة
الموت
ميافارقين
الرها
زنكي ينتزع الرها 1144
حلب
زنكي يستولي على حلب 1128
الرقة
الموصل
سنجار
زنكي يعين أتابكاً للموصل 1127
الموصل تعترف بسيادة نور الدين 1171
انطاكية
مصياف
حماه
حمص
طرابلس
ليماسول
دمشق
نور الدين يستولي على دمشق 1154
حطين
عكا
يافا
الرامة
القدس
عسقلان
دمياط
الإسكندرية
القاهرة
1171-1169
صلاح الدين يطيح بالخلافة الفاطمية
همذان
كرمنشاه
بغداد
الحلة
الكوفة
البصرة
قوص
أسوان
إبريم
عيذاب
ينبع
المدينة
جدة
مكة
سواكن
علوة
صعدة
صنعاء
مصوع
جزر دهلك
كلم
ميل
ش

الغزو المغولي

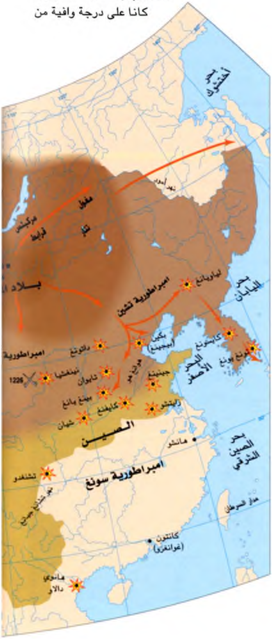


جنكيزخان في إحدى المناسبات الرسمية وقد أحاط به أفراد حاشيته. لكن بصرف النظر عما بلغه بلاطه من ترفٍ وفخامة، كما هو ظاهر من هذه الخيمة المغولية (اليورت) ذات الزركشات والتزويقات السخيّة، فقد بقي هذا الخان الأعظم بدوياً حتى نهاية حياته.

خلافاً للبوادي في الجزيرة العربية، تتصف أراضي السهوب في آسيا الداخلية بقدر كافٍ نسبياً من حاجتها إلى المياه، وبمساحات واسعة من المراعي لرعي الخيول. والبدو الخيّالة ممن سكنوا تلك المناطق، كانوا منظّمين اجتماعياً وفق خطوط مماثلة للعرب في تشكيلات قبلية ذات طابعٍ أبوي. وعلى شاكلة البدو العرب والأتراك أيضاً، تمكن هؤلاء من إنشاء تكتّلات ضخمة بما يكفي لشنّ غارات ناجحة على المدن والمناطق الزراعية، فأسّسوا أمبراطوريات لها وزنها بقيادة زعماء مُرعبين، لعلّ أشهرهم أتيلا، الذي عاث وجحافله من قبائل الهون نهباً وخراباً في وسط أوروبا إبان القرن الخامس. أدرك أباطرة الصين ما تمثله هذه التشكيلات الضخمة من الغُزاة المحمولين على صهوات الجياد من أخطار ومخاطر، واستخدموا قواتهم لكسر شوكة هؤلاء في كل مرة وجدوا أنهم أقوياء بما فيه الكفاية للقيام بذلك. وقد شُيِّد «السور العظيم» بمثابة حاجز دفاعي لصدّهم واتقاء شرّهم.

في مطلع القرن الثالث عشر، ظهر تشكيل جديد بين المغول في منطقة نائية محاذية للغابات السيبيرية بزعامة جنكيزخان (ن 1162–1227). تسلّم جنكيزخان، الذي عُرِف بدهائه الشديد وقسوته اللامتناهية، قيادة تجمُّع عريض من القبائل اعتباراً من عام 1206. وحين وافته المنية، كان قد سيطر على معظم أراضي شمال الصين، وبلغت جيوشه سواحل بحر قزوين. تقاسم أبناؤه أجزاء أمبراطوريته، لكنها استمرت في التمدّد والتوسّع، متغلّبة على ما تبقى من شمال الصين، ومكتسحة شرق أوروبا حتى تخوم ألمانيا. لكن وعلى غرار سائر التشكيلات البدوية، لم تكن هناك قواعد واضحة للوراثة. وعليه، فقد اختلف ورثة جنكيزخان وتنازعوا على «تركته»، فأقاموا عدة دويلات مستقلّة وأحياناً كثيرة متعادية، نذكر منها: منغوليا الحالية، وشمال الصين، ومملكة «القبيلة الذهبية» (المتركّزة في حوض الفولغا)، وخانات جغطاي في منطقة أموداريا (جيحون)، والسلالة الإيلخانية التي غزت إيران وقضت على سلطان السلاجقة في بلاد الأناضول.

لم يكن المغول مجرد قبائل بدوية تتصف بالعنف ولا تعرف قلوبها الشفقة، بل إن نظام الاتصالات عندهم، واطّلاعهم على أحدث الأساليب والتقنيات الحربية، كانا على درجة وافية من

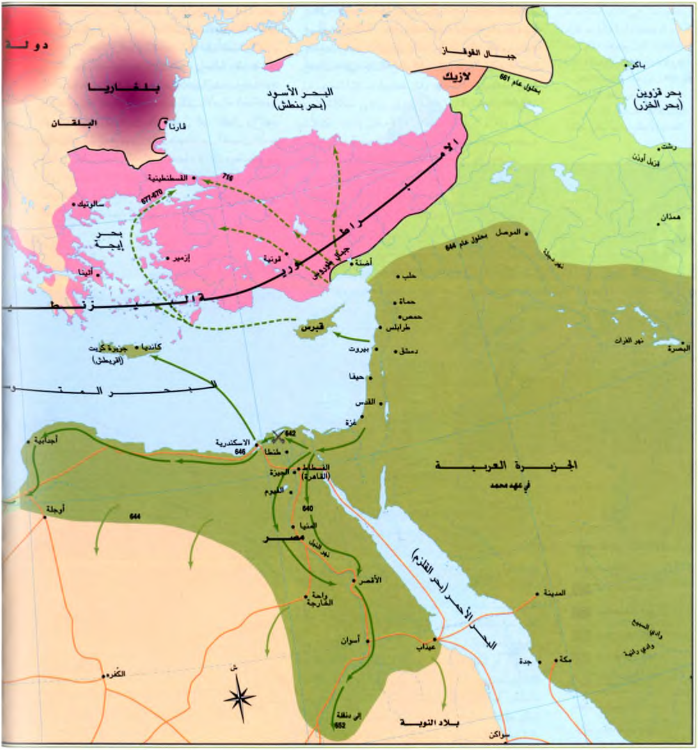


التطوّر أتاحت لهم إحداث مستويات غير مسبوقة من التخريب والتدمير. في فتوحاتهم الأولى، أُبيدت مدن بأكملها عن بكرة أبيها، وسُوِّيت مبانٍ بالأرض، وارتفعت إهرامات مقزِّزة من الرؤوس المقطوعة النتنة. كانت الوحشية المغولية شكلاً من أشكال الحرب النفسية، الغاية منها إيصال رسالة مفادها أن المقاومة عديمة الجدوى. وكإستراتيجية، أثبت الإرهاب أنه فعّال للغاية: فقد كان الأمراء الحاكمون في الهضاب الإيرانية يتسارعون إلى إظهار ولائهم، والموظّفون المحليون والوجهاء من أعيان الأُسر يُقبلون على إبداء التعاون معهم، لا بل ويشجعونهم على مهاجمة أعدائهم هم من المسلمين لنيل الحظوة لدى الغُزاة. وقد سما البعض من طبقة العلماء إلى أعلى المراتب من حيث الشهرة والنفوذ.

فالمؤرِّخ السُّنّي علاء الدين الجويني، مثلاً، رافق هولاكو في حملته على قلعة ألموت، حيث دُمِّر آخر معقل للإسماعيليين الذين نجوا بعد سقوط الفاطميين في العام 1256. وفي أعقاب فتح بغداد بعد ذلك بسنتين، عُيِّن الجويني والياً عليها. ولم تمض بضعة أجيال حتى دخل المغول الغربيون في الإسلام، فاتحين بذلك عصراً جديداً لامعاً في مسار تطوّره.



المغرب وإسبانيا 650 - 1485




الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا وأوروبا
732-634
فتوحات في عهد محمد
بحلول 644
بحلول 620
حملة إسلامية كبرى
حملات أخرى
غارات إسلامية
انتصارات إسلامية
هزائم إسلامية
مسالك تجارية عبر الصحراء
0
300 كلم
0
300 ميل
المحيط الأطلسي
(بحر الظلمات)
مملكة الفرنجة
مقاطعة أكيتان
تور
بواتييه
732
ليموج
بوردو
ليون
تولوز
721
مرسيليا
نيس
فريجوس
جنوى
تورينو
فلورنسا
البندقية
أنكونا
روما
نابولي
تورنتو
البحر الإدرياتيكي
كورسيكا
سردينية
صقلية
668-652
كرونا
(لاكورونيا)
718
سنتاندير
جبال الكنتبرية
بورتو
(برتغال)
713
سرقسطة
713
برشلونة
مجريط
طليطلة
712
لشبونة 711
بلنسية
بالماء
جزائر البليار (الجزائر الشرقية)
قرطبة
711
712
711
غرناطة
قرطاجنة
قادش
طنجة
جبل طارق
مكناس
فاس
تازه
تاهرت
683
698
بونة
(عنابة)
تونس
698
القيروان
670
قابس
طرابلس
647
مصراته
أغمات
سجلماسة
ورقلة
غدامس
القليعة
جرمة
عين صالح
زويلة
مرزوق
غات
مدار السرطان
الصحراء الكبرى
البربر

إسبانيا الإسلامية حوالى 1030

دول مسيحية
خلافة قرطبة حتى 1031
غرناطة ممالك إسلامية بعد 1031
أبرشية
جالية يهودية مهمة

السكان

مسيحيون
غالبية بربرية ومتأسلمون
غالبية مسلمة

الأندلس هو الاسم العربي لقسم من الأراضي الواقعة في شبه الجزيرة الإيبيرية، الذي دال لحُكم المسلمين ونفوذهم طوال ما يقرب من 800 سنة. أول احتكاك للمسلمين بالمنطقة حدث في عام 711. يومذاك عبر جيش مسلم مضيق جبل طارق من شمال إفريقيا. وبحلول عام 716، كان عددٌ من المدن والممالك قد مُني بالهزيمة. غير أن طبيعة السيطرة الإسلامية ونطاق اتساعها في المنطقة، ارتبط ارتباطاً دراماتيكياً بسقوط الدولة الأموية وعاصمتها دمشق في العام



750. فقد فرّ أحد أفراد البيت الأموي إلى إسبانيا، حيث صار والياً قبل أن يؤسّس سلالة أموية جديدة أعلنت إيبيريا وشمال إفريقيا في نهاية المطاف خلافةً مستقلّة.

وثمة حركتان مدفوعتان بنظرة أكثر سلفية إلى الحُكم الإسلامي، تولتا السيطرة تباعاً على المنطقة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، هما: المرابطون (1056–1147)، والموحّدون (1130–1269). وقرب نهاية حكم الموحّدين، تكتّل سائر الأمراء المسيحيين معاً، مدشّنين بذلك حقبة «حروب الاسترداد». وباستثناء حكم بني نصر في غرناطة، الذي مكث حتى عام 1492، كان معظم شبه الجزيرة الإيبيرية قد خرج من قبضة المسلمين.

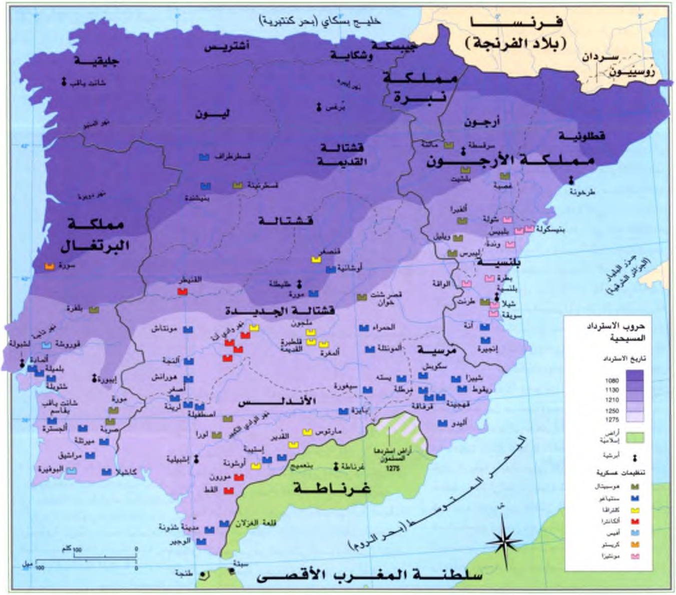
غداة سقوط غرناطة في العام 1492، سلك معظم المسلمين واليهود طريقهم إلى شمال إفريقيا هرباً من محاكم التفتيش. بعضهم رضخ واعتنق المسيحية، فيما سُمح لقلّة قليلة منهم بالبقاء على دينهم، ولكن في ظروفٍ تميّزت بالتشدّد في تقييد حركتهم. غير أن عملية «التنصير» وطرد المسلمين كانت قد اكتملت أو تكاد بحلول نهاية القرن السادس عشر، ولم يبق من وجود للإسلام في المنطقة سوى ما خلّفه وراءه من آثار ثقافية ليس إلاّ.

ارتبطت الحضارة الناشئة في الأندلس المسلم بالتطورات الأوسع نطاقاً في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، غير أنها تميّزت عنها من عدة وجوه. فالفن والعمارة المقترنان بمدن قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، باقيان معالم حية ومنارات مشرقة على مرّ الزمن. كما أن التراث الأدبي الذي ازدهر أيما ازدهار في الفترة الأخيرة من الحُكم الإسلامي، أصاب امتيازاً هو الآخر بإسهامه العظيم في الأدب الرومانسي. لكن ربما كان التراث الأبقى على مرّ الدهور هو ذاك المتجسّد في كتابات المسلمين واليهود الفلسفية والعقائدية والقانونية، والتي سيكون لها أعظم الأثر في بروز النزعة السكولائية (المدرسية) اللاتينية لاحقاً في أوروبا. ومن أبرز المرجعيات في هذا الصدد، ابن رشد، المتوفى عام 1198؛ وابن عربي، المتوفى عام 1240،

الذي وضع العديد من المؤلَّفات الصوفية التي أثرت عميقاً في الأجيال اللاحقة. كما أن المفكّر اليهودي الكبير موسى بن ميمون (ت 1204)، عمل هو الآخر في مثل هذا الوسط المنعش فكرياً والمتألق ثقافياً إلى أبعد الحدود.



باحة الأسود في قصر الحمراء بغرناطة. صمدت مملكة غرناطة، وهي آخر موقع إسلامي متقدم في غرب أوروبا، قرابة 250 سنة في وجه حروب الاسترداد المسيحية. وبالرغم من كل الضغوط الخارجية، ظلّت غرناطة في ظل سلالة بني نصر بمثابة بوتقة انصهرت فيها على وجهٍ من التفذلك والتسامح الثقافتان الإسلامية والغربية في توليفة لامعة وخلّاقة.

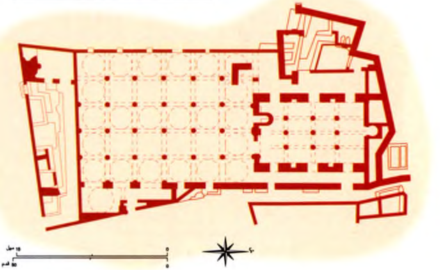


إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى-شرقاً

كلوة، الموقع الجنوبي المتقدم لدار الإسلام حتى الأزمنة الحديثة. كان يبلغ تعداد سكانها زهاء عشرة آلاف نسمة عام 1505 حين احتلّها البرتغاليون في هجوم كاسح. أوائل المسلمين الذين استوطنوها (حوالى 800 م)، كانوا من البحّارة والتجّار القادمين إليها من سواحل الخليج.

منذ زمن الفراعنة القدماء ومناطق أعالي النيل في شرق إفريقيا تنتمي إلى الفضاء الثقافي نفسه الذي تنتمي إليه مصر. فإثيوبيا اعتنقت المسيحية على يد الإرساليات القبطية اعتباراً من القرن الرابع؛ وبحسب أقدم المصادر الإسلامية، فقد وفَّر النجاشي المسيحي الملاذ الآمن لمجموعة من المسلمين المضطهَدين قدمت من مكّة حتى ما قبل الهجرة المحمدية. وصل الفاتحون العرب لمصر إلى حدود أسوان عام 641، واستمروا لعدّة قرون بعدها يزحفون جنوباً، مانحين منطقة أعالي النيل طابعها العربي الغالب. وقد أسّس سلطنة الفُنج، التي حافظت على احتكارها لتجارة الذهب إلى مطلع القرن الثامن عشر تقريباً، قومٌ من الرُّعاة سلكوا طريقهم جنوباً في موازاة مجرى النيل الأزرق. وعملت تلك السلطنة على توطيد النفوذ العربي باستقدامها فقهاء وأولياء من مصر والمغرب والجزيرة العربية.

مقطع أرضي للجامع الكبير في كلوة



ومما عزّز الطابع العربي للإسلام في شرق إفريقيا، قُرب المناطق الساحلية من الحجاز واليمن. فمنذ زمن مبكر، اكتسب مربّو المواشي الصوماليون أشرف الأنساب الإسلامية جميعاً وذلك بإرجاع أصلهم إلى شجرة النسب القرشية؛ وتلك نزعة سوف تتبدّى جلياً للعيان بين سواهم من الزعماء الدينيين والقبليين. وفي حين احتفظت العربية، وفي بعض الحالات الفارسية، التي جاء بها البحّارة، بمكانتها الاعتبارية وامتيازاتها بوصفها لغة «الإسلام الحق»، طوَّرت اللّغات العاميّة آداباً شفهية ثرية لن تلبث أن تكتسب آخر الأمر شكلاً مكتوباً. يعود تاريخ أول نصّ كُتب باللغة السواحلية إلى عام 1652. والثقافة السواحلية المهيمنة على الشريط الساحلي الممتد مسافة ألف ميل، من مقديشو إلى كلوة، هي ثمرة قرون عدّة من التفاعل بين الأفكار التي حملها معهم التجّار والمستوطنون العرب والفرس، والشعوب الأصلية في الساحل الشرقي لإفريقيا التي تزاوجوا معها.

بعدما دار فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح في العام 1498، دمّر البرتغاليون وبشكل منتظم المدن الساحلية المزدهرة التي كانت قد نبتت على امتداد الساحل.. في عام 1505، تم الاستيلاء على كلوة واستُبيحت مومباسا لأعمال السلب والنهب. وبحلول عام 1530، كان البرتغاليون قد بسطوا سيطرتهم على الساحل برمّته، انطلاقاً من حصونهم المنيعة في بمبا وزنجبار وغيرهما من الجُزر. غير أنه في الخمسينيات من القرن السابع عشر، استطاع العُمانيون، وهم من المسلمين الإباضيين، أن يطردوهم من مسقط، ويُعيدوا الشطر الشرقي من المحيط الهندي إلى حظيرة الحُكم الإسلامي، وأقام العُمانيون شبكة لتجارة الأقمشة والعاج والعبيد بين شرق إفريقيا والهند. وفي القرن التاسع عشر، اتحدت مسقط وزنجبار لفترة وجيزة تحت سلطان حاكم واحد، هو السيد سعيد بن سلطان (1804–1856)، مما فتح الباب أمام توطّن موجات جديدة من المهاجرين المسلمين القادمين من جنوب الجزيرة العربية. وتحوّلت زنجبار في مُجملها إلى مركز لإنتاج كبش

القرنفل وغيره من التوابل، باستخدام أساليب للزراعة الرقّية شبيهة بتلك التي طُبقت في الولايات المتحدة الأميركية. وإثر تقسيم السلطنة بين أبناء السلطان سعيد، تعرّضت زنجبار لضغوط متزايدة من جانب الإنجليز لحظر تجارة العبيد، وقد استخدم هؤلاء أسطولهم الحربي لفرض قوانين مكافحة تجارة العبيد وخدمة مصالحهم التجارية الخاصة. وبعدما صارت محميّة بريطانية. استقبلت زنجبار موجة جديدة من المهاجرين القادمين هذه المرة من الهند البريطانية. وكان الكثير من هؤلاء المهاجرين مسلمين، إنما من نِحَل تُصنَّف في خانة الأقليات، مثل: المؤمنية، والخوجية، والإسماعيلية.



مدخل أحد البيوت الخاصة في البلدة الحجرية من زنجبار. أبواب البيوت المزخرفة محفورة من الأخشاب المتوافرة محلياً، أو من الأخشاب المستوردة من البر الإفريقي، وكانت ترمز إلى المكانة الاجتماعية لصاحب المنزل. أما الجدران، فمبنية من الكسر المرجاني، لذلك كانت بحاجة إلى صيانة دائمة للحيلولة دون انهيارها بفعل الأمطار الموسمية الغزيرة.



إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى - غرباً

تفصيل من خريطة كاتالونية يصوِّر ملكاً متربعاً على العرش وحوله كل الرموز والشعارات الدالّة على ملكيته. ربما يكون الرسم للملك مانسا موسى من مالي، الذي بهرت ثروته معاصريه حين سافر إلى مكّة عام 1324–1325 لتأدية فريضة الحجّ.

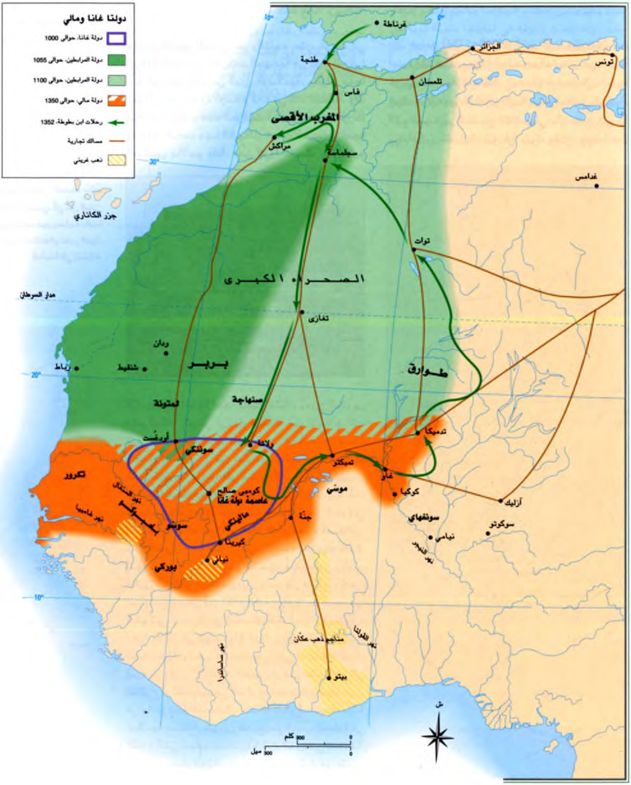


كان انتشار الإسلام في غرب إفريقيا سلمياً إلى حد بعيد. فالبدء باستخدام الجمال لأغراض النقل عبر الصحراء الكبرى في زمنٍ يرجع إلى ما قبل عام 600 ميلادية، كان قد أرسى شبكة متنامية من مسالك القوافل بين المغرب والساحل، ذلك الحزام الشاسع من السباسب المعشبة الواقعة ما بين الصحراء الكبرى والغابات الاستوائية الغينية. سلعة التصدير الرئيسية من الجنوب، كانت الذهب من بامبوكو على ضفة نهر السنغال، التي ظلّت لقرون عديدة المصدر الأوّل للذهب المصدَّر إلى المغرب وغرب آسيا وأوروبا. وإلى جانب الذهب، كانت تجري مقايضة العبيد وجلود الحيوانات والعاج بالنحاس والفضة والمشغولات الحرفية والفاكهة المجفّفة والأقمشة. لكن ما هو أخطر شأناً من التجارة، كان بث الأفكار. فقد تغلغل الإسلام جنوباً بواسطة التجّار والمعلمين والمتصوّفة، الذين أسماهم الفرنسيون «مُرابوط»، نسبةً إلى المرابطين العرب، وكان الأخيرون في الغالب من الأسر المشهورة بالتقوى والورع وتكتنفها هالة من القداسة، فكانوا يقومون بدور الوسيط والحكَم المتوارث بين أبناء القبائل في الأرياف.

في القرن الحادي عشر، أقام المرابطون من قبيلة لمتونة البربرية مركزاً لهم في موريتانيا من أجل نشر الإسلام، ومن هناك خاضوا الجهاد ضد ملوك غانا، حكّام أكبر وأغنى دول غرب إفريقيا على الإطلاق. والحماسة الإصلاحية المأثورة عن المرابطين، حملتهم شمالاً إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث أعادوا توحيد إمارات الأندلس الصغيرة لتفادي خطر الفتح المسيحي المضاد. صحيح أنه جرت بعض عمليات «الأسلمة» القسرية للإفريقيين جنوبي الصحراء الكبرى، غير أنها كانت نادرة جداً. فقد كانت الأُسر المالكة، كما هي العادة، من بين أوائل الداخلين في الدين الجديد، وهي التي طالما استندت إلى الهيبة الدينية لاعتصار الضرائب أو فرض التجنيد على العشائر وأبناء الجاليات الخاضعة لها. وحيث أن التجار المسلمين كانوا قد استقرّوا في مدن الساحل [بلاد الزنج]، وصار لمعظمهم أحياؤهم الإسلامية الخاصة بهم بحلول القرن العاشر، فقد سعت تلك الأسر المالكة إلى الاستفادة من السمعة الثقافية العالية التي حملوها معهم بأن اتخذت الإسلام ديناً للبلاط.

في أغلب الأحوال، استمرت الممالك المحلّية بالتشكّل وإعادة التشكّل في ظل مختلف السلالات القبلية الحاكمة، مع امتزاج الشعائر والعبادات الإسلامية بالعادات والأعراف القبلية. ومع نشوء كل دولة جديدة، كانت عاصمتها تتحوّل إلى مركز للثروة والتعليم الإسلامي، بحكم سعي حكّامها إلى الفوز بالهيبة والاعتبار من خلال بسط رعايتهم على المتعاطين بالعلوم الدينية. ولعلّ المركز الثقافي الأدعى إلى الإعجاب حقاً، كان مدينة تيمكتو الطوارقية الواقعة على نهر النيجر. والطوارق شريحة نخبوية تركب الإبل، وقد ازدادت ثراءً من التجارة العابرة للصحراء الكبرى. كما استخدمت العبيد الأرقاء لاستثمار مناجم الملح، والأقنان المتوطنين من القبائل الإفريقية لزراعة الواحات الواقعة على امتداد الطُرُق التي يسلكونها.

وأشهر حاكم مسلم من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، هو مانسا موسى، ملك مالي (1307–1332)، الذي حجّ إلى مكّة في العام 1324–1325، محاطاً بأفخم وأعظم أُبهة في زمانه، فترك وراءه انطباعاً قُيِّض له أن يدوم طويلاً. وخلافاً للسودان النيليّ حيث ضربت اللغة العربية جذوراً مؤثلة فيه، انتشر الإسلام هنا باللغات العامية المحلّية منذ المراحل المبكرة نسبياً. فاعتباراً من العام 1700 تقريباً، أو حتى في زمن أبكر من هذا بعد، طوّر الدارسون والمعلّمون صيغة معدّلة من الأبجدية العربية لإيصال التعاليم الإسلامية بالفُلفُلدة والهوسا، أوسع اللغات انتشاراً في منطقة غرب الساحل.


دولتا غانا ومالي
دولة غانا، حوالى 1000
دولة المرابطين، حوالى 1055
دولة المرابطين، حوالى 1100
دولة مالي، حوالى 1350
رحلات ابن بطوطة، 1352
مسالك تجارية
ذهب غريني
غرناطة
طنجة
الجزائر
تونس
تلمسان
فاس
المغرب الأقصى
مراكش
سجلماسة
غدامس
جزر الكناري
توات
الصحراء الكبرى
مدار السرطان
تغازى
ودان
زياط
شنقيط
بربر
طوارق
لمتونة
صنهاجة
أوداغست
سوننكي
ولاتة
تكرور
تدميكا
تمبكتو
غاو
كومبي صالح
عاصمة دولة غانا
موسي
كوكيا
آزليك
نهر السنغال
نهر غامبيا
سوسو
مالينكي
جنّة
سونغهاي
سوكوتو
نيامي
نهر النيجر
كيرينا
نياني
بوركي
مناجم ذهب عكان
نهر الفولتا
نهر ساساندرا
بيتو
ش
كلم
ميل

الدول الجهادية

ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، خرجت إلى الوجود سلسلة من الحركات الجهادية في غرب إفريقيا أدّت إلى قيام عدد من الدول الإسلامية، وطرأت معها تحوّلات على وجود الإسلام ذاته في تلك المنطقة. وقد انطوت معظم هذه الحركات الجهادية على ثورات وتمردات قامت بها القبائل البدوية ضد حكّامها المسلمين بالاسم فقط، ممّن آثروا التمسّك بالمفاهيم



مسجد في جنّة بمالي. المسجد مُشيَّد على الطراز البلدي، أي من الطين المخبوز. ولذلك، فهو بحاجة دائماً إلى الترميم باستخدام نفس المواد الداخلة في إنشائه.

الإفريقية التقليدية لجهة تأليه الملوك، ومزج الطقوس ذات المنشأ الوثني برموز مستقاة من الإسلام. أتت قيادة هذه الحركات، على جري العادة، من طبقة العلماء المثقفة، أي من الدارسين والمعلمين والطلاب، الذين كانوا قد درسوا على مشايخ الصوفية المحليين أو اعتنقوا أفكارهم الإصلاحية في مكّة والمدينة. أما أشياعهم فكانوا من رُعاة الماشية من الفولاني المرتحلين جنوباً بحثاً عن الكلأ لقطعانهم، والمستائين من الضرائب الباهظة التي يفرضها عليهم ملوك الهوسا، وقد التحق بهم فلاّحون ساخطون وعبيد آبقون وسواهم من المنبوذين. واحد من هؤلاء، ويُدعى إبراهيم موسى (ت 1751)، كان رجلاً متعلّماً من الفولاني، انخرط في النضال ضد الحكّام المحليين، وهذا ما آل إلى قيام دولة فوتا جالّون في مرتفعات سنغامبيا. والحركة الجهادية، التي استغلّها أبناء إبراهيم موسى لالتقاط العبيد بغرض تصديرهم إلى الخارج أو تشغيلهم في المزارع، امتدت إلى فوتا تورو في وادي نهر السنغال. هناك أقام العلماء دولة إسلامية مستقلّة، قبل أن تندمج مع النخب المحلية في الفترة التي سبقت مباشرةً الغزو الفرنسي للمنطقة. وأشهر الزعماء الجهاديين في غرب إفريقيا، هو عثمان دان فوديو (1754–1817)، الذي كان عالم دين من أُسرة اشتُهرت بوفرة العلماء والدارسين في مملكة غوبير الهوسية المستقلّة. فبعد أن هاجم دان فوديو الملك لمزجه بين الشعائر الإسلامية والطقوس الوثنية، اتبع السيناريو المحمدي الكلاسيكي بأن هاجر إلى ما وراء حدود المملكة، قبل أن يعود ويشنّ جهاداً ضد



الملك وغيره من حكّام الهوسا باسم إسلام طاهر مطهَّر. وقد حملت دعوته في ثناياها شحنة قوية من العدالة الاجتماعية على النسق الكلاسيكي المأثور عن النبي محمد، كما جمعت ما بين الهجوم العقائدي على الوثنية والتنديد الاجتماعي بالضرائب غير المشروعة ومصادرة الممتلكات وفرض التجنيد الإجباري واسترقاق المسلمين. ويحلول عام 1808، كانت الحركة قد أطاحت بمعظم ملوك الهوسا. وفي غضون العقدين التاليين، اتسع نطاقها لتشمل الشطر الأكبر من شمال نيجيريا وشمال الكاميرون. في عام 1817، اعتزل دان فوديو العمل في الشأن العام كي يتفرّغ للقراءة والكتابة والتأمل، تاركاً أمر تسيير دولته لابنه محمد بلو، الذي صار سلطاناً على سوكوتو، أقوى الإمارات الإسلامية على الإطلاق في ما أصبحت أخيراً مستعمرة نيجيريا البريطانية.

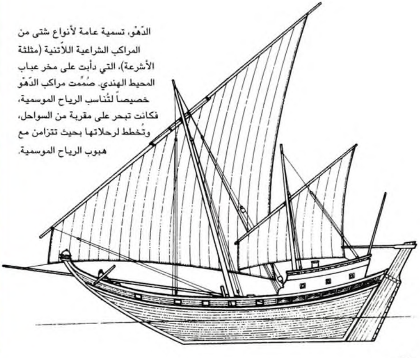


المحيط الهندي إلى العام 1499

قبل مجيء الإسلام، كان المحيط الهندي جزءاً من شبكة متداخلة ومتراكبة من طُرق التجارة المحلية والإقليمية والدولية تمتد من الصين وجنوب شرقي آسيا إلى شرق إفريقيا والبحر المتوسط.

كان ثمة دليل للتجّار والبحّارة وُضع باللغة اليونانية في القرن الأول الميلادي بعنوان: «مسالك الإبحار في بحر إريتريا»، يصف اثنين من طُرُق التجارة البحرية ينطلقان من موانىء على البحر الأحمر [بحر القلزم]، مثل: ميُوس، وهُورموس، ولوك كوميه، وبرنيكه. على هذين الخطين التجاريين العائدين إلى العالم الإغريقي – الروماني القديم، كانت تُنقل سلعٌ ومواد من قبيل الأقمشة والتوابل والعبيد إلى شركاء لهم في المناطق الساحلية في غرب المحيط الهندي. أحد هذين الطريقين كان يتجه نزولاً عبر البحر الأحمر إلى جنوب الجزيرة العربية، ماراً بموزا (المُخا) وديوسكوريدس (سُقطرى)، نحو شمال شرقي إفريقيا (أدوليس وأويونه في بلاد أقشوم بالحبشة)، ثم يُحاذي ساحل شرق إفريقيا مروراً بمونوثياس القريبة من جزيرة بمبا إلى أن يبلغ منتهاه في رابطا (التي لم يُكتشف موقعها بعد، وإنْ كان يُظن أنها باغامويو على ساحل تنزانيا الحالية). أما الطريق الثاني، فكان ينحرف نحو السواحل الشمالية الغربية للهند ليصل





الدّهْو، تسمية عامة لأنواع شتى من المراكب الشراعية اللاّتنية (مثلثة الأشرعة)، التي دأبت على مخر عباب المحيط الهندي. صُمّمت مراكب الدّهْو خصيصاً لتُناسب الرياح الموسمية، فكانت تبحر على مقربة من السواحل، وتُخطط لرحلاتها بحيث تتزامن مع هبوب الرياح الموسمية.

إلى باريغازا (برواش) ثم يتجه جنوباً نحو موزيريس كراغانور وكومار (رأس قُمرين).

كانت تحكم حركة تنقّل البشر والبضائع دورة الرياح الموسمية المؤكّدة في المحيط الهندي. تدوم الرياح الشمالية الشرقية المعتدلة، أو الرياح الموسمية الشتوية، قُرابة نصف السنة (من شهر تشرين الأول/نوفمبر إلى آذار/مارس). قبل عصر الملاحة بقوة المحركات، كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية هذه تسمح لمراكب «الدهْو» ذات الأشرعة الضخمة المثلثة الشكل (الأشرعة اللاّتنية)، العربية والفارسية والهندية، بالإبحار من عدن إلى كوتشين مثلاً وقد نشرت أشرعتها على نحو يضع المركب أدنى ما يُمكن في اتجاه الريح. فكانت تتاجر وتتسوّق على



امتداد ساحل مالبار الهندي في عكس اتجاه الريح، قبل أن تعود أدراجها وقد انتفخت أشرعتها عن آخرها. أما الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تحمل معها الأمطار إلى غرب الهند، وتولّد طقساً عاصفاً، فكان من المستحسن تجنّبها قدر الإمكان.

في القرن السابع، كانت العوالم التجارية التي جاء الدليل اليوناني، «مسالك الإبحار...»، على وصفها قد اندثرت منذ أمد بعيد، ووقعت المرافىء وطُرُق التجارة في غرب المحيط الهندي في حمأة التنافس المحتدم بين الأمبراطوريتين البيزنطية والساسانية (الفارسية).

أمير سلجوقي متربع على عرشه. بحكم وجود السلاجقة عند نهاية الطرف الغربي من «طريق الحرير»، فقد أُتيح لسلاطينهم أن يذوقوا طعم الترف ويتنعموا بالكماليات من قبيل أجود أنواع الحرير الصيني والمجوهرات من آسيا الوسطى. مخطوط من القرن الثالث عشر.



فقد ساند البيزنطيون الغارات الحبشية على جنوب الجزيرة العربية انطلاقاً من موانىء على البحر الأحمر، فيما ضمن الفُرس سيطرتهم على الخليج (البحرين) والساحل الجنوبي للجزيرة العربية (من عدن إلى صُحار إلى دابا). وما بين هاتين الأمبراطوريتين، كانت هناك قُريش، التي ستكون من أوائل المتعاطين بالتجارة البرّية من المسلمين في ملاذها بمكّة.

ابتعد المسار المبكر للفتوحات الإسلامية والتوسُّع الإسلامي عن المحيط الهندي واتجه أكثر نحو البحر المتوسط (بحر الروم). غير أن السلالات الحاكمة الإسلامية المتعاقبة بذلت جُهدها للفوز بالهيمنة السياسية والاقتصادية على المحيط الهندي. وكان استيلاء الأمويين على ديبول في بلاد السند عام 712، الخطوة الأولى في هذا السبيل. وفيما بعد، عندما أنشأ العبّاسيون عاصمتهم بغداد عام 762 على نهر دجلة وصار لها بواسطة مجراه منفذ إلى الخليج عبر البصرة، اكتسبت التجارة البحرية الإسلامية زخماً مضاعفاً، وكذلك عمليات الاستيطان من سواحل شرق إفريقيا إلى جنوب الصين. ومشاهدات البحّارة التي جُمعت في كتاب «أخبار السند والهند» (حوالى 850)، تُعطينا لمحة عمّا كانت عليه رحلة تجارية بحرية نموذجية ذهاباً وإياباً من سيراف (جنوبي شيراز) إلى كانتون في الصين أيام العبّاسيين. ولنا شاهد حيّ على مجريات النشاط البحري آنذاك في الجنوب الغربي للمحيط الهندي، الممتد من الجزيرة العربية إلى شرق إفريقيا، في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي (ت 928).

في عام 969، استولى الفاطميون على مصر وأسّسوا مدينة القاهرة، فشكّلوا بذلك تحدّياً سياسياً وتجارياً خطيراً للعباسيين. نجح الفاطميون في تحويل وجهة التجارة في غرب المحيط الهندي من بغداد والخليج إلى الفسطاط والبحر الأحمر. وقد صان من خَلَف الفاطميين، الأيوبيون أولاً ثم المماليك، الأهمية التجارية لمصر وحافظوا على الطريق التجاري الممتد من البحر الأحمر إلى غرب المحيط الهندي، هذا وتسوق لنا مجموعة «الجنيزة» القاهرية أدلّة بيّنة تُظهر مدى تعقُّد شبكة التجّار المتخذين من الفسطاط قاعدة لهم، التي تصل شمال إفريقيا بالهند عبر المحيط الهندي، في الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر.

وقد استُكملت السيطرة السياسية والاقتصادية للسلالات الإسلامية الحاكمة في الشرق الأوسط على الطُّرُق التجارية في المحيط الهندي بتنامي الجاليات المسلمة وتكاثر المحطات التجارية وحتى قيام الدويلات المستقلّة هنا وهناك على امتداد المناطق الساحلية. وثمة العديد منها تملك تواريخ معقدة ومتشعبة ما زالت بحاجة إلى درسٍ وتمحيص. فساحل إفريقيا الشرقي بشعوبه الناطقة بالسواحلية، كانت له أواصر متعدّدة ومتنوّعة بالجزيرة العربية والخليج والهند. فالمساجد والمقابر الإسلامية في شانغا تعود زمنياً إلى النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، وهناك شواهد على وجود أُسر حاكمة إسلامية محلّية وإمساكها جيداً بالمستوطنات المسلمة على جُزر بمبا وزنجبار ومافيا وكلوة في الفترة 1000–1650. والعديد من هذه المجتمعات كانت مزدهرة حين زار المنطقة الرحّالة ابن بطوطة في العام 1331 من طريق مقديشو.

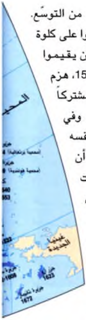
كذلك يُعدّ ابن بطوطة مصدراً ثرّاً للمعلومات بشأن وجود المسلمين على امتداد ساحل الصين الجنوبي، وصولاً إلى قوانزو (زيتون) التي وصلها عام 1347. في قوانزو توجد جبّانة ومسجد (يعود تاريخه إلى العام 1009 تقريباً)، يدلاّن على وجود جالية مسلمة في ذلك المرفأ التجاري. كما يُستدل على تواريخ الجاليات المسلمة في جنوب شرقي آسيا من بيانات التجارة عبر المحيطات. في القرن الخامس عشر، كان المركز التجاري في ملقا على ساحل الملايو قد برز كأهمّ محطة بحرية في شبكة التجارة الإسلامية الضخمة في المحيط الهندي، حتى إنه بزّ المراكز التجارية الأخرى في جاوه وسومطرة. كان عدد المسلمين في ملقا كبيراً جداً، وكانت لهم علاقات وارتباطات قوية بالتجّار والمرافىء في غرب الهند مثل كامباي (قوجارات). ومن سخرية الأقدار أن ابن ماجد، البحّار الذي كان له الفضل الأكبر في إرشاد فاسكو داغاما عبر المحيط الهندي عام 1498، قدّم لنا وصفاً غير مستحب لملقا هذه. سقط المرفأ في أيدي البرتغاليين عام 1511، وبذلك أرست أول قوة بحرية أوروبية دعائم وجودها المستتبّ في المحيط الهندي.

المحيط الهندي 1500 - 1900

الحصن القائم عند مدخل المرفأ في مدينة مسقط، بناه في الأصل البرتغاليون خلال القرن السادس عشر في نفس الموقع لحصن أقدم عهداً. استطاعت حامية الحصن البرتغالية أن تصمد في وجه هجمات العثمانيين، لكنها اضطرت إلى الاستسلام للإمام العُماني سلطان بن سيف عام 1650.



كانت رحلة فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح عام 1498 حدثاً فاتحاً لعصر جديد؛ حدثاً مدوياً وضع نهاية لاحتكار المسلمين التجارة في المحيط الهندي، وفتح الباب على مصراعيه لدخول الأمبراطوريتين البريطانية والهولندية إلى جنوب آسيا وجُزر الهند الشرقية. وقد استُهلت حقبة الاستعمار الأوروبي بإنشاء التجّار المغامرين محطات تجارية لهم في البحار الجنوبية، ومنها انطلقوا إلى مزيد من التوسّع. كان البرتغاليون في الطليعة، فاستولوا على كلوة واستباحوا مومباسا عام 1505، قبل أن يقيموا قواعد لهم في زنجبار وبمبا. في العام 1509، هزم البرتغاليون أسطولاً مصرياً – هندياً مشتركاً لاحتلال غوا على ساحل مالبار الهندي. وفي عام 1515، استولوا على ملقا، وفي العام نفسه انتزعوا هُرمز المطلّة على الخليج. غير أن الهيمنة البرتغالية ما لبثت أن انحسرت لصالح هيمنة الهولنديين، الذي سبق وأن حاول البرتغاليون استبعادهم من تجارة الفلفل والتوابل المربحة. تغلّب الهولنديون على البرتغاليين في أمبوينا عام 1605، وهكذا انتزعوا منهم باندا عام 1621، وسيلان (سرانديب، أو سري لانكا حالياً) عام 1640، وملقا عام







المحيط الهندي، حوالى 1650

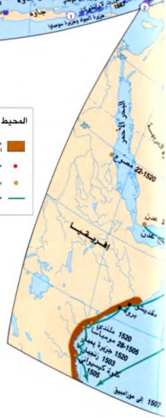
- ممتلكات هولندية
- ممتلكات برتغالية
- ممتلكات إسبانية
- ممتلكات بريطانية
- ممتلكات دنمركية
- مصنع

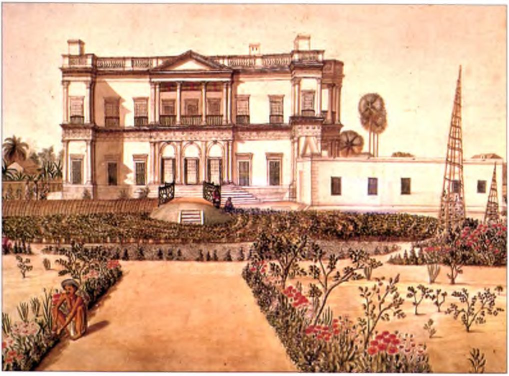
1641. وقبل ذلك في العام 1619، تأسّست باتافيا (جاكارتا الحالية)، لتُصبح منذ ذلك الحين فصاعداً عاصمة جُزر الهند الشرقية.

ولئن اتسم التدخل البرتغالي بالتدرّج البطيء، إلاّ أنه تمخّض عن تحوّلات وتغيّرات في أنماط التجارة السائدة، وكذلك في الاقتصاد السياسي للدول الإسلامية في المنطقة. ففي نهاية القرن السابع عشر، كانت إنجلترا وهولندا، البلدان الصغيران القابعان عند الطرف الغربي للقارّة الأوراسية، قد صارتا (سويةً مع فرنسا) القوى المهيمنة على مقدرات التجارة العالمية. فاختفت التجارة التقليدية بالسلع الكمالية لتحل محلها حمولات السفن من المواد الخام كالأخشاب والحبوب والأسماك والملح. وهذا التحوّل في طبيعة الحمولات أذن حتى بحدوث انقلاب أبعد أثراً انقسم العالم بموجبه إلى مستعمرات تنتج المواد الأولية، ومراكز صناعية وتجارية تنتج سلعاً وخدمات ذات قيمة عالية. وإذا ما نظرنا إليها من منظور القرن

المحيط الهندي، حوالى 1580

- ممتلكات برتغالية وتاريخ الامتلاك
- مصنع برتغالي
- بلدة برتغالية
- طرق تجارة برتغالية



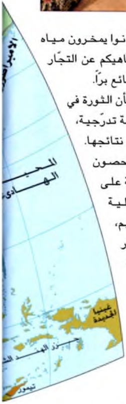


عندما أخذ البريطانيون يرسّخون أقدامهم في الهند، شرعوا باستحضار طُرزهم المعمارية الخاصة، كما تُرينا هذه اللوحة بالألوان المائية لإحدى الدور المشيّدة في شابرا عام 1796.

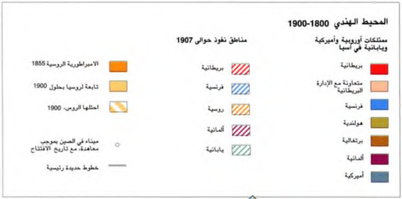
الحادي والعشرين، نستطيع القول إن رحلة فاسكو دا غاما تُمثّل عمليةً بلغت ذروتها في «العولمة».

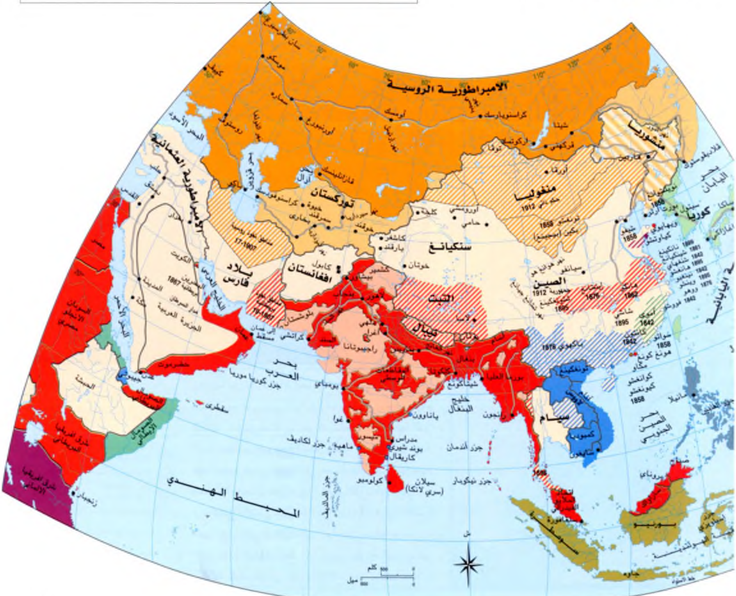
ثمة عاملان تقنيان دفعا بقوة كل تلك التحوّلات، وهما: أشرعة أفضل وملح البارود. إن وجود البرتغاليين على الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي قد حدا بهم إلى تطوير مراكب بحرية متينة بما يكفي للصمود في وجه الأنواء الأطلسية العاتية، والإبحار على مسافة أدنى من مهب الرياح من مراكب الدّهْو العربية ذات الأشرعة اللاّتنية. كانت السفن البرتغالية أضخم بدناً وأكثر ثباتاً من مثيلاتها العربية أو الفارسية، وهكذا تسنّى لها أن تنقل حمولات أكبر وتُبحر لمسافات أطول بعد. وقد جنّب المرور بالطريق الجديد الذي يدور حول جنوب إفريقيا قاصداً جُزر الهند، المرور بالمسالك التجارية المعهودة في غرب آسيا. فكانت البضائع تُنقل من جنوب آسيا وجُزر الهند، بما فيها التوابل والأقمشة والسلع النفيسة، إلى ليشبونة رأساً. وهذا ما عاد بالثراء على التجّار البرتغاليين، نظراً لتقليصه عدد المستفيدين المباشرين من التبادل التجاري بين أوروبا وآسيا؛ ومن هؤلاء تجّار البندقية وجنوى ممّن كانوا يمخرون مياه المتوسط الشرقية جيئة وذهاباً، ناهيكم عن التجّار المسلمين الذين كانوا ينقلون البضائع برّاً.

أما ثورة البارود فكانت، شأن الثورة في تقنيات الملاحة الشراعية، عملية تدرّجية، وكانت مثلها بعيدة الأثر من حيث نتائجها. فمع تطوير المدافع، لم تعد الحصون الحجرية منيعة كفاية أو عصيّة على السقوط. وهذا ما أعطى الأفضلية العسكرية للقوى الحسنة التنظيم، القادرة على تحمّل أعباء الاستثمار المُكلف في مضمار المدفعية والأسلحة النارية. ومع استمرار التقدّم في مجال التكنولوجيا العسكرية، طرأ تحوّل على ميزان القوى بين الطبقات المحاربة التقليدية، التي ترتدي البراعة الحربية عندها رداء التلاحم القبلي والشرف والسمعة



والبسالة (ألا وهي المناقب الكلاسيكية القديمة المأثورة عن الغُزاة والفاتحين من البدو)، وبين القوى الاقتصادية ذات المراكز الإدارية المعقّدة القمينة بمسايرة واقتناء أحدث التقنيات العسكرية. وتحت الضغط الأوروبي هذا، تكتّلت الدول الإسلامية المتشرذمة التي جاءت في أعقاب الخلافة العربية والغزوات المغولية، ضمن وحدات أكبر تهيمن عليها «أمبراطوريات البارود» الكبرى الثلاث، وهي: أوراسيا العثمانية، وإيران الشيعية، والهند المغولية.





صعود العثمانيين حتى 1650



لا جدال في أن الأمبراطورية العثمانية كانت الأوسع نطاقاً والأبعد نفوذاً من بين سائر الدول الإسلامية جميعاً. فقد بدأت توسّعها المذهل كإمارة حدودية تشن غارات على الأراضي البيزنطية من بثينيا بالقرب من بحر مرمرة في وقت مبكر من القرن الثالث عشر. في العام 1242–1243، أنزل المغول الهزيمة بالسلاجقة، وجعلوا منهم مقطعين تابعين لهم، وهذا ما دفع بأعداد متزايدة من البدو الأتراك إلى آسيا الصغرى بحثاً عن الكلأ والغنيمة. وأدّى انهيار الدولة السلجوقية إلى نشوء عدة دويلات تحت سلطان المغول الفضفاض،

حدثت الطفرة الكبرى في التوسّع العثماني إبّان حكم السلطان سليمان الأول، الملقب بـ«العظيم». اللوحة أدناه تصوّر الأسطول البحري العثماني يُهاجم مدينة طولون الفرنسية عام 1545.



ومنها دويلة الأتراك العثمانيين، الذين انقلبوا بعد استيلائهم على بورسة واتخاذها عاصمةً لهم في العام 1326، لاعبين أساسيين في المشاحنات الطائفية التي ألمّت بالأمبراطورية البيزنطية في آخر أيامها. فبمثابتهم قوات أجنبية في خدمة الأطراف البيزنطية المختلفة، اجتاز العثمانيون المضائق بادىء ذي بدء واحتلوا أراضي بيزنطة في أوروبا. وهكذا احتلوا اليونان، ومقدونيا، وبلغاريا، وأخيراً بسطوا سيطرتهم على غرب البلقان بعد أن كسروا شوكة الصرب في معركة كوسوفو في العام 1389. وقد فشلت حملات


توسُّع الامبراطورية العثمانية 1328-1672
أراضٍ عثمانية 1328
أراضٍ عثمانية 1355
أراضٍ تابعة للعثمانيين منذ 1394
أراضٍ عثمانية 1402 (قبل الغزو المغولي)
أراضٍ عثمانية 1481 (في ظل محمد الثاني)
أراضٍ تابعة للعثمانيين منذ 1475
أراضٍ عثمانية 1520 (في ظل سليم الأول)
أراضٍ تابعة للعثمانيين منذ 1541
أراضٍ عثمانية 1566 (في ظل سليمان الأول)
أراضٍ عثمانية 1660
أراضٍ عثمانية 1630-1672
أراضٍ تابعة للعثمانيين منذ 1664
الامبراطورية الرومانية المقدسة
بولاندا
بودوليا
خانات القرم
فرنسا
الاتحاد السويسري
مملكة سافوي
جمهورية البندقية
المجر 1541
ترانسلفانيا
مولدافيا
جديستان
والاشيا
البحر الأسود
دوبروجة
بلغاريا
صربيا
البوسنة والهرسك
بلاد الروملي
ألبانيا
المورة
البحر الأيوني
بحر إيجة
الدويلات البابوية
مملكة نابولي
سردينيا
إسبانيا
البحر التيراني
صقلية
مالطا
الساحل البربري
الجزائر 1518
تونس 1574
طرابلس 1551
برقة 1521
البحر المتوسط
مصر 1517
بلاد الشام 1516
الحجاز 1517
الصحراء الكبرى
طرابزون
كرمان
قونية
أنقرة
قرمسي
جرميان
آيدين
منتشه
تكه
قبرص
القسطنطينية 1453 (إسطنبول)
القاهرة
الإسكندرية
القدس
حلب
بنغازي
ورجلة 1566
جربة 1560
موهاكس 1526
كوسوفو 1389
ليبانتو 1571
فارنا 1444

متعاقبة قامت بها أحلاف شتى بين دول لاتينية وأرثوذكسية، ومنها نابولي، والبندقية، وترانسلفانيا، وصربيا، وجنوى، في صدّ التقدم العثماني داخل أوروبا. في عام 1453، سقطت القسطنطينية في أيدي قوات محمد الفاتح، مما ألهب التطلّعات الأمبراطورية لدى العثمانيين ووفّر لهم الأرضية لمزيد من التوسّع. في عام 1521، انتزع العثمانيون بلغراد من المجريين، وبحلول عام 1529، كانوا قد وصلوا إلى أبواب فيينا، عاصمة آل هابسبورغ. ولدى وفاة سليمان العظيم (سليمان القانوني)، كان العثمانيون قد أحكموا قبضتهم على مساحة شاسعة من التراب الأوروبي تمتد من شبه جزيرة القرم إلى جنوب اليونان.

لكن انتصارات العثمانيين كانت أشدّ دوياً بعد في ديار الإسلام منها في أوروبا. فبعد أن هزموا الصفويين في كالديران عام 1514، عمدوا إلى ضم شرق الأناضول وشمال بلاد الرافدين، مما أتاح لهم التحكّم بطُرُق التجارة في آسيا الوسطى ما بين تبريز وبورسة. في العام 1516–1517، تمت للعثمانيين الغلبة على الدولة المملوكية في سورية ومصر، الأمر الذي منحهم مفاتيح السيطرة على الأماكن المقدسة في الحجاز. وبتطويرهم الفنون الملاحية اليونانية التي اكتسبوها من أسلافهم الروم، تنطّح العثمانيون لمقارعة قوة البندقية في شرق المتوسط وتحدّي سلطان إسبانيا الهابسبورغية في غرب المتوسط، واستولوا تباعاً على الجزائر (1529)، وتونس (1534–1535)، وجربة (1560)، وجزيرة مالطا الاستراتيجية، آخر معقل للصليبيين (1565)، فضلاً عن جزيرة قبرص (1570). هذه السلسلة من الانتصارات البحرية، أثارت في آخر الأمر هجوماً مضاداً ناجحاً. وبالفعل، استُقبلت هزيمة العثمانيين البحرية في معركة ليبانت عام 1571 بحفاوة بوصفها نصراً مؤزراً للعالم المسيحي. هذا ولئن أعاد العثمانيون تجديد أسطولهم البحري وانتزعوا تونس مجدداً عام 1574، إلاّ أن توازناً في القوى ساد المتوسط، ارتسمت معه الحدود التي بقيت تفصل الأراضي الإسلامية في الجنوب عن الأراضي المسيحية في الشمال.

ووجه المفارقة هنا أن السلطنة العثمانية في بواكير أيامها كانت إسلامية من الوجهة النضالية، لكنها شديدة التأثر بالثقافة اليونانية. صحيح أنها خلفت السلاجقة، إلا أنها كانت كذلك وريثة الأعراف والبُنى العائدة إلى الأمبراطورية الرومانية – البيزنطية التي حلّت محلها. وبحكم امتدادها بين البلقان المسيحي والتخوم الغربية لدار الإسلام، فقد عملت الدولة العثمانية كجسر بين حضارات متنافسة. ونظراً لقُربها من القسطنطينية، التي طالما كانت هدفاً للفتح الإسلامي، اجتذبت السلطنة التي تحكمها أُسرة «العثمنلي» العديد من الغُزيّ (مفردها غازي، وهم المحاربون الصلحاء) الساعين إلى المجد السماوي في جهاد النصارى. هؤلاء الوافدون والرعويون الأتراك اتصفوا بالتحامل على القرى والبلدات المسيحية في الأناضول، وربما يكون بعضها قد لجأ إلى الدخول في الدين الإسلامي تحاشياً للاضطهاد. غير أنه كان من بين الوافدين أيضاً دراويش وأعضاء من الطُرُق الصوفية من آسيا الداخلية، مثل حاجّي بكطاش (ت 1297)، الذي كان يُنادي بصيغة خاصة به من الإسلام تميل إلى مزج المعتقدات الإسلامية، السنّية والشيعية كلتيهما، بالمعتقدات والممارسات المسيحية، مما سهّل على الشعوب الناطقة باليونانية والأرمنية عملية الدخول في الدين الإسلامي. وقد دعم الولاة العثمانيون هذه العملية بإبعادهم الأساقفة والمطارنة عن أبرشياتهم، الأمر الذي ترك المسيحيين بلا قادة عملياً، وكذلك باستبدالهم المؤسسات الأرثوذكسية من مستشفيات ومدارس ومياتم وأديرة بمؤسسات أخرى إسلامية يقوم على تسييرها علماء عرب وفُرس. ولم ينقضِ القرن الخامس عشر إلاّ وكان أكثر من 90 بالمئة من سكّان الأناضول قد صاروا مسلمين، وإنْ بقيت ثمة أقليات لا بأس بها من النصارى واليهود في المدن. وإذا كان الفلاحون هم من تأسلم في الأغلب الأعمّ، فإن طبقة النبلاء والموظفين المدنيين العائدة إلى النظام الأمبراطوري القديم اندمجت في الجيوش والإدارات العثمانية، مما أضفى على الدولة طابعاً بيزنطياً مميّزاً. صحيح أن قدراً من الاستقلال الديني كان مسموحاً به عبر تطبيق النظام الملّي، الذي تحكم الأقليات الدينية بموجبه نفسها بنفسها، إلاّ أن الأمبراطورية العثمانية كانت على درجة فائقة من المركزية. وفي المناطق الإسلامية الأخرى (بما فيها بعض الولايات والسناجق



العربية التي كانت خاضعة لأشكال أقلّ إحكاماً من السيادة العثمانية)، كان تطبيق الإسلام على صعيدي القانون والمجتمع تطبيقاً ذاتياً في واقع الأمر. كان الولاة يُعيِّنون القُضاة، لكنهم في معظم مناحي الحياة الأخرى، كانوا يدعون المؤسسات والمرافق الدينية تنمو وتزدهر على نحو مستقل، ومنها المساجد والمدارس حيث يتم إعداد رجال الدين، وشبكات الزوايا والتكايا الصوفية، ونقابات الحرفيين التي غالباً ما كانت على صلة وثيقة بها. على أية حال، إن العثمانيين، وخلافاً لأنظمة الحكم الإسلامية الأخرى، كانوا يشرفون على المجتمعات التي يحكمونها ويضبطونها ويقولبونها. فإذا كان السلاطين خاضعين نظرياً للشريعة الإسلامية، غير أنهم كانوا يُردفون الشرائع السماوية بالفرمانات الهمايونية التي تتلاعب بمكانة وواجبات جميع الرعايا، بما في ذلك أحكام اللباس. لقد أخضعوا العلماء والزوايا الصوفية والنقابات الحرفية لسلطة الدولة بإملائهم التعيينات والتصنيفات والأُذونات إملاءً. كان المجتمع ينقسم إلى طبقتين: طبقة الحكّام وطبقة المحكومين، والفارق الرئيسي بينهما هو حق الحكّام في استغلال ثروات المحكومين عبر فرض المكوس والضرائب عليهم. نظرياً، كانت الأرض كلها مُلكاً شخصياً للسلطان (جفتلك). والنُّخب الحاكمة لم تكن محصورة فقط بالباشوات والبكوات والأعيان الذين يقبضون على مقاليد السلطنة في الولايات، بل كانت تضم كذلك عائلات يونانية أرستقراطية، وسلطات كنسية، ورجال مصارف بارزين من اليهود والأرمن، فضلاً عن أسر أميرية من البلقان.

قُصد من هذا الرسم الشخصي للسلطان سليمان، تقديمه إلى أنداده من ملوك أوروبا. إذ لم يعتد سلاطين بني عثمان أن يعرضوا رسومهم الشخصية على رعاياهم إلاّ في زمن متأخر من القرن التاسع عشر.

الأمبراطورية العثمانية 1650 - 1920



حين وصل النظام العثماني إلى أوجه في القرن السادس عشر، كان نظاماً فعّالاً وغاية في النجاعة. إنما كانت تشوبه كذلك نقطة ضعف كبرى، ألا وهي نظام الوراثة. في المجتمعات التي تغلب عليها البداوة، يكون لغياب نمط محدَّد للوراثة منطقه الدارويني



عبد الحميد الثاني هو السلطان العثماني الأخير الذي تسنّى له أن يُمارس سلطة فعلية على الأمبراطورية. كان ملكاً مستبداً وعدواً للحريات السياسية، إلاّ أنه شجّع مع ذلك الإصلاحات التعليمية والقضائية والاقتصادية.

الثابت: بعد صراعٍ بين الأنداد، يخرج زعيم يكون هو الأقدر والأصلح لقيادة القبيلة. لكن انتقال هذا المنطق إلى صُلب نظام أمبراطوري معناه احتراباً داخلياً. وهكذا بعد سلسلة من التنازعات الدامية بين الإخوة، حسم العثمانيون معضلة الوراثة لديهم بأن قيّدوا حركة أقرباء السلطان من الذكور وجعلوهم حبيسي أفنية القصر الداخلية أو أجنحة الحريم، وهذا ما كان يحول دون السلطان العتيد واكتسابه أية دراية حيوية بالشؤون العسكرية والمدنية. وهكذا، بدءاً بالقرن السابع عشر، كان السلاطين العثمانيون ممّن وصلوا إلى سدة السلطة عن طريق المناورات «البيزنطية» ومكائد الحريم، يفتقرون إلى الخبرة في الميدان العسكري، وعلى غير دراية كافية بحقائق السياسة. وقد تعطلت سلطة الدولة والجيش لفترة وجيزة بوجود


الامبراطورية العثمانية 1683-1914
أراضي خسرتها بحلول 1718
أراضي خسرتها بحلول 1812
أراضي خسرتها بحلول 1881
أراضي خسرتها بحلول 1914
السلطنة العثمانية عام 1914
تاريخ منح الحكم الذاتي
تاريخ فقدان الأرض
ألمانيا
فرنسا
النمسا
المجر
ترنسلفانيا 1699
بانات 1718
بودوليا 1699
خانات القرم 1774
البحر الأسود
بلغاريا
صربيا
بوسنة 1878
شرق الرومللي
بلاد الأناضول
اليونان 1830
بحر إيجة
البحر الأيوني
البحر التيراني
إيطاليا
اسبانيا
مالطا
الساحل البربري
الجزائر 1830
تونس 1881
البحر المتوسط
طرابلس
برقة
لصالح إيطاليا 1912
مصر 1811
بلاد الشام
الحجاز
الصحراء الكبرى
إفريقيا

وزراء انعدمت في قلوبهم الرحمة، أمثال محمد كوبرولو (ح 1656–1661)، وكان ابناً لرجل نصراني من ألبانيا، وابنه أحمد (ح 1661–1676)، مما أتاح التوسّع أكثر إلى الشمال من شبه جزيرة القرم، لا بل وضَرْبَ حصارٍ ثانٍ (بعد موت أحمد) على فيينا عام 1683. لكن تبيَّن أن سيرورة الانحطاط عملية لا رجعة فيها. فتدفّق الفضة الإسبانية من الأميركيتين خلق تضخّماً هائلاً ألحق الأذى بالطبقات ذات العلاقة بالتجارة، وكذلك بقدرة الحكومة على الصرف على الجنود الذين كان سلاحهم الحديث من بنادق وبارود يتطلّب مبالغ نقدية لا غنائم حرب. وهكذا كسب ولاة المقاطعات والإيالات المحلّيون سلطات على حساب المركز، فاكتروا جيوشاً خاصة لهم وضاعفوا الضرائب لجيوبهم. والإنكشارية الذين كانوا قد شكّلوا كياناً ينعم بالامتيازات داخل الدولة ذاتها، انغمسوا من جانبهم في إساءة التصرف ومحاباة الأقارب على نطاق واسع. وتنازلُ الحكومةِ عن الأراضي الذي كان من المفروض أن ينعش الزراعة، تحوّل إلى مزارع خراجية لاعتصار الضرائب ليس إلاّ، مما دفع بالمزارعين إلى التخلّي عن أراضيهم وتكوينهم عصابات من قُطاع الطرق الريفيين أو من المهجّرين إلى المدن المكتظة أصلاً بسكّانها والمعرّضة لتفشّي المجاعة والأوبئة واضطراب حبل الأمن. وجاء تطبيق النظام الملّي الذي يتيح للجاليتين المسيحية واليهودية (وللشيعة في العراق) درجة عالية من الاستقلال الإداري، ليقوّض شرعية الدولة من خلال منحه التّجار الغربيين امتيازات، وتشجيعه المسيحيين في اليونان والبلقان على التطلّع نحو أعداء السلطنة – روسيا وأوروبا الغربية – طلباً للمساندة والحماية.

وبانحلال مركزيتها على الصعيد الداخلي، أثبتت السلطنة العثمانية أنها ليست صنواً لدول أوروبا الصاعدة، التي كان نظامها العسكري والاقتصادي قد بدأ يجني الفوائد من الثورة في مضمار الفكر العلمي. وخلال العقدين الأخيرين من القرن السابع عشر، قطعت الدول الأوروبية أشواطاً بالغة الشأن على حساب الأمبراطورية العثمانية. فما بين عامَيْ 1684 و1687، انتزعت أسرة هابسبورغ معظم أراضي المجر الواقعة شمالي الدانوب وأتبعتها ببلاد الصرب عام 1689؛ واستولى البنادقة على الساحل الدالماسي وجنوب اليونان (المورة)؛ وغزت بولندا بودوليا؛ وتمكّن الروس بفضل جيشهم الذي جرى تحديثه مؤخراً في عهد بطرس الأكبر، من الاستيلاء على آزوف في شبه جزيرة القرم. ولئن استطاع العثمانيون استعادة بعضٍ من هذه الأراضي المفقودة خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، إلاّ أنهم كانوا عاجزين على المدى الأبعد عن إيقاف مدّ التقدم الروسي. في عام 1768، شرع الروس بحملة جديدة، فاحتلوا مولدافيا وولاّشيا (شمال رومانيا) والقرم. وبموجب الشروط المُهينة لمعاهدة «كوتشوك كيناركا» المبرمة عام 1774، أُجبر العثمانيون على منح روسيا موطىء قدم على البحر الأسود، والسماح لها بحرية الملاحة والتجارة فيه مع إمكانية الوصول إلى البحر المتوسط، فضلاً عن فتح أبواب التجارة البرّية أمامها في ولايات السلطنة جميعاً، الآسيوية منها والأوروبية. وفي حين ظلّت مولدافيا وولاّشيا تحت السلطة العثمانية من الناحية التقنية، إلاّ أنّ ما حازتاه من حكم ذاتي متزايد جعلهما عُرضة للتلاعب الروسي بهما. ولسوف يتحوّل بندٌ شرطي أُدخل تحت ضغط روسي يقضي ببناء كنيسة روسية في استنبول إلى حقٍ عام في أن تتدخل روسيا لصالح جميع رعايا السلطان من المسيحيين الأرثوذكس.

بيد أن تدفق الأفكار الذي جاء في أعقاب الانتصارات الأوروبية كان، في حقيقة الأمر، أشدّ وقعاً وإعصاراً من الهزائم الحربية. فاحتلال نابليون بونابرت القصير الأمد لمصر عام 1798، جاء ليبذر بذور الفكر العلمي والتحوّل الثوري في أغنى ولايات السلطنة، لكن أكثرها تعرّضاً للإهمال. لقد فتح نابليون بإنزاله الهزيمة في أمراء المماليك الجُدد، الذين يحكمون مصر تحت جناح السلطنة العثمانية، الطريق أمام تغلغل الأفكار الغربية في ظل أُسرة حاكمة تأخذ بأسباب التحديث وطرائق العصرنة، هي أُسرة محمد علي (ح 1805–1848)، الضابط الألباني الذي استولى على السلطة عام 1805، جاعلاً من نفسه حاكماً مستقلاً في كل شيء إلاّ بالاسم. والمطامع الاستعمارية لفرنسا بعد عودة الملكية إليها، أفضى إلى خسارة العثمانيين الجزائر اعتباراً من عام 1830، وإنشاء محمية في تونس عام 1881. ورياح النزعة القومية التي عصفت بأوروبا غب الثورة الفرنسية، وصلت إلى الجاليات المسيحية في البلقان، بدءاً بثورة

الصرب (1804–1813)، فحرب الاستقلال اليونانية (1821–1829)، وبلغت ذروتها في معاهدة سان ستيفانو لعام 1878، التي أُجبر العثمانيون بمقتضاها على منح الاستقلال لبلغاريا وصربيا ورومانيا والجبل الأسود. ولم يتأجل الفصل الأخير من تقطيع أوصال السلطنة إلاّ بسبب التنافس بين القوى الأوروبية، وقيام بريطانيا وفرنسا بمساندة «رجل أوروبا المريض» ضد روسيا في القرم (1854–1856)، فيما راحت النمسا تتنافس وروسيا على البلقان. في عام 1911، غزت إيطاليا ولايتي طرابلس وبرقة، مُكرهة العثمانيين على التنازل عنهما لها. وفي عام 1912، انتزعت القوى البلقانية مجتمعةً، وهي صربيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود، ما تبقى من أراض عثمانية في أوروبا، باستثناء قطاع من الأرض حول استنبول، وذلك قبل أن يدبّ الخلاف بينها. وفي شهر آب/أغسطس 1914، انفجر النزاع بين الدول الأوروبية على البلقان في صورة حرب كونية، اصطفت فيها السلطنة العثمانية إلى جانب النمسا وألمانيا في وجه بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا. وجاءت هزيمة دول المحور في العام 1918، وخلع السلطان عام 1922، وإلغاء الخلافة الإسلامية عام 1924، ناهيكم عن تبادل السكّان بين تركيا واليونان في العام 1921، لتسدل ستار النهاية على الأمبراطورية العثمانية.

قصر «ضولمة بهجة» في إستنبول. إن واجهة هذا القصر المبني على الطراز البندقي الكلاسيكي، شأن باقي القصور التي شُيِّدت للسلاطين العثمانيين في القرن التاسع عشر، لتنمّ عن حدوث تحوّل كبير في التوجّه الثقافي، إذ راحوا يتخلّون عن نزعتهم السابقة إلى العُزلة ويُجاهرون بما يملكون من جاه وسطوة على غرار ملوك أوروبا.



إيران 1500 - 2000

بدأ تاريخ إيران الجديد مع السلالة الصفوية (1501–1722)، التي اتخذت من المذهب الشيعي الاثني عشري ديناً للدولة. ومؤسّس الأسرة الصفوية هو الشيخ صفي الدين (1252–1334) الذي كان شيخاً صوفياً ومجدِّداً للولاء السنّي، وقد استهلّ حركة من الإصلاحات بين القبائل شرق الأناضول وشمال غربي إيران. أما خَلَفُهُ الشاه إسماعيل (1487–1524)، فقد أحيا الآمال الأخروية الشعبية في فترة الفوضى التي سادت عقب انهيار الدولة التيمورية بأن أعلن نفسه «الإمام المستور»، أو المخلّص المنتظر لدى الشيعة. أتاحت هذه الحركة، وفي مقدمتها عُصبة مُرعبة من المحاربين يُعرفون بـ«القزلباشي»، أي أصحاب الرؤوس الصهباء (نسبةً إلى العمامة الحمراء التي كانوا يعتمرونها)، أتاحت للشاه إسماعيل، الذي كان أعلن نفسه ملكاً في تبريز عام 1501، بأن يُخضع لأمره مُعظم الأراضي الإيرانية في غضون العقد التالي.



الشاه سليمان وبعض خاصّته، فضلاً عن ضيوف غربيين، يظهرون هنا على خلفية منظر طبيعي من النمط الأوروبي الشاعري. كان الحكّام الصفويون يُصدِّرون السجاد والحرير إلى أوروبا، وكذلك الآنية الخزفية من تصميم حرفيين صينيين إلى أسواق الغرب. لقد أقلعوا عن إبداء ذلك العداء الديني المعهود حيال تصوير الأشخاص بالزعم أن الإمام عليّ، الذي يبجّله الشيعة، كان هو نفسه رسّاماً وخطاطاً أيضاً.

بالرغم من أن سلطان الدولة الصفوية من عاصمتها الجديدة الرائعة أصفهان التي بناها الشاه عباس الأول (1588–1629)، لم يكن مطلقاً لاعتمادها في ممارسته على شبكة من «الأويماق» (شيوخ القبائل الصغار)، وعلى نظام الإقطاع التقليدي في الزراعة الخراجية، فإن استراتيجية الاندماج الديني التي اعتمدها الصفويون منحت إيران طابعها الشيعي المميّز الذي ما برحت تحتفظ به إلى يومنا هذا. ما إن أدى القزلباشي المهمّة المنوطة بهم حتى خفَت نبرة التشديد على مزاعم إسماعيل «المهدوية»، واستُقدم فقهاء شيعة من سورية والعراق والبحرين والإحساء لإعلاء شأن الصيغة «الرسمية» من الشيعة الاثني عشرية، ومؤداها أن عودة الإمام المهدي المنتظر مؤجّلة إلى أجل غير مسمى. فقُمع المذهب السنّي، ودُنّست أضرحة الأولياء الصوفيين، وأُفردت الخانقانات لاستعمال الشباب الشيعة. كذلك تعرّض اليهود والزرادشتيون لعمليات «أسلمة» قسرية. وجرى ثني الناس عن الحجّ إلى مكّة والاستعاضة عنه بـ«زيارة» مزارات الأئمة الشيعة التي تُغدق عليها الأموال بلا حساب. وفي القرن الثامن عشر، وإثر تفكك الدولة الصفوية، مرّت إيران بفترة من الاضطرابات كان فيها العثمانيون والروس يسيطرون على الشمال، وزعماء القبائل الأفغان والأفشار والزند والقاجار يتنافسون على السلطة في الجنوب. ولئن قام نادر شاه، الزعيم القبلي الأفشاري الذي أعلن نفسه شاهاً عام 1736، بكبح جماح العلماء الشيعة، إلا أن القلاقل التي عمّت القرن التاسع عشر سمحت لأولئك العلماء بحيازة قدر أكبر من الاستقلال المؤسساتي بالمقارنة مع نظرائهم السُّنّة.

وفي عهد السلالة القاجارية (1779–1925)، تعزّزت قُدرات العلماء الشيعة بفضل الزكاة والخُمس التي كانت تُدفع إليهم مباشرةً، في حين منحتهم رعايتهم للمزارات والأوقاف عائدات إضافية من إيجار الأراضي والمساكن. إن وجود اثنين من أهمّ المزارات في كربلاء والنجف بالعراق الخاضع للسيطرة العثمانية، وفّر لهم قاعدة لممارسة السلطة خارج نطاق الدولة. فشعائر الحِداد التي تحيي ذكرى استشهاد الإمام الحسين في كربلاء ومجالس العزاء المقترنة بها، أضحت معالم مُميِّزة للتديُّن الشعبي، وجعلت من العقيدة الشيعية مكوِّناً أساسياً من مكوّنات الهوية القومية الإيرانية.

ولمّا بدأت الضغوط تشتد على إيران من جانب روسيا وبريطانيا في القرن التاسع عشر، سارع العلماء إلى تصدّر الصفوف في المقاومة الوطنية. ففي العام 1873، أجبر العلماء الشاه على إلغاء امتيازات اقتصادية ومالية بعيدة الأثر كان قد منحها لمواطن بريطاني يُدعى البارون دو رويتر؛ وفي تسعينيات القرن التاسع عشر، قادوا حركة إضراب عمّت البلاد بأسرها ضد منح بريطاني آخر، هو الميجور تالبوت، حق احتكار التبغ. والزخم السياسي المتولّد عن إضراب التبغ بلغ ذروته في الثورة الدستورية لعام 1906، حين أجبر تحالفٌ من العلماء الليبراليين والتجّار وأفراد من الشريحة المثقفة المتغرّبة الشاه على الدعوة لعقد جمعية وطنية والقبول بشكلٍ من أشكال الحكم

البرلماني. تلت ذلك فترة وجيزة من الحكم الدستوري، برزت خلالها إلى السطح حالةٌ من التوتر بين العلماء المحافظين والعلماء الليبراليين، ولم تنتهِ إلاّ على أيدي الروس عام 1911 حين تدخلوا لإعادة حُكم الشاه الأوتوقراطي ثانيةً.

في عام 1925، وصل إلى السلطة ضابط من كتيبة فرسان القوزاق، هو رضا خان بهلوي، وذلك بعد فترة من عدم الاستقرار أعقبت الثورة الروسية. أقام رضا شاه نظام حُكم يتميَّز بنزعته التحديثية الجذرية، وقد سعى ذلك النظام إلى تحطيم سلطة زعماء القبائل والحدّ من استقلالية رجال الدين عن طريق إدخال التعليم المدني العلماني وفرض إشراف الدولة على المدارس الدينية. كذلك أُقيمت المحاكم المدنية التي جرّدت العلماء من احتكارهم للشؤون القضائية، بما في ذلك معاملات تسجيل وانتقال ملكية الأراضي التي كانت تدرّ عليهم أموالاً طائلة. وخلال الحرب العالمية الثانية، احتاجت بريطانيا وروسيا إلى حكومة إيرانية طيّعة لتسهيل أمر وصول الإمدادات الحربية إلى الجبهة الشرقية، فأجبرتا رضا شاه على التنحّي ونصّبتا مكانه ابنه الشاب محمد رضا بهلوي.

وبعد الحرب العالمية الثانية، صار النفط، الذي اكتُشف لأول مرة في العام 1908، وتمّ تأجيره للبريطانيين بموجب الامتيازات السخية الممنوحة لهم، محل نزاع وتنافس حين حاول رئيس وزراء إيران الوطني، محمد مصدّق، تأميم شركة النفط الإنجليزية – الإيرانية. وفي خضم الأزمة الناجمة عن مقاطعة شركات النفط الغربية للبترول الإيراني، تدخلت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي آي إيه) لمساعدة الجيش في إعادة أُسرة بهلوي إلى سدة الحُكم الأوتوقراطي من جديد.

كان انهيار نظام حكم الشاه في العام 1979 وقيام الثورة الإسلامية بُعيد ذلك، حصيلة مجموعة مركّبة ومعقّدة من العوامل الاقتصادية والثقافية والسياسية. فبدلاً من أن يعود برنامج الإصلاح الزراعي الطموح الذي نفّذه الشاه في ستينيات القرن العشرين بالفائدة على صغار الفلاحين ممّن يستأجرون الأرض أو ممن لا يملكون أية أرض بالمرة، جاء مُحابياً للشركات الكُبرى ومشاريع الأعمال في قطاع الزراعة التي كان للعائلة المالكة مصالح أكيدة فيها. زد على ذلك أن البرنامج المذكور عمل على تنفير رجال الدين، والعديد منهم كانوا هم أنفسهم ملاّك أراضٍ أثرياء أو قيّمين على مساحات شاسعة من أراضي الوقف. والارتفاع المفاجىء في أسعار النفط بعد عام 1973، ضاعف من ثروة القطاع الاقتصادي العصري الصغير، إنما أثّر سلباً على قطاع الأعمال الصغيرة المتركّزة في مجتمع «البازار»، الوثيق الصلة برجال الدين. كذلك، فإن فساد أُسرة بهلوي والقمع الوحشي الذي كان يُمارسه البوليس السرّي (السافاك)، أسهما في تعميق اغتراب الطبقة الوسطى المتعلّمة، ولا سيما جيل الطلاّب الشباب المتأثرين بالماركسية أو بالنسخة اليسارية من الأيديولوجيا الإسلامية كما كان يروّج لها الدكتور علي شريعتي، وجلال علي أحمد صاحب الكرّاس بالغ التأثير الذي يحمل عنوان: «التسميم الغربي». لقد شكّل النازحون من الريف إلى المُدن مادة لثورة سريعة الالتهاب.

بمقتضى صفقة توصل إليها الشاه مع صدّام حسين، طرد العراق رجل الدين المنشقّ آية الله روح الله الخُميني من الحوزة الشيعية في النجف، حيث كان يدعو في دروسه إلى إحياء الحكم الإسلامي تحت إشراف العلماء، فتلقى محاضراته آذاناً صاغية من رجال الدين والطلاب على حد سواء. ومن منفاه في إحدى ضواحي باريس، وجد الخميني منفذاً إلى وسائل الإعلام العالمية، فيما كانت الأشرطة المسجّلة بصوته لفتاويه وخطبه المندِّدة بالشاه تُهَرَّب إلى داخل إيران. في مستهل عام 1979، وقعت سلسلة من المظاهرات الحاشدة تزامنت مع إحياء ذكرى عاشوراء، اضطُر معها الشاه إلى مغادرة البلاد إلى المنفى، فعاد عندئذ الخُميني إلى دياره ليُستقبل استقبالاً صاخباً. ولمدة عشر سنوات، أي إلى حين وفاته عام 1989، حكم الخُميني الجمهورية الإسلامية بوصفه المرشد الديني الأعلى. وإذا كان آية الله الخامنئي، خَلَف الخُميني كأعلى سلطة دينية في البلاد، يفتقر إلى الجاذبية الزعامية التي كان يتمتع بها سَلَفه، فإن الحق المخوّل إلى «مجمّع تشخيص مصلحة النظام» الذي يسيطر عليه في فحص واختيار المرشحين لعضوية البرلمان، قد أعاق إلى حد بعيد قُدرة هذا الأخير على إدخال إصلاحات تعتبرها المؤسّسة الدينية مُناقضة لمصالحها.

آسيا الوسطى إلى العام 1700

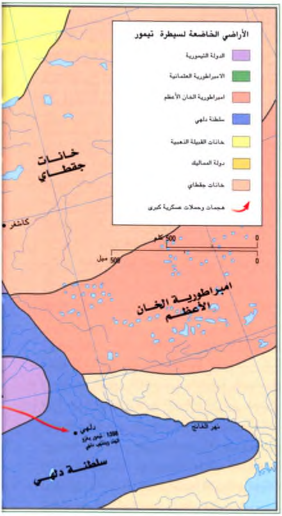


مسجد الشاه [مسجد الإمام حالياً] في أصفهان بإيران، وقد حملت مئذنته اسمي «الله» و«محمد» بأحرف هندسية بارزة. كان بناء المسجد في الفترة 1612–1630، وتُلخّص زخرفته الرائعة بالقيشاني الأزرق في حد ذاتها أسلوب الشاه عباس والأُبهة التي كان عليها.

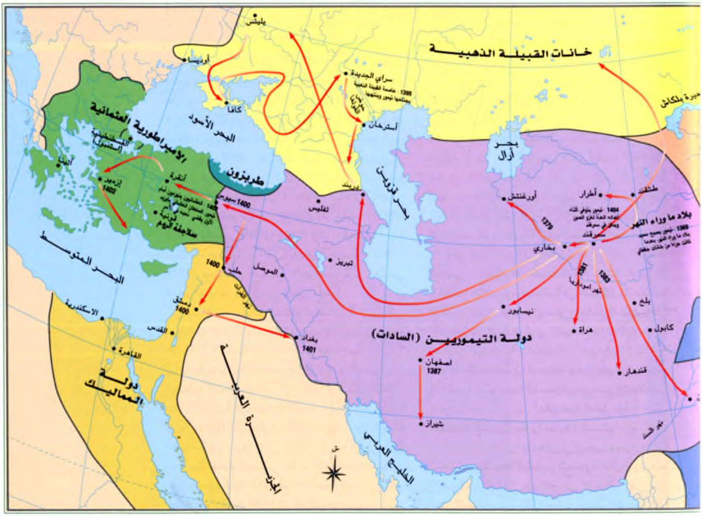
على غرار تاريخ الهلال الخصيب حيث ظهر الإسلام، حكمت تاريخ آسيا الداخلية العلاقة ما بين الأقوام الرعوية البدوية والأقوام الحضرية المستقرّة. في تلك السهوب الرحبة شبه القاحلة، الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود وبحر قزوين، عاشت شعوب تعتمد في معاشها بالدرجة الأولى على الأبقار والخيل والماعز والغنم والإبل والياك. كانت تلك الشعوب منظّمة في جماعات قرابية أبوية أساسها الحوامل والأفخاذ والبطون والعشائر وما ينجم عن اتحادها من قبائل، كتلك التي انضوت أكبرها تحت لواء جنكيزخان وخلفائه. فبقيادة ابن جنكيزخان، باتو (ح 1227–1255)، اتخذت «القبيلة الذهبية»، المشكّلة من أقوام مغولية – تركية عُرفت بالتتار في روسيا، قاعدةً لها من سرايتين (مفردها سراي، وتعني مقر البلاط) على نهر الفولغا، ومن هناك فتحت أوكرانيا وجنوب بولندا والمجر وبلغاريا وروسيا، حيث أقامت أمبراطورية مترامية الأطراف كان فيها الحاكم في موسكو بمثابة دافع الجزية الرئيسي. دخلت الأسر التترية البارزة في الإسلام منذ منتصف القرن الثالث عشر بعد اتصالها بالشعوب المستقرّة في إيران وخوارزم وبلاد ما وراء النهر. والإسلام الذي حمله التجّار والدراويش الصوفيون المتنقلون على طريق الحرير إلى مناطق آسيا الداخلية ، اكتسب هناك طابعاً غيبياً وتعدّدياً بفعل احتكاكه بالزرادشتية والبوذية والمسيحية النسطورية والديانات الشامانية الأقدم عهداً.

كان لدخول ترمارشيرين في الإسلام، وهو الذي حكم مدة ثماني سنوات (1326–1334) بلاد ما وراء النهر التي كان أورثها جنكيزخان لابنه جقطاي، عاقبةٌ تمثلت بانشقاق أصاب عشيرته. وقد عرف تيمورلنك، وهو فرد حاز على احترام عشيرة التركمان الفقيرة، كيف يستثمر هذا الانشقاق بذكاء. بالرغم من أنه وُلد أعرج، فقد كان تيمور (أو تيمورلنك كما يُعرف في الغرب) استراتيجياً سياسياً ألمعياً وقائداً عسكرياً فذاً طوال فترة حكمه (1370–1405). فبتوحيده بلاد ما وراء النهر وإيران (التي كانت محكومة فيما سلف من قبل الإيلخانيين، أحفاد هولاكو)، أعاد تيمورلنك السلطة التركية – المغولية إلى آسيا الوسطى، خالقاً بذلك أمبراطورية سوف تمتد في أوجها من غرب الهند (بما في ذلك دلهي) إلى سواحل البحر الأسود. وقد طبقت شهرته الآفاق في أوروبا عندما هزم العثمانيين في أنقرة عام 1402، حيث أسر السلطان بايزيد الأول (ح 1389–1402). وهذا الخلل الذي اعتور قوة العثمانيين في الأناضول خفّف من الضغط على القسطنطينية، التي ستنجو لمدة نصف قرن آخر، وأعاد فتح طريق التجارة إلى الصين. في حين ساعدت الهزيمة التي أنزلها تيمورلنك بالقبيلة الذهبية في صعود نجم روسيا المسيحية.

في عهد تيمورلنك وخَلَفه أولغ بك (ح 1404–



1449)، وتحت حُكم الشيبانيين الأوزبك (1500 – ن 1700) الذين ورثوا سلطة التيموريين في آسيا الداخلية، تحوّلت مدن هراة وسمرقند وبُخارى إلى حواضر من الطبقة العالمية. فقد ازدانت تلك المدن بالغنائم وبأروع ما أبدعه الحرفيون والفنانون الذين استقدمهم تيمورلنك وخلفاؤه من بلاد فارس والهند والعراق وسورية. لكن تيمورلنك، وبالرغم مما عُرف عنه من قسوة ووحشية فائقة (حتى إنه أمر قبل استسلام دلهي له بالإجهاز على آلاف الأسرى الذكور كي لا يتسنّى لهم الالتحاق بأعدائه)، لم يكن بذاك الهمجيّ الجاهل البتة. فقد كان يجيد الفارسية، ويحيط نفسه بكوكبة من ألمع العلماء والدارسين والفنانين والمؤرّخين والشعراء في عصره؛ واضعاً المواصفات للثقافة العالية الإسلامية، تلك الثقافة الممتازة التي سيقلّدها من جاء بعده وإنْ بمزيد من الصقل والإتقان. كما عُرف عنه تسامحه وسعة صدره في الأمور الدينية. صحيح أنه كان مسلماً سنّياً قام بفتوحاته باسم الشريعة وبذريعة أن أعداءه زنادقة ومرتدون عن الإسلام، غير أنه حمى الشيعة من كل أذى. كما كان مشايخ الصوفية يُسدونه النصائح الروحية. وفي تلك الفترة بالذات، خرجت إلى حيز الوجود الطريقة الصوفية النقشبندية، التي سُميت كذلك نسبةً إلى بهاء الدين النقشبندي المتوفى عام 1389، والمدفون بالقرب من مدينة بُخارى، لتضرب من ثم جذورها عميقاً في عموم آسيا الداخلية.

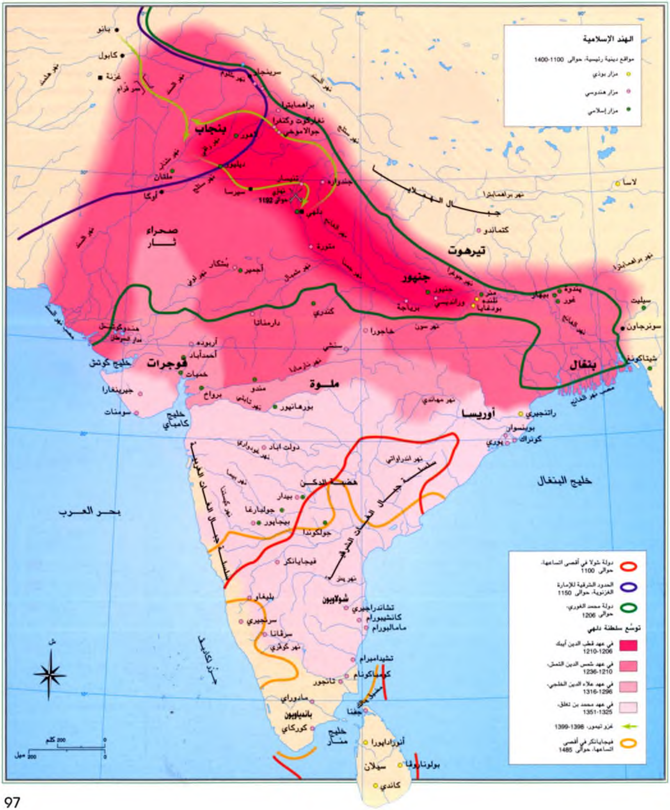


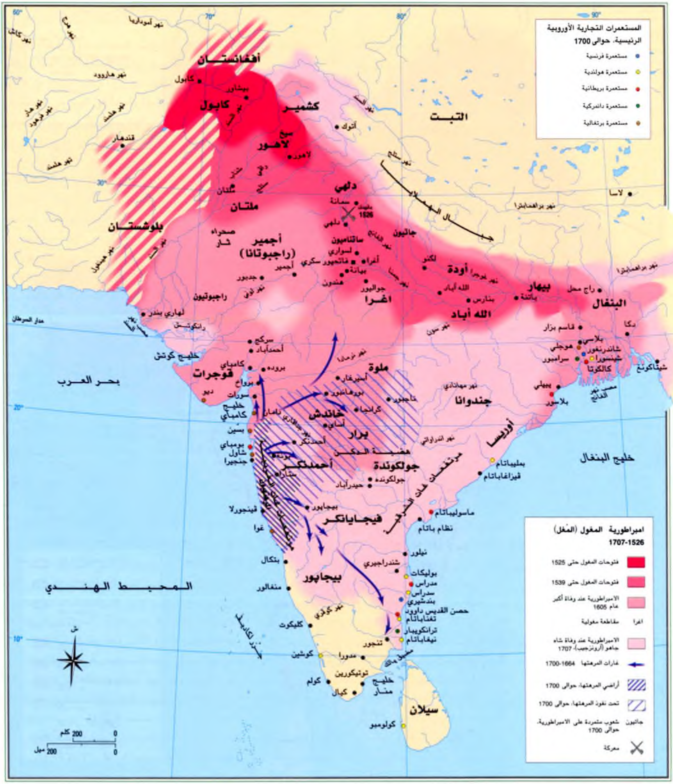
الهند 711 - 1971

ظهر الإسلام أول ما ظهر في شبه القارة الهندية مع فتح العرب لبلاد السند في الفترة 711–713. وفي القرن العاشر، تمكّن الدُعاة الفاطميون الآتون من القاهرة من إقناع أمراء محليين في مُلتان باعتناق المذهب الإسماعيلي. غير أن هؤلاء استُبدلوا بولاة من السُنّة عيّنهم الغوريون في أعقاب اكتساح البُنجاب من قبل محمود الغزنوي الذي انتهب لاهور وعاث في شمال الهند خراباً ودماراً في العام 1030. بدأت عملية الاستيلاء المنتظم على شبه القارة الهندية مع الغوريين الذين احتلوا مُلتان ولاهور ودلهي في الفترة 1175–1192، قبل أن يعمد أحد قوّادهم، قطب الدين آيبك، إلى تأسيس أول سلطنة من عدة سلطنات مستقلة في دلهي. وقد دامت هذه السلطنات من عام 1206 إلى عام 1526 في ظل سلسلة متعاقبة من مختلف السلالات الحاكمة. أسهمت سلطنات دلهي في إرساء الطابع المميّز للإسلام الهندي، وهو إرث تعهّدته بالرعاية أمبراطورية المغول التيموريين التي تأسّست على يد حفيد تيمورلنك، بابر، عام 1526. وقد امتد الزمن بهذه الأخيرة ما ينوف على ثلاثة قرون، إلى أن حلّها الإنجليز عقب «التمرد» أو العصيان الكبير الذي اندلع عام 1858. اشتملت أمبراطورية المغول (أو المَغل) في الهند على عدد من السلالات الحاكمة الإسلامية المستقلّة التي قامت في البنغال (1356–1576)، وكشمير (1346–1589)، وقوجارات (1407–1572)، والدكن (1347–1601). وكان أقصى اتساع لهذه الأمبراطورية في عهد أورانجزيب (ح 1658–1707)، حيث كان اسم هذا الأمبراطور يتردد من على منابر المساجد من كابول وحتى ميسور.

البعض من أوائل الحكّام المسلمين كان يتلظّى حماسةً ضد «عبدة الأوثان» ومهووساً بتحطيم التماثيل الدينية، فدمّر المعابد الهندوسية، مستبدلاً إيّاها بمساجد بالغة الضخامة يُراد منها أن ترمز إلى السيطرة الإسلامية. غير أن سلالة آل تغلق (1320–1413) استهلّت نمطاً من التسامح ساهم في إرساء رؤية تعدّدية للإسلام في الهند تختلف عن الأنماط الأشد صرامة وتزمتاً التي عرفتها الأزمنة الأولى. فلكي يحدّ من النفوذ السياسي للأسر الإسلامية المستتبة، عمد مؤسّس السلالة الحاكمة التغلقية، السلطان محمد تغلق (ح 1325–1351) إلى توظيف أُناس من غير المسلمين في المناصب العسكرية والإدارية، وشارك شخصياً في المهرجانات والاحتفالات المحلّية، كما سمح بتشييد المعابد. وإذا كانت هناك فترة أولى تميّزت بهجرة إسلامية واسعة إلى الهند من أفغانستان وآسيا الوسطى عقب الفتوحات، إلاّ أن دخول السكّان المحليين في الإسلام كان بطيئاً ومحدوداً نوعاً ما. فمن المشكوك فيه أن يكون أكثر من 20–25 بالمئة من سكّان الهند تحوّلوا إلى الإسلام، مع تركّز تجمعات المسلمين في وادي السند ومنطقة الحدود الشمالية الغربية والبنغال. وفي حين كانت الطبقات الحاكمة من أحفاد المحاربين القادمين من أفغانستان وإيران وآسيا الداخلية، كان المسلمون في مُعظمهم من الطبقات الهندوسية الدُنيا أو من الفئات القبلية والريفية التي شهدت حياتها تحسّناً بانضمامها إلى طائفة الحكّام الدينية. هذا وقد انعكس التنوّع الخصب في العقائد والعبادات والتقاليد الإسلامية بين المسلمين الهنود، سُنّة وشيعة ومتصوّفة، بعدد وافر من الأشكال المختلفة. فالطابع التعدّدي للإسلام الهندي انعكس في التراث المعماريّ المهيب حيث امتزجت «الموتيفات» البلدية، الإسلامية والهندوسية، معاً في توليفة جديدة خلاّقة. وحتى الأدب التقوي الإسلامي، بما فيه الشعر، كُنت تجده في عددٍ كبير من اللّغات الهندية، بالإضافة إلى العربية والفارسية، وهما اللغتان اللتان كانت تُدرّسان في معاهد التعليم العالي إلى جانب علوم الشريعة وعلم العقائد والتصوّف.

وفي حين غلب على الطبقات الحاكمة النمط المديني من الحياة الإسلامية، الذي لا يختلف كثيراً عن الثقافة الكوزموبوليتانية في المناطق الإسلامية الأخرى كإيران وآسيا الوسطى، احتفظ المسلمون في الأرياف بتراثٍ بلدي قوي، كثيراً ما كانت تختلط فيه الطقوس الهندوسية بالمعتقدات والعبادات الإسلامية. وقد اضطلعت الطُرُق الصوفية ومشايخها بدور بالغ الأهمية على وجه الخصوص في نشر الإسلام في جنوب آسيا. ومن بين أعظم هذه الطُرُق شأناً، نذكر: الطريقة السُهروردية والطريقة الششتية. وإذا كانت هاتان الطريقتان تتّبعان في تنظيمهما تراتبية تتماشى وطبيعة المجتمع الهندي، إلا أن أدوارهما الاجتماعية لم تكن متماثلة على الإطلاق. ففي حين أبقى السُهرورديون على صلات وثيقة لهم بسلاطين


الهند الإسلامية
مواقع دينية رئيسية، حوالى 1100-1400
مزار بوذي
مزار هندوسي
مزار إسلامي
دولة شولا في أقصى اتساعها، حوالى 1100
الحدود الشرقية للإمارة الغزنوية، حوالى 1150
دولة محمد الغوري، حوالى 1206
توسُّع سلطنة دلهي
في عهد قطب الدين أيبك 1206-1210
في عهد شمس الدين التمش، 1210-1236
في عهد علاء الدين الخلجي، 1296-1316
في عهد محمد بن تغلق، 1325-1351
غزو تيمور، 1398-1399
فيجاياناكر في أقصى اتساعها، حوالى 1485
بانو
كابول
غزنة
بنجاب
لاهور
ملتان
ديبالبور
سرينجار
براهمابترا
جوالاموخي
تنيسار
سيرسا
دلهي
متورة
أجمير
صحراء ثار
كتماندو
تيرهوت
جنبور
بنغال
ساتكاون
سوترجاون
سليت
لاسا
جبال الهملايا
كجرات
خليج كوتش
سومنات
جيرنغارا
خليج كامباي
ملوة
بورهانبور
أوريسا
كونراك
بوري
خليج البنغال
بحر العرب
هضبة الدكن
بيدار
جولبارغا
بيجابور
جولكوندا
فيجايانكر
شولاويون
تشيدامبرام
تانجور
مادوراي
بانديايون
خليج منار
جفنا
أنورادابورا
سيلان
كاندي
بولونارووا
ش
200 كلم
200 ميل



المستعمرات التجارية الأوروبية الرئيسية، حوالى 1700
مستعمرة فرنسية
مستعمرة هولندية
مستعمرة بريطانية
مستعمرة دانمركية
مستعمرة برتغالية
امبراطورية المغول (المُغل) 1707-1526
فتوحات المغول حتى 1525
فتوحات المغول حتى 1539
الامبراطورية عند وفاة أكبر عام 1605
اغرا مقاطعة مغولية
الامبراطورية عند وفاة شاه جاهو (أورنزجيب)، 1707
غارات المرهتها 1700-1664
أراضي المرهتها، حوالى 1700
تحت نفوذ المرهتها، حوالى 1700
جاتيون شعوب متمردة على الامبراطورية، حوالى 1700
معركة
أفغانستان
كابول
كشمير
لاهور
التبت
بلوشستان
ملتان
دلهي
أجمير (راجبوتانا)
اغرا
أودة
بيهار
الله أباد
البنغال
جندوانا
قوجرات
ملوة
خاندش
برار
أحمدنكر
جولكوندة
أوريسا
فيجايانكر
بيجابور
سيلان
بحر العرب
المحيط الهندي
خليج البنغال
خليج كوتش
لاسا
كابول
بيشاور
قندهار
لاهور
ملتان
دلهي
سمانة
بانيبت 1526
ساتناميون
جاتيون
أغرا
بنارس
الله أباد
باتنة
راج محل
قاسم بزار
دكا
شيتاكونغ
كالكوتا
سرامبور
هوجلي
شاندرنغور
بلاسي
شينسورا
بيبلي
بلاسور
سورات
بروده
أحمدآباد
كامباي
بروتش
ديو
بسين
بومباي
شاول
جنجيرا
بونة
أحمدنكر
ستارا
بيجابور
حيدرآباد
جولكونده
ماسوليباتام
بمليباتام
فيزاغاباتام
نظام باتام
غوا
فينجورلا
بتكال
منغالور
كليكوت
كوشين
كولم
كيال
توتيكورين
مدورا
تنجور
ترانكويبار
نيغاباتام
حصن القديس داوود
بندشيري
مدراس
بوليكات
نيلور
شندراجيري
كولومبو
خليج منار
مرتفعات غات الشرقية
مرتفعات غات الغربية
هضبة الدكن
جبال الهيمالايا
مدار السرطان
200 كلم
200 ميل

دلهي، منتفعين هكذا بالهبات والأوقاف التي كان تمنح زعماءهم مكانة الوجهاء والأعيان المحلّيين، شدّد الشِّشتيون من جهتهم على رفض كل أشكال الأُعطيات أو الخدمات الحكومية، مفضّلين كسب قوتهم من زرع الأرض اليباب ومن تصدّق الأشياع عليهم.

استخدم مشايخ الصوفية، الذين كانت لهم اليد الطولى في كسب مهتدين جُددٍ إلى الإسلام من بين أفراد القبائل او المهمّشين، أو من الطبقات الاجتماعية الهندوسية الدُّنيا، اللغات المحلّية، ومن ضمنها اللغة الـطـقـوسـيـة، لإيصال رسـالـة الإسـلام إلى أوساط اجتماعية ودينية تختلف تمام الاختلاف عن البيئة التي ظهر فيها الإسلام. على المستوى الشعبي، لا يهمّ كثيراً إن قدّم «الولي» نفسه كمسلم أو كمقدّس لشيفا. فـمـا كـان يـحـدو الـنـاس إلى إبداء التعلّق الشديد بـه (بختي)، هو هالة القداسة التي تكتنفه. على المستوى الفكري، يُمكن العثور على المبرّرات الفلسفية للتقارب الديني بين الإسلام و«الهندوسية» (وهي، في الواقع، تسمية اخترعها الأوروبيون في القرن التاسع عشر)، في كتابات المتصوّف الأندلسي الكبير ابن عربي، الذي تـنـسـجـم عـقـيـدتـه في «وحدة الوجود» مـع الـتـعـالـيـم الروحية المنبثّة في الـ«فيدا» والـ«أوبنيشادا». وقد بلغ التناغم الديني الإسلامي – الهندوسي قمته إبّان حُكم أكبر الأول (1556–1605)، الذي كان من أتباع الطريقة الششتية، ومن منشئي «الدين الإلهي»، وهو بدعة دينية ملوكية يحتلّ أكبر مركز القلب فيها، جامعاً في شخصه بين دور المعلّم الصوفي ودور الملك الفيلسوف.

غير أنه جاء وقت صارت فيه هذه الممارسات، التي ينظر إليها العلماء على أنها توفيقية أو وثنية، هدفاً لـلـهجوم من جانب حركات إصلاحية تستلهم تـعـالـيـم أكثر تشدّداً وسلفيةً منشؤها مراكز الإسلام لـنـاحـيـة الـغـرب. وقد تزعّم هذا الاتجاه الشيخ أحمد سيرهـنـدي (1564–1624)، ومـشـايـعـه شـاه وليّ الـلـه (1702–1763). واتـخـذت ردّة الـفـعـل هـذه شـكـلـهـا العمومي بدايةً مع حفيد أكبر الأول، أورانجزيب، الذي أبطل سياسة الوفاق مع الهندوس. بل إنه فرض الجزية عـلـى رعـايـاه مـن غير المسلمين، وأمر بـهـدم المعابد الهندوسية، وأنشأ معاهد إسلامية لتدريس الشريعة، كما حظر الموسيقى في القصر. وقد ساعدت التيارات الإصلاحية على حفظ هوية إسلامية متميّزة طوال قرن من الانحطاط المغولي، حين أضحت بريطانيا القوة المهيمنة في الهند. فالإصلاحيون، على طريقة شاه وليّ الـلـه، شجّعوا المسلمين على تجنّب التعاون مع السلطة أو الاختلاط الاجتماعي مع غير المسلمين. وبينما استمرت الممارسات التقوية الصوفية، ومن بينها التردّد على مزارات الأولياء والصالحين وإقامة المهرجانات الشعبية الزاهية، تجتذب إليها الفقراء، أحرزت التيارات الإصلاحية تقدماً في أوساط المهنيين المتعلمين وطبقتهم الصاعدة. فرأينا حركة ديوباند الإصلاحية، التي تأسست عام 1867، تستخدم التقنية الجديدة لـلـطـبـاعـة بـالـلـغـة الأُردية، وشبكة السكك الحديدية وهي برعمٌ بعد، للوصول إلى جمهور إسلامي غفير في طول شبه القارة الهندية وعرضها، معمّقة



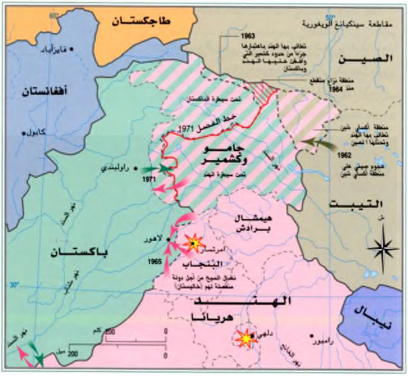


بذلك التمايز الاجتماعي للجاليات الإسلامية. كتب العالِم الديوباندي البارز مولانا أشرف علي الثنوي يقول: «إن استحسان تقاليد الكفّار وإعلاء شأنها إثمٌ كبير».

وقد شجّع البريطانيون هذا التوجّه المحبِّذ للانفصال بين المسلمين، وحرصوا على توكيد أهمية الروابط الدينية وأولويتها على الانتماءات العائلية والنَّسَبية واللغوية والطوائفية والمناطقية، أو حتى الطبقية، بين شتّى مكوِّنات المجتمع الهندي الشديد التنوّع. وقد نصّ قانون المجالس الهندية لعام 1909 على وجود جمهورين للناخبين على المستوى المحلّي، واحد هندوسي والآخر مسلم، مُرسِّخاً بذلك الهوية الانفصالية للمسلمين على الصعيدين القضائي والسياسي. ومن هنا، كانت نظرية «الأمتين» القائلة إن المسلمين والهندوس يشكّلون أمتين متمايزتين ومنفصلتين، خطوة صغيرة لكن حتمية. والمنطق عينه قضى بأن يكون لمسلمي الهند حقٌّ في وطنٍ خاص بهم. ولذلك قامت دولة باكستان، التي أُعلنت يوم



أُعطيت الهند استقلالها عام 1947، من تشكيلة متباينة ومتفاوتة من التجمّعات السكّانية المسلمة المتواجدة في السند، وبلوشستان، والمقاطعة الحدودية الشمالية الغربية، والنصف الغربي من البنجاب، وشطر من البنغال؛ وهذا الأخير منطقة إسلامية بالأساس، ويقع على بُعد ألف ميل أو أكثر إلى الشرق، وتفصله عن سائر المناطق الباكستانية أراضي الهند. في باكستان الغربية، أكثر من نصف سكّانها كانوا من أهالي البنجاب، وزهاء 20 بالمئة من أهالي السند، و13 بالمئة من البشتون، و3–4 بالمئة من البلوش، والبقية من «المهاجرين»، أي النازحين من الهند، دع عنك أقليتين صغيرتين، إحداهما هندوسية والأخرى مسيحية. وقد نجم عن تبادل السكّان الذي تلا التقسيم، حمّام دم مروّع قُتل فيه مئات الألوف في أعمال شغب طائفية وعرقية. وتسبّب النزاع العالق حول كشمير، التي اختار حاكمها الهندوسي الانضمام إلى الاتحاد الهندي خلافاً لرغبة السكّان المسلمين، في نشوب ثلاث حروب بين الهند وباكستان في الأعوام 1949 و 1965 و 1971، ناهيكم عن حلقة لا تنتهي من التمرد والقمع. هذا وقد تجلّت هشاشة باكستان السياسية في تناوب سلسلة متعاقبة من الحكومات العسكرية مع فترات من الحُكم الديمقراطي المتقلقل تتولّاه أحزاب متهمة بالفساد وفقدان الشرعية الإسلامية. وفي النهاية، تبيّن أن الجيش، الذي تَمسّك بزمامه طبقة من الضباط البُنجابين المدرّبين على أيدي البريطانيين، هو المؤسّسة الوحيدة القمينة بالحفاظ على وحدة البلاد. في عام 1971، وبمساعدة عسكرية من الهند، انفصلت باكستان الشرقية عن نظيرتها الغربية لتشكّل دولة بنغلاديش الإسلامية المستقلّة. والعلاقة القائمة على المناكفة والمشاكسة بين الهند وباكستان، وكلتيهما الآن دولتان نوويتان، ما برحت تنتظر التسوية والحلّ. إن تآكُل الثقافة العلمانية في الهند من جراء الانبعاث السياسي الهندوسي والرُّهاب الرسمي من الإسلام الذي تتسامح به من وقت لآخر بعض الولايات، وبالأخص ولاية قوجرات، قد جعل وضعية الأقلية المسلمة المتبقية في الهند – ويبلغ تعدادها زهاء 120 مليون نسمة، أي حوالى 10 بالمئة من مجموع السكّان – وضعية شديدة العطب أكثر من أي وقت مضى منذ التقسيم. إلى الآن، والوعي الشعبي الهندي لم يستوعب تماماً الإرث الثقيل للفتوحات الإسلامية. ومصداق كلامنا أن مسجداً في أيوديا، يُقال إن بابر بناه في موقع يعود إلى معبد إله الأبطال راما، وأقدم المتعصبون الهندوس على هدمه عام 1991، ما برح مثار تنازع وخصام شديدين بين الهندوس والمسلمين في الهند. وخلال الاضطرابات الطائفية التي أعقبت هدم المسجد، قُتل آلاف المسلمين. ثم عادت وتكرّرت القصة بصورة مأساوية عام 2003، عندما هاجم مسلمون في قوجرات حُجّاجاً هنوداً كانوا عائدين من أيوديا، مما تسبّب باندلاع نزاع طائفي واسع النطاق في المنطقة.







تاج محل في أغرا بالهند (اكتمل بناؤه عام 1653). يُعتبر تاج محل واحداً من أشهر الصروح المعمارية في العالم قاطبة، وهو بمثابة الرمز الخالد للحكم المغولي في الهند. بناه الأمبراطور شاه جهان تخليداً لذكرى زوجته ممتاز محل. وشاه جهان الذي خُلع عن العرش على يد ابنه أورنجزيب، مدفون فيه هو الآخر.

التوسّع الروسي في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى

إنّ التوسّع الروسي في بلاد ما وراء النهر والقوقاز، هذا الذي سيبلغ ذروته بإدماج ما يربو على خمسين مليون مسلم ضمن الاتحاد السوفييتي، إنما بدأ أول الأمر في القرن الخامس عشر حين تخلّص حكّام موسكو من نير



رسم يصوّر الإمام شامل الداغستاني (حوالى 1797–1871) ممتطياً صهوة جواده؛ من محفورة روسية تعود إلى العام 1850. خاض شامل غمار حرب بطولية ضد الروس ما بين عامي 1834 و 1859، مشمولاً برعاية حميه الروحي، شيخ الطريقة النقشبندية. صحيح أنه هُزم في نهاية المطاف ونُفي خارج بلاده، إلا أن ذكراه بقيت حيّة في داغستان والشيشان، تلهب العواطف وتثير سلسلة لا تنقطع من الثورات ضد روسيا وضد السوفييت حتى يومنا هذا.

التتار. ففي خمسينيات القرن السادس عشر، تأتّى لموسكو أن تستوعب دولتَيْ قازان وأستراخان الإسلاميتين المتمتعتين بالحُكم الذاتي، الأمر الذي منحها السيطرة على حوض الفولغا والسواحل الشمالية لبحر قزوين، وفتح أمامها السبيل إلى اكتساح السهوب الكازاخية. كان الكازاخيون قد خرجوا من اتحاد القبائل التركية – المغولية الذي أوجد الدولة التيمورية والدول اللاحقة، وبقي «القازاق» (أي الطوّافون بحرية) سادةً للسهوب. فأقام الروس سلسلة من الحصون ما بين نهري أورال وإرطيش. وهكذا تسنى لهم أن يُخضعوا المنطقة بكاملها للسيطرة الروسية؛ ومن أبرز معالم هذه العملية، إلغاء خانات الكازاخيين في عشرينيات القرن التاسع عشر، إلاّ أن المقاومة الكازاخية المدفوعة إسلامياً سوف تتواصل حتى العقد السادس من القرن عينه.

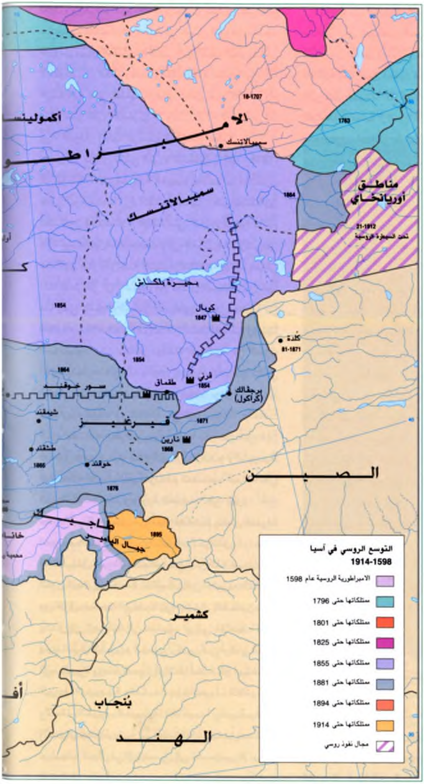
اتسم الحكم الروسي للسكّان المسلمين في مراحله الأولى بمنتهى القسوة والبطش. فقد تعرّضت طبقة الأشراف التترية للتنصير القسري، وطُردت من المدن المهمّة، وسُلِّمت أراضيها إلى النبلاء الروس والأديرة الروسية، الذين قاموا على استغلالها بواسطة الأقنان والرهبان الأرثوذكس. وقد جرى تلطيف هذه السياسة شيئاً ما في عهد الأمبراطورة كاترين الثانية (الكبيرة)، التي نظرت إلى الإسلام على أنه ذو أثر تمديني أكبر من المسيحية. فكُفلت للمسلمين حريتهم الدينية، وشُيِّدت المساجد برعاية الدولة، وأُنشئت المؤسسات التي تتمتع بسلطات واسعة على السكّان المسلمين. غير أن هذا الوضع ما كان ليدوم طويلاً. ففي شبه جزيرة القرم، التي انتزعتها روسيا من قبضة العثمانيين في العام 1783، وضع الروس أيديهم على أراضي التتار وصادروا الأوقاف لصالح المستوطنين الأوروبيين. وإلى مسافة أبعد شرقاً، سقطت الشعوب الرعوية بالأساس في آسيا الداخلية فريسة الأطماع الاستعمارية للجنرالات الروس ورغبة القياصرة في تأمين المصالح التجارية مع إيران والهند والصين، درءاً لأي تنافس بريطاني محتمل. احتلّت طشقند عام

1865، وسمرقند عام 1868، وأُجبرت بُخارى على فتح حدودها للتجّار الروس. وفي شمال القوقاز، أخمد الروس نيران المقاومة التي ألهبتها الطريقتان الصوفيتان النقشبندية والقادرية، فأطاحوا بالدولة الإسلامية التي أعلنها الإمام شامل عام 1859. ولم يبزغ فجر القرن العشرين إلاّ وكان الفتح القيصري لما وراء القوقاز وآسيا الوسطى قد اكتمل عملياً.

وبدلاً من أن تؤدي الثورة البلشفية (1917–1918) إلى تفكيك الأمبراطورية القيصرية، عملت بالأحرى على توطيدها وزيادة تماسكها. وآثر المثقفون المنادون بالإصلاح الإسلامي، الذين عُرفوا باسم «التجديديين»، الانضمام إلى الحزب الشيوعي في نضالهم ضد المؤسسة الدينية المحافظة، يحدوهم في ذلك الأمل في أن يتمكّنوا من تعديل السياسة الروسية بما يلبّي حاجات السكّان المسلمين، وبلورة صيغة من القومية الإسلامية من خلال التحالف مع روسيا السوفييتية. لكن ستالين ودُعاة المركزية في الحزب أحبطوا مسعاهم هذا بمناوراتهم ومكائدهم. فأُلقي القبض على الشخصية البارزة بينهم، وهو مير سعيد سلطان غالييف (م 1880)، في العام 1928 واختفت آثاره بعد ذلك بفترة وجيزة. مهما يكن من أمر، فإن الشعور بوجود قيم مشتركة بين الإسلام والشيوعية، كالعدالة الاجتماعية، وتقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وأولوية المجتمع على الفرد... الخ، حدت بهم إلى العمل من أجل قضيتهم ضمن صفوف الحزب باتباع أسلوب «التقيّة». لكن سرعان ما تمّ الانقضاض على الإسلام الرسمي إبّان الثلاثينيات من القرن العشرين عندما أطلق ستالين «ثورته الثانية» من فوق. فسُلّمت المساجد إلى «اتحاد الملحدين» كي يُصار إلى تحويلها إلى متاحف أو إلى مقاصف للهو، فيما طال التحريم الفعلي رُكنين من أركان الدين الإسلامي، وهما: الحجّ والزكاة. أما حظر استعمال الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية، ولاحقاً بالحروف السيريلية، فقد ضمنا صعوبة وصول الأجيال السوفييتية في المستقبل، قياساً بما كانت عليه الحال في الماضي، إلى نصوص الإسلام المتعارف عليها.

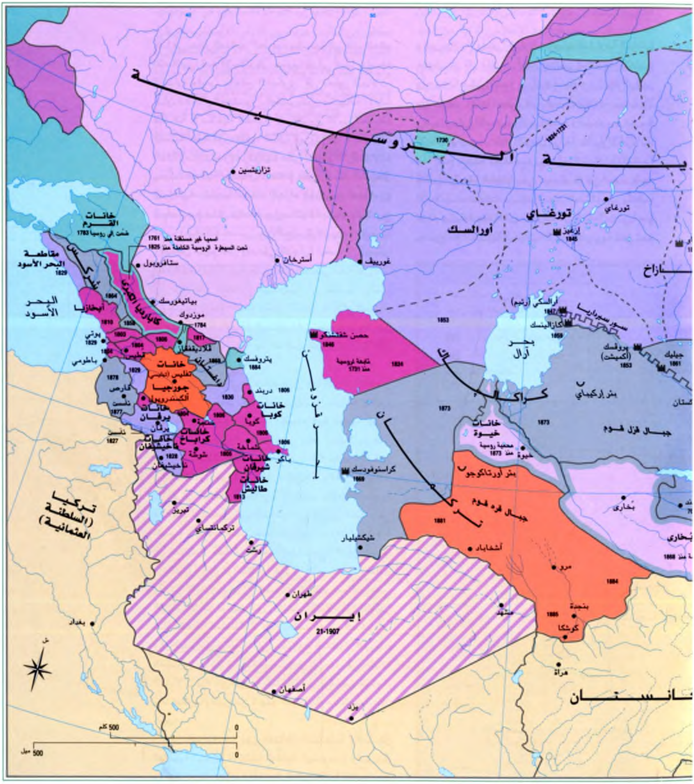
لقد جرى التصدّي لأية إمكانية بقيام تضامن سياسي بين المسلمين السوفييت باتباع سياسة «فرّق تسد» عن سابق تصوّر وتصميم. ودول آسيا الوسطى الحالية إنما تدين بحدودها الإقليمية لستالين؛ فقد ردّ على خطر القومية التركية الشاملة والقومية الإسلامية الجامعة بتقسيم أراضي تركستان الروسية إلى خمس جمهوريات هي: أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجكستان، وقُسِّم وادي فرغانة المزدهر، الواقع في قلب المنطقة والذي طالما شكّل وحدة اقتصادية واحدة، ما بين الأوزبك والطاجيك والقيرغيز. وقد استلزمت السياسة التي انتهجها ستالين أن يُصار إلى التشديد على الفوارق الطفيفة في اللغة والتاريخ والثقافة بين هذه الشعوب التوركية في غالبيتها، وذلك بغية الوفاء بالمعيار اللينيني للقومية الذي ينصّ على وجوب أن تكون هناك لغة واحدة، وأرض موحدة، وحياة اقتصادية وثقافية مشتركة. وعلاوة على الترتيبات الجديدة المتخذة في تقسيم الأراضي بين الجمهوريات، جاء تطبيق مبادىء الجماعية والزراعة الأُحادية ليقيّد حركتها إلى أبعد الحدود. فبمقتضى مخطط خروتشيف الخاص بالأراضي البكر، جرى تخصيص مساحات شاسعة من كازاخستان لإنتاج الحبوب. وحين قاوم الكازاخيون – وغالبيتهم من الرُعاة – هذا المشروع، جيء بالسلافيين وأقوام أخرى للقيام بالعمل. وفي أوزبكستان، أصبحت حصة القطن من إجمالي الناتج المحلي أكثر من 60 بالمئة، وهذا ما خدم مصالح النُخب الحزبية الحاكمة، التي صار بعضٌ من أفرادها ضالعين في عمليات احتيال ضخمة أساسها التزوير المتعمّد والمنتظم لأرقام الإنتاج. كما ترك ذلك ذيولاً بيئية وخيمة لأنه حرم المحاصيل غير القطنية من مياه الري، وجفّف الأنهار والبحيرات، بما فيها بحيرة آرال.

وبداعي الارتياب بولاء المسلمين خلال الحرب العالمية الثانية، لأن البعض منهم أبدى تعاوناً مع الألمان، قام ستالين بترحيل سكّان الشيشان وأنغوشيا عن بكرة أبيهم، ومعهم جميع التتار القاطنين في القرم، إلى آسيا الوسطى.



لا شك في أن منافع كثيرة نجمت عن التصنيع والقضاء التامَ على الأمّية. إلاّ أن تقهقر القوة السوفييتية بعد الجهاد الذي جُوبهت به في أفغانستان، تلازم لا محالة مع انبثاق للأفكار غير الشيوعية، من قبيل النزعات القومية المحلّية، والوحدة التركية الشاملة، وأشكال شتّى من الإسلام المناضل. لكن هذه الطفرة من النشاط الإسلامي في الفترة التالية لعام 1989، وبعد نصف قرنٍ من الكبت أو يزيد، ربما تُعزى جزئياً إلى التقاليد الصوفية الخفية. وحيث إن هذه التقاليد نشأت في آسيا الوسطى أساساً، فقد احتفظت بجذور لها هناك، وتمكّنت الطريقة النقشبندية بالأخص من البقاء حيّةً بالرغم من كل ما تعرّضت له من حملات اضطهاد وملاحقة، إذ إن طقوسها «الصامتة» أتاحت عقد الاجتماعات تحت مسميات أخرى. أضف إلى ذلك أن شبكات الأُسر القديمة، القائمة على عصبية المجموعات القرابية الممتدة، لم تندثر بل بالعكس ازدهرت من خلال الإمساك المُحكم بالمؤسسات الشيوعية. وفي الشيشان حيث خاضت روسيا حربين وحشيتين في الأعوام 1994–1996 و1999–2002، بهدف قطع دابر الحركات الاستقلالية المحلّية، أرى أن في بقاء الشبكات والولاءات الصوفية بعد سبعة عقود من الحكم السوفييتي تفسيراً للنشاط المناهض للروس أكثر إقناعاً من كل ما قيل ويُقال في الكرملين عن المقاتلين الإسلاميين أو «الوهابيين» الذين يُموَّلون من الخارج.

الحاصل في آسيا الوسطى اليوم، أنه بالرغم من التراجع الروسي، وخيبة الأمل العامة بالحُكم السوفييتي، وانهيار الاقتصادات المحلية، استطاعت الفئات المتنفّذة الشيوعية القديمة، الطفيلية والمستأثرة بالامتيازات، من التشبث بالسلطة تحت يافطة جديدة، يافطة ديمقراطية مزعومة تخفي حقيقة حُكمها الديكتاتوري والبيروقراطي.



الروسية
تزاريتسين
أستراخان
غورييف
خانات القرم
ضمت إلى روسيا 1783
أسمياً غير مستقلة منذ 1761
تحت السيطرة الروسية الكاملة منذ 1825
ستافروبول
مقاطعة البحر الأسود
1829
البحر الأسود
أبخازيا
بياتيغورسك
موزدوك
1784
بوتي
1829
باطومي
قارص
1878
1877
خانات تفليس (تبليسي)
جورجيا
ألكسندروبول
خانات إيروان
خانات قراباخ
خانات ناخيتشيفان
1828
ناخيتشيفان
خانات شيروان
خانات طاليش
1813
خانات كوبا
دربند
1806
كوبا
شماخة
باكو
بتروفسك
1884
بحر قزوين
حصن شفتشنكو
1846
تابعة لروسيا منذ 1731
1834
أورالسك
تورغاي
إرغيز
1845
تورغاي
1730
1824-1731
1853
آرالسكي (رئيم)
1847
كازالينسك
بحر آرال
سور سيرداريا
بيروفسك (أكميشت)
1853
جيليك
1861
بئر إركيبباي
جبال قزل قوم
كراكالباك
1873
خانات خيوة
محمية روسية منذ 1873
خيوة
كراسنوفودسك
1869
بئر أورتاكوجو
جبال قره قوم
تركمان
1881
أشخاباد
مرو
1884
بنجدة
1885
كوشكا
هراة
بُخاري
محمية منذ 1868
شيكشيليار
تبريز
تركمانتشاي
رشت
طهران
مشهد
إيران
21-1907
أصفهان
يزد
بغداد
تركيا (السلطنة العثمانية)
أفغانستان
500 كلم
500 ميل
0

انتشار الإسلام في جنوب شرقي آسيا ن 1500 - 1800

كما في سائر المناطق الطرفية بالنسبة إلى قلب العالم الإسلامي، قدِمَ الإسلام إلى جنوب شرقي آسيا بواسطة التجارة وليس بالفتح العسكري. في بعض الحالات، كان التجّار المسلمون، المتسربلون بالهالة الألقة للثقافة الإسلامية العالية، يُصاهرون الأُسر الحاكمة المحلّية، فيغدقون عليها المال، ويزودونها بالمهارات الدبلوماسية، ويعرِّفونها على العالم الأرحب. وقد سهّلت عملية اعتناق الإسلام على زعماء المناطق الساحلية مقاومة سلطة الأمراء الهندوس المُحكِمين قبضتهم على أواسط جاوه. كما استطاع مشايخ الصوفية، القادمون من الجزيرة العربية والهند، والبعض منهم كان يتعاطى التجارة أيضاً، أن يبسطوا التعاليم الإسلامية على نحو يتسنى معه لمن نشأ وترعرع على التعاليم الهندوسية أن يفهمها ويقتنع بها. وطرداً مع توسّع نطاق التجارة، أتاح اعتناق الإسلام للجاليات الصغيرة أن تصبح جزءاً من مجتمعات أكبر، وهذا ما انعكس بدوره إيجاباً على تطوّر التجارة أكثر فأكثر.

غير أن تنامي الإسلام على هذا النسق السلمي والعضوي إلى حد بعيد، اختلّ وإنْ لم يتراجع بظهور البرتغاليين، الذين فرضوا أنفسهم قوة بحرية كُبرى اعتباراً من القرن السادس عشر. فبعد استيلائهم على غوا عام 1509، اكتسحوا ملقا في شبه جزيرة الملايو عام 1511. ومن المفارقة بمكان، أن ذلك الاحتلال ساعد في انتشار الإسلام لا العكس، بدفعه المعلّمين والدُّعاة المسلمين إلى التقاطر على قصور الحكّام في آتشيه وجاوه، التي غدت بمثابة مراكز لمقاومة البرتغاليين. كما أن ظهور الهولنديين، الذين أسّسوا باتافيا (جاكارتا الحالية) عام 1619، بحثاً عن الفلفل وكبش القرنفل وجوزة الطيب، وإن عقّد المشهد بعض الشيء، إلا أنه لم يحل دون انتشار الإسلام أو يقلّل من جاذبيته في المنطقة. لا بل إن الصراع مع الهولنديين والبرتغاليين، جنباً إلى جنب مع استمرار التوسّع التجاري، كانت له نتائج عكسية. إذ حمل في طياته اتصالات بالأمبراطورية العثمانية، ودفقاً من الفقهاء والمتصوّفة، آتين من الهند المغولية، ولاسيما على آتشيه.

إن الفوارق ما بين المناطق الساحلية والمناطق الداخلية، وتركة الأنظمة الملكية الهندوسية والبوذية، والمؤثّرات المتباينة للسيطرة البرتغالية فالهولندية فالبريطانية، وأخيراً تفاوت درجات المقاومة الناشئة عنها... إن كل ذلك قد أنتج أساليب إسلامية متغايرة وأحياناً متناقضة في أرجاء شبه جزيرة الملايو والأرخبيل الإندونيسي. ثمة قاسم مشترك بينها، ألا وهو غزارة الأمطار الهاطلة وخصوبة التربة الاستوائية، جعل تلك الأرض أرضاً عالية الإنتاجية، مما فتح شهية المستعمرين على المحاصيل النقدية كالبنّ ولاحقاً المطّاط. في جنوب شرقي آسيا، واجه الإسلام مجتمعات من المزارعين المستقرّين، وأنظمة حُكم عتيقة يتناقض تجذّرها في المكان على نحو صارخ مع انسيابية وحراكية الأقوام الرعوية التي تسم



التاريخ الإسلامي في آسيا الوسطى والغربية. في بعض الحالات، كانت موجات المدّ الإسلامي الآتية من الهند أو الجزيرة العربية تخلّف وراءها بقيةً من طقوسيات وعبادات تدخل فيها تقاليد أقدم زمنياً. في جاوه على سبيل المثال، كان القرويون يصفون أنفسهم بالمسلمين، لكن ثقافتهم الفعلية كانت خليطاً من العناصر الإسلامية والهندوسية والإرواحية. وفي أماكن أخرى، كما في مينانغبو مثلاً، حدث بعد فترة من الانتعاش الاقتصادي في القرن الثاني عشر، أنْ سيطرت تيارات إصلاحية تدعو إلى المزيد من التمسّك بالشريعة الإسلامية، نجمت عنها مشاحنات ومنازعات اجتماعية انتهت بتوسّط الهولنديين فيها ومن ثم وضع يدهم على المنطقة (1839–1845). يُمكن القول، بوجه عام، أن التراث الإسلامي في أندونيسيا متبلور في تيارين عريضين: التيار «الأبنغاني» الريفي، الذي يتيح قدراً من التسامح مع الأعراف المتضاربة وأحكام الشريعة الإسلامية، كأنماط التوريث الأمومية الطابع مثلاً؛ والتيار «السانتري» الأكثر تزمتاً القائم في المدن. هذا ولئن كان الإسلاميون المحدثون في ماليزيا وإندونيسيا يُعارضون على العموم التعدّدية والتمازج الثقافي، إلاّ أن الحقيقة تبقى ماثلة أمامنا، وهي أن كلا البلدين قد عرفا الثورة الصناعية التي وضعتهما في موقع متقدّم بأشواط بعيدة على إيران وباكستان والبلدان العربية – الإسلامية من حيث التنمية الاقتصادية على الأقل.



الأمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والروسية

إنّ الزيادة الهائلة في قُدرة واقتدار البلدان الأوروبية التي أخذت تتمّ لها الغلبة على العالم الإسلامي منذ بدايات القرن التاسع عشر، إنما تعود بأسبابها إلى الثورة العلمية التي شهدها القرن السابع عشر، وإلى الثورة الصناعة المتولدة عنها. قبل منتصف القرن السابع عشر، كانت الحضارتان الغربية والإسلامية على قدم المساواة نسبياً، عسكرياً واقتصادياً. لكن بحلول العام 1800، كان الميزان قد مال على نحو حاسم ودائم لصالح ما صار يُنظر إليه على أنه «الغرب». إن حملة نابليون المشؤومة على مصر، لم يُوقفها المماليك الجُدد الذين أذاقهم طعم الهزيمة في معركة الإهرامات، بل أنهاها الأميرال البريطاني نلسون، الذي حطّم الأسطول الفرنسي في خليج أبو قير. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، سيكون التنافس، العسكري والاقتصادي، بين دول أوروبا نفسها، وليس النزاع بين العالم الإسلامي والغرب، هو من سيُقرّر الأجندة التاريخية للشعوب المسلمة.

عديدةٌ هي التفسيرات التي سيقت للأسباب الكامنة وراء ذلك التعاظم التصاعدي في قوة أوروبا ومَنَعَتها. وهي تتراوح ما بين روح الرأسمالية المتأتية عن الإصلاح الديني البروتستانتي، إلى المطاولة عن غير انتظار للثروات المجلوبة من الأميركيتين، إلى المنهجية الجذرية في إخضاع كل شيء دونما استثناء للمُساءلة، تلك التي نادى بها الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، السلف الأكبر للثورة العلمية. وأياً تكن الأسباب، فإن النتائج كانت بعيدة الأثر حقاً، وغير قابلة للرجعة. فقد راحت الرساميل الأوروبية تُستثمر بانتظام، والمرة تلو الأخرى، في تمويل الابتكارات والتجديدات التقنية في طُرُق الإنتاج الصناعية، كغزل القطن مثلاً، التي من شأنها أن تقضي بالمنافسة على طُرُق الإنتاج التقليدية. هذا بينما نُشرت القوة العسكرية الأوروبية، المستفيدة من التحسينات التقنية المتواصلة، لحماية الأسواق المعدّة لتصريف المنتجات المصنّعة وتوسيعها بكل السُّبُل الممكنة، الأمر الذي أفضى إلى انهيار الاقتصادات المحلية، وتداعي قُدرة البلدان غير الأوروبية على المقاومة. ومن منظور التجارب السابقة، تجربة الدويلات الصليبية مثلاً، وتجربة فقدان الأندلس تدريجياً لصالح المسيحيين، كانت التجربة الجديدة سريعة بصورة استثنائية. إذ لم يحل عام 1920، حتى كانت القوى الأوروبية قد طوّقت كوكب الأرض عملياً من أقصاه إلى أقصاه، فيما خلا تلك المناطق التي عُدّت غير مأهولة، أو فقيرة، أو نائية أكثر من اللازم بحيث لا تستأهل إدراجها ضمن المآرب الامبريالية.

وقف قادة المسلمين، روحيين وزمنيين على السواء، في صدارة الصفوف المُقاومة للاكتساح الأوروبي للعالم. ففي جاوه، تزعّم الأمير ديبانغارا، وكان ينتمي إلى إحدى الأُسر الحاكمة التي استكانت للنفوذ الهولندي وأذعنت لضغوط المزارعين الأوروبيين، ثورةً ضمَّت فلاحين مهجَّرين وزعماء دينيين دامت من عام 1825 إلى عام 1830. وفي البنغال، حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تتعاطى التجارة منذ أوائل القرن السابع عشر، فتحت الهزيمة التي نزلت بحاكم محلّي، هو نواب سراج الدولة، حاول تحجيم الشركة المذكورة، في معركة بلاسّي عام 1757، الباب واسعاً للغزو البريطاني. وإثر هزيمة أخرى في بوكسار عام 1764، انتقلت المقاومة الإسلامية إلى مملكة ميسور الهندوسية سابقاً، المترامية الأطراف، حيث نظّم حيدر علي، وهو جندي من البنجاب، قوة مقاتلة منضبطة على النسق الأوروبي بمساعدة فرنسية. وقد تمكّن ابنه ووريثه، تيبو سلطان (1750–1799) من إحراز انتصار باهر على الجيش البريطاني في معركة كونبيغرام، بالقرب من مدراس، قبل أن يلقى حتفه في آخر المطاف عام 1799 في سرينغابتام، وهي المعركة التي أنهت فعلياً كل مقاومة للحُكم البريطاني في جنوب الهند. وبعد ذلك انتقل مسرح المقاومة إلى منطقة الحدود الشمالية الغربية، أو إلى داخل صفوف الجيش الهندي ذي القيادة البريطانية. ففي أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر، حاول سيد أحمد بارلوي (1786–1831)، الواعظ والمبشِّر بالتعاليم النقشبندية الإصلاحية، وكان أمضى قرابة ثلاث سنوات في مكّة، أن يعبىء البشتون «اليوسفزاي» في مقاطعة الحدود الشمالية الغربية كجزء من حملة أوسع نطاقاً لإصلاح الإسلام الهندي. لكن هدفه المتمثّل بإقامة دولة إسلامية على

تراب حُرّ من كل سيطرة بريطانية، أُجهض على أيدي السيخ الذين هزموه في موقعة بالاكوت عام 1831. بيد أن منطقة الحدود الشمالية الغربية بقيت بؤرة لمقاومة الحكم البريطاني زمناً طويلاً بعد رحيل بارلوي. فما بين عامَيْ 1847 و1908، اندلع ما لا يقلّ عن 60 تمرداً ضد البريطانيين. والكثير منها كان ذا نبرة «ألفية» واضحة، وجميعها تقريباً اكتسبت شرعية دينية بوصفها جهاداً ضد حُكم الكفّار.

إن العديد من هذه الحركات المناهضة للإمبريالية الأوروبية قادها رجالٌ نشأوا وتمرسوا ضمن قواعد سلوك الطُّرُق الصوفية وتراتبيتها الهرمية. ففي

من جهة أخرى، واجه البريطانيون والفرنسيون بدورهم حركات مقاومة مشابهة في جميع أرجاء إفريقيا المسلمة. فقد قاد الأمير عبد القادر، أحد مشايخ الطريقة القادرية، المقاومة ضد الحكم الفرنسي بعد استيلائه على الجزائر في العام 1830. وليس ذلك فحسب، بل إنه أقام دولة إسلامية في غرب الصحراء الكبرى، وقد دامت حتى عام 1847، حين تغلّب الفرنسيون عليها آخر الأمر، وأرسلوا عبد القادر إلى المنفى. وفي العام 1881، أعلن محمد أحمد، وهو من مشايخ الفرقة السمّانية من الطريقة الصوفية الخلواتية، أنه المهدي المنتظر في منطقة أعالي النيل،



أمبراطوريات القارة الأوراسية، حوالى 1700

القوقاز، مثلاً، خاض الإمام شامل، وكان من زعماء الطريقة النقشبندية، نضالاً مسلّحاً ضد التغلغل الروسي في بلاده دام من عام 1834 إلى عام 1839. وإذا كانت الدولة الإسلامية التي أقامها شامل قد ضُمّت في النهاية إلى حظيرة الأمبراطورية القيصرية، فإن ذكراه بقيت حيّة في وجدان أهالي داغستان والشيشان، الذين قاموا بثورات متعاقبة ضد الروس في الأعوام 1863، 1877، 1917–1919، وكذلك إبّان الحرب العالمية الثانية، ثم ضد إدارتَيْ بوريس يلتسين وفلاديمير بوتين ما بعد الحقبة الشيوعية. وفي ولاية برقة، أضحت الطريقة السنوسية التي قبلت بسلطان العثمانيين، مصدراً للمقاومة المنظّمة عقب الغزو الإيطالي لليبيا عام 1911.

وشنّ جهاداً ضد الحكومة المصرية ومن يدعمها من الأجانب، بعدما دأبت على التغلغل في المنطقة بإمرة ضباط عسكريين أوروبيين. هذا وقد لقيت الهزيمة التي حلّت بخليفة المهدي في أم درمان عام 1898، تهليلاً وترحيباً من ونستون تشرتشل، الذي شهد المعركة، بوصفها «أروع انتصار يُحرزه في أيما وقت سلاح العلم على البرابرة». و«سلاح العلم» في تلك المناسبة كان المدافع الرشاشة البريطانية. لقد كانت هذه أسلحة مألوفة استُخدمت في الحملات التأديبية الصغيرة في معظم أنحاء إفريقيا خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، غير أنها استُعملت هنا ولأول مرّة ضد جيش يربو على خمسين ألف رجل.

الحركات الإصلاحية في القرن التاسع عشر

كان لحركات التجديد، أو الإصلاح، التي هيمنت على الفكر الإسلامي والممارسة الإسلامية منذ القرن الثامن عشر، بُعدان: داخلي وخارجي. داخلياً، إن مثال النبي محمد في مهاجمته عبدة الأوثان في مكّة باسم دين التوحيد «الأصلي» الذي علّمه الله لآدم، ومن ثم لإبراهيم وإسماعيل، وما تلا ذلك من هجرته إلى المدينة وبنائه مجتمعاً جديداً، وتطهيره مكّة من كل مظاهر الكفر والشرك بُعيد عودته مظفّراً إليها، ليُعدّ بحد ذاته نموذجاً إرشادياً وإطاراً مرجعياً للإصلاح الديني المنشود. وقد رأينا، على امتداد التاريخ الإسلامي، أُناساً يتّصفون بالعلم والصلاح يتبنّون هذا المخطّط النبوي، فيتصدّون لحكّام فاسدين أو يستبدلونهم باسم العودة إلى الإسلام الحقّ، إسلام محمد وأبناء جيله. لقد ظهرت العديد من هذه الحركات في بحر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ بعضها كان بمثابة ردّة فعل دينية على ممارسات محلّية، من قبيل عادة زيارة أضرحة الأولياء ومشايخ الصوفية التي أدانها الوهابيون العرب؛ وثمة غيرها، كالحركات الإصلاحية في منطقة السنغال – غامبيا في غرب إفريقيا، اشتملت على مقاومة محلّية ضد النُّخب السياسية غير المسلمة. فيما كانت الكثرة منها، كالحركات الجهادية في منطقة الحدود الشمالية الغربية للهند أو المهديّة في السودان النيليّ، مجرد ردة فعل ضد التغلغل الأوروبي.

بيد أن معظم الحركات النضالية للمقاومة والإصلاح أبصرت النور بين أقوام قبلية تعيش على أطراف العالم الإسلامي. وحتى لو كان على رأسها رجال علمٍ من أمثال المهدي محمد أحمد أو عثمان دان فوديو، ما كان ليُكتب لها النجاح ما لم تسندها قوة عسكرية – قبلية. وما إن اتضح أن الحلول العسكرية مآلها الفشل بسبب القدرة الكاسحة التي يتمتع بها الغرب، حتى بدأ المفكّرون المسلمون بمقاربة السيناريو الإصلاحي بطريقة عقلانية. ففيما كانت الحركات ذات القاعدة القبلية تُميِّز ما بين الممارسات الدينية السليمة والبدع غير المقبولة بالمرة، كان المصلحون العقلانيون يعملون على تجديد الإسلام من خلال التمييز بين «أصول» الإسلام التي لا تقترن بزمن معيّن وقابلة للتكيُّف في كل آن، وبين «الفروع» التي تنطبق على ظروف بعينها. لقد أدرك المصلحون جميعاً أنه إذا أُريد للإسلام أن يحيا ويزدهر في أحوال عصرنا هذا، فعلى المسلمين لزاماً أن يعتنقوا العلم الحديث ويأخذوا بأسباب التعليم العصري. وهكذا، أسّس السير سيد أحمد خان (1817–1898) جامعة في عُليكرة، الغرض منها بناء جيل عصري من الموظفين والمحامين والصحافيين المسلمين – ومن هؤلاء من سيتزعّم عندما يحين الوقت الحركة الباكستانية. وثمة مجموعة أكثر محافظةً من العلماء الهنود أنشأت أكاديمية في ديوباند عام 1867، جمعت ما بين تدريس العلوم الدينية من قرآن وحديث نبوي وشريعة إسلامية، والعلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والعلم. وقد استطاع الديوبانديون هؤلاء من الوصول إلى كل ركن وزاوية من الهند الإسلامية، عن طريق الإفادة من شبكة السكك الحديدية الوليدة لتوزيع المطبوعات باللغة الأُردية. وهذا ما جعل من ديوباند مركزاً لنمطٍ جديد من الوعي الإسلامي الذي سرعان ما امتد إلى سائر البلدان، مع تقاطر العديد من الطلاب عليها آتين من أفغانستان وآسيا الوسطى واليمن، وحتى من الجزيرة العربية. وفي عام 1827، قام أحد خريجي أكاديمية ديوباند، ويُدعى مولانا محمد إلياس، بتأسيس «جماعة التبليغ» الإصلاحية. أُريد من الجماعة في الأصل أن تُدلي بسهمها في هداية المواطنين، وهم جالية فلاحية تقطن بالقرب من دلهي، إلى شعيرة إسلامية شديدة التزمّت تجمع ما بين الالتزام بالشريعة والتأمل الصوفي في روح النبي محمد كما تُمارسه الطريقة الشُّشتية التي ينتسب إليها إلياس نفسه. وتُعتبر «جماعة التبليغ» التي تتحاشى رسمياً التعاطي بأمور السياسة، واحدةً من أسرع الحركات الإسلامية نمواً في العالم، حيث تتواجد لها فروع في أكثر من تسعين بلداً.

ولعلّ أوسع المُصلحين نفوذاً وأعظمهم تأثيراً في مصر، هو الشيخ محمد عبده (1849–1905)، الذي كان في الأصل من أتباع داعية الوحدة الإسلامية الجامعة المعادي لبريطانيا، السيد جمال الدين الأفغاني (1839–1897). لقد رافق عبده الأفغاني إلى منفاه في باريس بعد الاحتلال البريطاني لمصر، حيث أصدرا سويةً مجلة «العُروة الوثقى» باللغة العربية، التي وإنْ لم تعمّر طويلاً إلاّ أنها كانت ذات نفوذ لا يُنكر. في عام 1885، تحلّل عبده من عداء مُرشده للأمبريالية، وقرّر لدى عودته إلى مصر عن طريق سورية، العمل على



قاطرة بخارية تجرّ وراءها عربات القطار المكتظة بالركّاب على سكة دارجيلنغ الضيّقة (حوالى العام 1900). استغلّت حركة ديوباندي الإصلاحية شبكة السكك الحديدية لنشر أدبيات الإسلام في أرجاء البلاد، مما عزّز شعور المسلمين بكونهم جالية متميّزة في الهند.

وفاق مع السلطات البريطانية، التي رأى فيها قوة ضرورية لعملية التحديث. وبعدما ترقّى في مدارج القضاء ليُصبح المفتي الأكبر لمصر، سعى عبده إلى تحديث الشرع الإسلامي، وإلى إدراج مواد تعليمية مثل التاريخ الحديث والجغرافيا في مناهج الأزهر، أبرز مؤسّسة تعليمية للإسلام السنّي. وقد أبدى عبده عناية استثنائية بمبدأ «المصلحة» كي يتسنى له تعديل القوانين بما يتماشى واحتياجات العصر، قائلاً بما معناه: «إذا أصبح حكمٌ من الأحكام مبعثاً لمفسدة أو ضرر لم يكن له في السابق، فحقٌّ علينا أن نبدّله تبعاً للظروف الراهنة». آمن عبده بأن الوحي، إذا ما فُهم على الوجه الصحيح، لا يتضارب أبداً مع العقل، لأن الإسلام «دين طبيعي»، خلقه الله ليُلائم الشرط الإنساني. وعلى غرار أحمد خان، سعى عبده إلى التمييز بين ما هو جوهري وما هو غير جوهري في الوحي، بحيث تُصان الجوانب الجوهرية، وتُنبذ الجوانب التي كانت من الوجهة التاريخية عارضةً أو محدَّدة بزمنٍ معيّن. فعارض دونما كللٍ ما كان يرى فيها نزعةً مُحافظة ضيقة الأُفق لدى رجال الدين والعلماء التقليديين. ومثل أحمد خان كذلك، شدّد عبده على الحاجة الماسّة إلى تطبيقات جديدة لمبدأ الاجتهاد بما ينسجم وظروف العصر الراهن. هذا وقد انتشرت آراء هذا المُصلح الكبير من خلال أحكامه الشرعية وكتاباته ومحاضراته، وبعد وفاته من خلال دورية «المنار» لناشرها مريده السوري محمد رشيد رضا، المنتمي إلى الطريقة النقشبندية الإصلاحية، التي استمرت في الصدور من عام 1897 إلى عام 1935. إن تأثير محمد عبده كمجدِّد للإسلام الحديث، لا يُمكن الاستهانة به على الإطلاق. لنأخذ على سبيل المثال، حركة «المحمدية» التبشيرية التي تأسّست على يد أحمد دحلان وتتخذ من جاوه في جنوب شرقي آسيا قاعدة لها، والتي تضم حالياً ملايين المنتسبين من كلا الجنسين؛ إنها تدين بالكثير الكثير لأفكار محمد عبده بالذات. في العالم العربي، يُعدّ دحلان، إلى جانب الأفغاني، المؤسِّس للحركة السلفية التي تستلهم مثال «السلف الصالح»، المتعارف عليه كلاسيكياً بأنه الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين الذين تلقوا رسالة الإسلام في سياقها الأصلي. والسلفيون المحدثون الذين يستطيعون الادّعاء بأنهم جزءٌ من تراث عبده الفكري، يتراوحون ما بين النُشطاء المكافحين لإقامة دول إسلامية حديثة بوسائل العنف إذا لزم الأمر، والقوميين العلمانيين الذين يفسّرون أفكار عبده بأنها تتطلّب فصلاً تامّاً بين المجالين السياسي والديني.

تحديث تركيا

يعود تحديث تركيا إلى قرنين من الزمن خليا، حين حاول السلطان العثماني سليم الثالث (ح 1789–1807) إدخال سلسلة من الإصلاحات التعليمية والعسكرية في البلاد. وقد هدّدت مساعيه هذه بالخطر مصالح رجال الدين والإنكشارية، فأقدموا على عزله. لكن بعد هزائم متكررة مُنيت بها السلطنة في القوقاز واليونان، بذل خَلَفه محمود الثاني (ح 1807–1839) جهوداً متجدّدة للإصلاح بإنشائه مدارس جديدة ذات توجه غربي، وقضائه على الإنكشارية، وحلّه الطريقة الصوفية البكتاشية المرتبطة بهم. وقد ضعُفت استقلالية العلماء كثيراً بوضع الدولة يدها على الأوقاف والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية. وحدث انفصال رمزي ما بين الدين والدولة بصدور مرسوم يُحظر بموجبه اعتمار العمامة؛ هذه العمامة التي غالباً ما كانت علامة فارقة تدل على انتساب صاحبها إلى إحدى الطُرُق الصوفية. ففيما عدا تلك التي يعتمرها العلماء الرسميون، جرى استبدال العمامة بالطربوش، تلك القبعة الأسطوانية الشكل المصنوعة من المخمل الأحمر والمستوردة من المغرب. وتطلّعات محمود إلى خلق دولة ذات حكم مُطلق وممركز، على النهج الذي كان سائداً في فرنسا أو بروسيا ما قبل الثورة، واصلها خلفاؤه في سلسلة من البرامج عُرفت بـ «تنظيماتي خيرية» (أي التنظيمات الميمونة) ودامت قرابة أربعة عقود من عام 1839 إلى 1876. فأُدخلت بمقتضاها الخدمات البريدية والبرقية الحديثة، وكذلك السفن البخارية والسكك الحديدية، إلى جانب إصلاح النظام القضائي إصلاحاً جذرياً من خلال استحداث محاكم على النسق الغربي ونشر المدونات الحقوقية. كذلك اعتُمدت مدونة جديدة للحقوق المدنية، عُرفت بـ«المجلة»، التي وإنْ أخذت بأحكام الشريعة الإسلامية من حيث المضمون، إلا أنها اختلفت عن العُرف المتّبع بأنها كانت تُطبّق من قبل محاكم الدولة.

وفي عام 1855، جرى استبدال «الجزية»، وهي الضريبة الرسمية على أتباع الأديان الأخرى، بضريبة تُستوفى مُقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية. وهكذا قامت الحكومة المركزية الجديدة، التي كانت في طور التكوُّن آنذاك، على قاعدة اجتماعية قوامها موظفون بيروقراطيون جُدد مدرّبون تدريباً مهنياً رفيعاً. فتمتعت الطبقة الوسطى المدينية الصغيرة بوضع اقتصادي ناهض، أتاح لها أن تتحدّى البُنية السلطوية



صورة التقطت للقوات البريطانية التي نزلت، سويةً مع قوات الحلفاء الأخرى، في شبه جزيرة غاليبولي ما بين 25 نيسان/أبريل 1915 و9 كانون الثاني/يناير 1916. كان الهدف من تلك الحملة تهديد إستنبول، وفتح طريق للإمدادات المرسلة إلى روسيا عبر البحر الأسود. أما القوات التركية، فكانت يومئذ بقيادة المقدّم مصطفى كمال، الذي أجهض بجرأته وحيويته خطة الحلفاء. وكان لنجاحه هذا أكبر الأثر في وصوله إلى سدّة الرئاسة فيما بعد.

1 صدّ الغزو النمساوي لصربيا
29 تموز – 15 كانون الأول 1914

2 الألمان يتقدمون حتى نهر مورافا
تشرين الأول 1915

3 فشل محاولة الحلفاء السيطرة على شبه جزيرة غاليبولي،
شباط – كانون الأول 1915

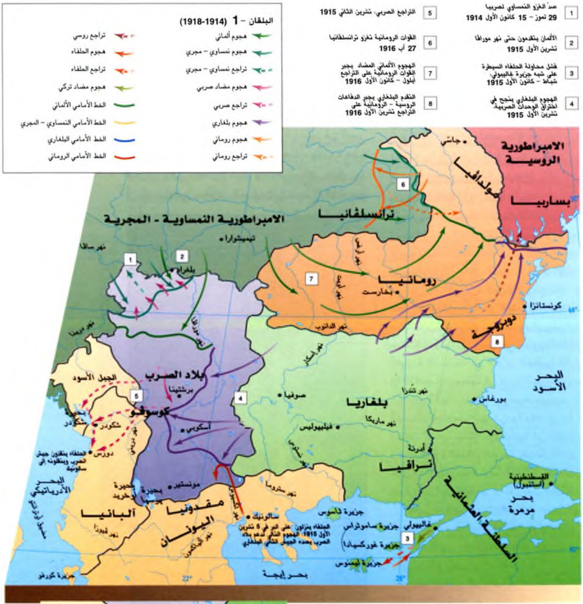
4 الهجوم البلغاري ينجح في اختراق الوحدات الصربية،
تشرين الأول 1915

5 التراجع الصربي، تشرين الثاني 1915

6 القوات الرومانية تغزو ترانسلفانيا
27 آب 1916

7 الهجوم الألماني المضاد يجبر القوات الرومانية على التراجع
أيلول – كانون الأول 1916

8 التقدم البلغاري يجبر الدفاعات الروسية – الرومانية على التراجع تشرين الأول 1916





① خطوط جبهة الحلفاء
15 أيلول 1918

② خطوط جبهة الحلفاء
29 أيلول 1918

البلقان – 2
أيلول – تشرين الثاني 1918

- تقدم البريطانيين وخطهم الأمامي
- تقدم الفرنسيين وخطهم الأمامي
- تقدم الصرب وخطهم الأمامي
- تقدم الإيطاليين وخطهم الأمامي
- الخط الأمامي اليوناني

ذات الأساس الديني للجماعات المتسربلة برداء الدين. لقد غيَّرت الإصلاحات التي جاءت بها «التنظيمات» الأساس السابق للمجتمع العثماني بتجريدها المؤسّسات التعليمية والقضائية الإسلامية من استقلاليتها ووضعها تحت إشراف الدولة المباشر. وكانت هذه الإصلاحات حافزاً على ظهور حركة «تركيا الفتاة» في أوساط المثقفين الراغبين في السير على النهج الأوروبي. وبالفعل، وصلت طليعة هذه الحركة، وهي «لجنة الاتحاد والترقّي»، التي سبق لها أن اندست في صفوف الجيش، إلى سدة السلطة عبر



مصطفى كمال أتاتورك (1881–1938)، مؤسّس دولة تركيا العلمانية الحديثة.

انقلاب عسكري قامت به عام 1908. فأُجبر السلطان على إعادة العمل بالدستور، الذي كان قد عُلِّق عام 1876. صحيح أنه كانت هناك بعد الانقلاب حكومة برلمانية، لكنها كانت بمثابة واجهة فقط، إذ بقيت السلطة الفعلية في يد الجيش و«لجنة الاتحاد والترقّي» التي شرعت بتطبيق برنامج للعلمنة الجذرية، خُفِّضت بموجبه صلاحيات «شيخ الإسلام» (المرجع الديني الأكبر في البلاد)، وفُرض الإشراف الحكومي على المحاكم الشرعية والمعاهد الإسلامية. وعلى الرغم من التوجه القومي الذي صبغ حركة «تركيا الفتاة»، إلاّ أن هدفها كان الاحتفاظ بالشطر الشرقي من الأمبراطورية العثمانية. وهكذا بمساعدة ألمانيا، التي كان مستشاروها العسكريون يقومون بتنفيذ جملة إصلاحات داخل القوات المسلّحة، مُدّ خط سكة حديد برلين – بغداد. كذلك شهد العقد الأول من القرن العشرين بناء «خط الحجاز» الشهير الذي يربط دمشق بالمدينة، علماً بأن وصلة الخط إلى مكّة لم تُنجز قط. لقد أُريد من شبكة السكك الحديدية، علاوة على تسهيلها حركة انتقال الحجّاج إلى الديار المقدسة الإسلامية، أن تضمن كذلك سرعة وصول القوات والإمدادات إلى داخل البلاد لإخماد التمردات القبلية في سورية والجزيرة العربية. ومع ذلك، فقد تواصل خروج المناطق من أيدي العثمانيين خلال العقد الثاني من القرن العشرين، بفقدانهم ليبيا وألبانيا ومعظم ممتلكاتهم الأوروبية في حروب البلقان. وجاءت الضربة القاصمة مع الحرب العالمية الأولى (1914–1918)؛ فبانضمامها إلى دول المحور (النمسا وألمانيا) ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا، خسرت الأمبراطورية العثمانية ما تبقى لها من ولايات عربية أمام هجوم مثلّث الشُّعب شنّته بريطانيا في العراق وفلسطين، وأمام هجوم القبائل العربية بقيادة الأمير فيصل، ابن شريف مكّة، وبمعاونة المغامر الإنجليزي توماس إدوارد لورانس، الشهير بـ«لورانس العرب».

لكن تركيا، وبالرغم من خسارتها ولاياتها العربية، احتفظت باستقلالها كبلد مسلم بعد الحرب العالمية الأولى بفضل جهود مصطفى كمال (لُقِّب فيما بعد بـ«أتاتورك»، اي أبو الأتراك). كان مصطفى كمال، الضابط المنتمي إلى «تركيا الفتاة»، قد أنقذ استنبول بدفاعه المستميت عن شبه جزيرة غاليبولي في وجه إنزال القوات الأمبراطورية البريطانية في العام 1915. وبعد تشكيله حكومة قومية مؤقتة، حشد أتاتورك الشعب التركي ضد سلخ قلب الأناضول عن البلاد، أو التنازل عن أية مناطق لسورية المسيطر عليها من قبل الفرنسيين، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اليونان والأكراد والأرمن (الذين قُسِّمت دولتهم المقترحة في الشمال الشرقي من السلطنة عملياً ما بين تركيا والجمهورية السوفييتية الناشئة حديثاً). وبعدما هزم اليونانيين، الذين سبق وكُوفئوا بمنحهم المنطقة ذات الغالبية اليونانية حول إزمير بموجب شروط معاهدة سيفر

المذلّة لعام 1920، نال أتاتورك اعترافاً دولياً بسيادة تركيا التامة والناجزة على الأناضول، وأدريانوبل (أدرنة)، وتراقيا الشرقية (تركيا الأوروبية)، وذلك بحسب معاهدة لوزان الموقّعة عام 1923. وقد سوّى أتاتورك مشاكله مع اليونان باللجوء إلى وسيلة قاسية إنما فعّالة هي تبادل السكّان بين البلدين.

وإذ وطّد أتاتورك دعائم سلطته بوصفه «الغازي»، أو المحارب المنتصر على أعداء تركيا، انكبّ بكلّيته على وضع برنامجه للتحديث الجذري موضع التنفيذ. ففي عام 1923، فُصلت السلطنة عن الخلافة، وأُلغيت الأولى. وفي السنة التالية، أُبطلت الخلافة أيضاً، فضلاً عن المحاكم الشرعية. واستُبدلت أحكام الشرع الإسلامي بمدونة سويسرية للحقوق المدنية تتناسب والحاجات التركية. واعتُمدت الأبجدية اللاتينية للّغة التركية، بعدما كانت تُكتب فيما سبق بالحروف العربية، وذلك بقصد سلخ تركيا عن ماضيها الإسلامي، وجعل مكافحة الأميّة أسهل منالاً. وفُرض حظر تام على الطُرق الصوفية، فلم تجد هذه الأخيرة مناصاً من اللواذ بالسرية. كذلك حُرِّم ارتداء الطربوش، الذي كان – ويا لسخرية الأقدار! – قد تكرّس غطاءً «إسلاميا» للرأس، واستُعيض عنه بالقبعة القماشية المستدقة الرأس التي كان يعتمرها العمال الأوروبيون في ذلك الحين.



العالم الإسلامي تحت السيطرة الاستعمارية حوالى العام 1920

آلت الهزيمة التي حلّت بالأمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، إلى وقوع الغالبية العظمى من المجتمعات الإسلامية تحت السيطرة المباشرة أو غير المباشرة لقوى الاستعمار الغربية. فلم يبقَ مستقلاً من الأقطار الإسلامية بحلول عام 1920 سوى تركيا، التي أعاد إليها كمال أتاتورك الحياة من جديد؛ وبلاد فارس (إيران)، التي ستحلّ فيها أسرة بهلوي محل السلالة القاجارية (1923)؛ وأفغانستان، الناعمة بنظام الحكم العصري للملك أمان الله (1919–1929)؛ وشمال اليمن، الذي أحكم الإمام الزيدي يحيى سيطرته عليه بعد انكسار العثمانيين؛ ونجد، قلب الجزيرة العربية؛ والحجاز، أو الديار المقدسة الإسلامية التي تضم مكّة والمدينة، وكان لا يزال تحت حُكم الأسرة الهاشمية. أما ما تبقى من «دار الإسلام»، فكان إما خاضعاً للحُكم الاستعماري المباشر أو رازحاً تحت شكل من أشكال «الحماية» الأوروبية المعترف بها دولياً. هذا وقد تمّ إرساء مبدأين جديدين أُدخلت بموجبهما المستعمرات أو أشباه المستعمرات السابقة حظيرة النظام الدولي: الأول، ترسيم الحدود بينها، وهذا ما كان يُصار إليه في العادة بما يُلائم مصالح الدول الأوروبية؛ والثاني، يتعلّق بالمشيخات المرتبطة ببريطانيا بمعاهدات مُلزِمة، ويقضي بـ «تجميد» الأسر الحاكمة لضمان استمرارية الحُكم، وإن ليس بالضرورة على النسق الأوروبي، أي حق الابن البكر في الوراثة. فمن شأن شرعية الوراثة أن تحول دون نشوب منازعات تمزيقية كتلك التي كثيراً ما تلي موت حاكم تقليدي، وأن تُلزم من يخلفه، كائناً من كان، ببنود المعاهدة سارية المفعول.

لم ينقضِ العقد الثاني من القرن العشرين إلاّ وكانت فرنسا قد أحكمت قبضتها على إفريقيا برمّتها، فيما عدا قطاعات ساحلية من الصحراء الإسبانية ومُراكش الإسبانية. كذلك كانت إيطاليا آنذاك ماضية قدماً في توسيع نطاق سيطرتها إلى ما وراء مقاطعتَيْ طرابلس وبرقة الساحليتين، وإنْ لم تحقق ذلك إلاّ في عام 1934. أما بريطانيا، التي احتلت مصر، المركز الثقافي للعالم الإسلامي، منذ العام 1882، فقد سمحت للولاية العثمانية السابقة بأن تمارس استقلالاً صورياً في ظل ملكية دستورية، إلاّ أنها احتفظت لنفسها بالإشراف الاستراتيجي العام عليها. وهذا ما خلق لاحقاً مفارقة صارخة: بلد محايد من الناحية الرسمية يستضيف على أرضه آلاف الجنود من بريطانيا وتوابع الأمبراطورية الأخرى خلال الحرب العالمية الثانية؛ في

أعقاب نجاح كيتشنر في القضاء على الدولة الإسلامية التي أقامها المهدي محمد أحمد عام 1898، بسطت بريطانيا سيطرتها على السودان الأنجلو – مصري، الذي يمتد مجاله الترابي في الوقت الحاضر عميقاً داخل إفريقيا الاستوائية. وبانتزاعها تنجانيقا من ألمانيا، أصبحت بريطانيا تتحكم بمعظم الساحل السواحيلي فيما عدا ذلك القسم الذي يُشكّل جزءاً من الصومال الإيطالي. ومن عدن، دخلت بريطانيا في صراعٍ مع إيطاليا المتحكّمة بإريتريا للسيطرة على باب المندب – البوابة الاستراتيجية للبحر الأحمر – مع إحكام قبضتها في الوقت نفسه على المنطقة الساحلية من الجزيرة العربية الممتدة من عدن إلى البصرة؛ هذا بعدما قيّدت المشيخات القائمة في جنوب الجزيرة العربية والخليج بمعاهدات قاطعة مانعة تضمن لبريطانيا الإشراف المطلق على سياستها الدفاعية وسياستها الخارجية.



وفي شبه القارة الهندية، احتبس البريطانيون زهاء 560 حاكماً أميرياً – بعضهم مسلمون – داخل فسيفساء من المعاهدات والاتفاقيات المختلفة التي وضعتهم ورعاياهم المسلمين تحت مظلة العرش البريطاني. وفي جنوب شرق آسيا، سيطرت بريطانيا على دويلات الملايو، فيما وسّعت هولندا نطاق سيطرتها إلى ما وراء مستعمراتها الأصلية في جاوه وسومطرة. وفي آسيا الوسطى المسلمة ومنطقة القوقاز، عملت الثورة الشيوعية والحرب الأهلية التي تلتها على ترسيخ أقدام موسكو هناك، في إطار نظام إقليمي جديد.

وفي قلب المشرق بالذات، شُرِّعت فلسطين أمام الاستيطان اليهودي بموجب شروط الانتداب الذي مُنح لبريطانيا من قبل عصبة الأمم. وتبعاً لبنود اتفاقية سايكس – بيكو السرية التي توصلت إليها بريطانيا مع فرنسا عام 1916، بسطت الأولى انتدابها (وهذا تعبير ملطّف عن الاستعمار) على شرقي الأردن والعراق، فيما فازت الثانية بالانتداب على كلٍ من سورية ولبنان. لقد أراد الأمير فيصل، ابن الحسين شريف مكّة، الذي حرّر دمشق من تركيا العثمانية بدعم بريطاني، أن يجعل من سورية دولة عربية مستقلّة وفقاً لتعهّد غامض نوعاً ما كان قد تلقاه من السير هنري مكماهون، المفوّض السامي البريطاني في مصر، عام 1915. لكن تبيّن حالما وضعت الحرب أوزارها أن المصالح الإمبريالية سوف تنسخ حق الأمم في تقرير مصيرها الذي أعلنه الرئيس الأميركي وودرو ويلسون كأساس للتسوية ما بعد الحرب في أوروبا. والاحتجاج على هذه المعايير المزدوجة التي سمحت بالاعتراف مجدّداً بالحقوق القومية لرعايا الدول المسيحية في أوروبا (بمن فيهم التشيك والسلوفاك والمجريون واليهود والإيرلنديون، ناهيكم عن رعايا الدولة العثمانية السابقين في البلقان)، وإنكار تلك الحقوق على المسلمين دون سواهم في الوقت عينه، كان لا بد من أن يُلهب ويؤجّج مشاعر السخط على الاستعمار التي سرعان ما ستخرج إلى العلن في سائر ممتلكات السلطنة العثمانية السابقة.

الامبرياليات الأوروبية في العالم الإسلامي

- دولة إسلامية مستقلة، 1920

مناطق تحت الحكم الاستعماري، 1920

- استعمار بريطاني
- استعمار فرنسي
- استعمار إيطالي
- استعمار برتغالي
- استعمار إسباني
- استعمار هولندي
- استعمار أميركي
- استعمار روسي
- دويلات أميرية تابعة
- مناطق ضمن النفوذ البريطاني
- مناطق ضمن النفوذ الروسي، 1907-1921
- تجمعات إسلامية: مسلمون يعيشون ضمن جاليات مشتتة في أراضي الصين



البلقان، وقبرص، وكريت 1500 - 2000

خلّف الفتح السلجوقي، ولاحقاً الفتوحات العثمانية في البلقان، بقية من جاليات مُسلمة في أوروبا، ممّن وصل أفرادها إلى هناك كمستوطنين أو ممّن اعتنقوا الإسلام عن طريق الهداية. وبعكس ما حصل عند غزو الأناضول حيث جرى التنكيل بالمؤسَّسات الكنسية



جسر «ستاري موست» في موستار بالبوسنة والهرسك. قبل أن تدمّره نيران مدفعية كروات البوسنة عام 1993، كان الجسر آية من أروع آيات الهندسة المعمارية العثمانية التي كُتب لها البقاء. اكتمل بناء الجسر عام 1566 على يد خير الدين، تلميذ المعماري العثماني العظيم سنان. يبلغ باع الجسر 30 متراً ويرتفع 27 متراً فوق مياه نهر نرتفا. وقد صار بناء الجسر من جديد رمزاً لترميم العلاقات الممزّقة بين طوائف البوسنة المختلفة.

البيزنطية باعتبارها مُزاحماً أمبراطورياً، مُنحت الكنيسة الأرثوذكسية في البلقان سلطات حقيقية وفعّالة على الجاليات المسيحية هناك. وبسبب هذا العامل تحديداً، ربما لم تجرِ سوى عمليات «أسلمة» محدودة في البلقان المسيحي مقارنةً بما تمّ في بلاد الأناضول.

يعود تأسيس الوجود الإسلامي الدائم في أوروبا إلى المهاجرين الأتراك الذين قصدوا شمال اليونان وبلغاريا وألبانيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولعبت الدور الرئيسي في ذلك «التكايا» التي أقامها مشايخ من الصوفية، والتي صارت في حالات كثيرة نواةً لتشكّل المجتمعات القروية. وقد سهّلت الطُرُق الصوفية، كالمولوية والبكتاشية، على الناس في المناطق الريفية اعتناقهم الدين الإسلامي. إذ وجدت السُبُل الآيلة إلى إيصال الأفكار الإسلامية إلى عقول الفلاحين من ذوي المعتقدات المسيحية أو «الهرطوقية»، كتلك التي كان يحملها البوغوميليون، وهم أصحاب بدعة غنّوصية بدائية عمّ تأثيرها الجنوب الأوروبي الكاثوليكي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. كان اعتناق الإسلام أكبر ما يكون في ألبانيا والبوسنة والهرسك وبلغاريا، ولاسيما بين البوماكيون في جبال رودوبس، الذين تمتد أراضيهم الجبلية إلى داخل دولتَيْ اليونان ومقدونيا الحاليتين، دع عنك جزيرة كريت. لكن بقاء المسيحيين يشكّلون السواد الأعظم من السكّان في البلقان بفضل الدعم العثماني الرسمي للمذهب الأرثوذكسي، هو ما سيجعلهم قبل غيرهم، وأكثر من رعايا السلطنة المسلمين، عُرضةً لمؤثّرات الأفكار القومية والأفكار الثورية التي اكتسحت غرب أوروبا في القرن التاسع عشر. طبقاً لإحصاء أُجري ما بين عامَيْ 1520 و1530، كان 19 بالمئة من سكّان البلقان مسلمين، و81 بالمئة مسيحيين، وكان ثمة أقلّية يهودية صغيرة جداً. كان أكبر تمركز للمسلمين في البوسنة (حوالى 45 بالمئة من السكان)؛ ومعظم المسلمين كانوا يعيشون في المُدن. فصوفيا (عاصمة بلغاريا الحالية) مثلاً، كانت تقطنها أغلبية مُسلمة تُناهز الـ 66,4 بالمئة.

ومع انحسار مدّ الفتوحات عن بلاد المجر الكاثوليكية، وتصاعد النزعات القومية الأرثوذكسية في كلٍ من اليونان وصربيا ورومانيا وبلغاريا، وتقطّع أوصال الأمبراطورية العثمانية في أوروبا، فقد المسلمون حمايتهم السياسية. فالعديد ممّن فاتهم الانسحاب مع الجيوش العثمانية، تعرّضوا للمذابح أو أُجبروا على اعتناق الديانة المسيحية. كما أنهم نزحوا بأعداد غفيرة بعد الحربِ الروسية – التركية عام 1878، وحروب البلقان في الأعوام 1912–1914، وبُعيد الحرب العالمية الأولى عندما جرى تبادل رسمي للسكّان ما بين الأتراك المسلمين القاطنين في اليونان (بما في ذلك جزيرة كريت وجُزر الدوديكانيز)، واليونانيين المتواجدين على بر الأناضول. أما قبرص التي انتزعها العثمانيون مثل جزيرة كريت من البنادقة في العام 1571، فقد صارت جزءاً من الأمبراطورية البريطانية بعد مؤتمر برلين عام 1878، وهذا ما حال دون الأغلبية الأرثوذكسية فيها واختيار الاتحاد مع اليونان (مثلما فعلت كريت عام 1913)، وهكذا استُبعدت من عملية تبادل السكّان التي تمّت في العام 1920. إن الجزيرة منقسمة إلى شطرين منذ عام 1972، حين تدخلت تركيا عسكرياً للحيلولة دون حكومة عسكرية ذات ميول قومية وتوحيد الجزيرة مع اليونان.

لا تزال ألبانيا بلدا مسلماً إلى حد بعيد (70 بالمئة من سكانها مسلمون)، إنما هي كذلك بفعل الثقافة. فبعد حملة طويلة الأمد لمكافحة الدين شنّتها الحكومة

الشيوعية، تلك التي أعلنت البلاد رسمياً الدولة الملحدة الأولى في العالم، تشهد المعتقدات والعبادات الإسلامية في الوقت الحاضر انتعاشاً ملفتاً. كما بقيت هناك أقلّية مسلمة كبيرة إلى حدٍ ما في بلغاريا (13 بالمئة من السكّان) حتى بعدما اضطر الأتراك البلغاريون، الذين يُناهز عددهم الـ 600 ألف نسمة، إلى النزوح بأعداد غير قليلة إلى تركيا من جراء حملة لا هوادة فيها قامت بها الحكومات الشيوعية وما بعد الشيوعية لـ«بلغرتهم»، بما في ذلك شطب وتغيير أسمائهم وكُناهم الإسلامية.

في البوسنة، يُشكّل المسلمون قُرابة الـ 45 بالمئة من مجمل عدد السكّان. وقد أدّت الحرب الأهلية بين الصرب وتحالف المسلمين – الكروات، التي استمرت من عام 1991 إلى عام 1995، إلى وقوع سلسلة من الأعمال الوحشية، ليس أقلّها المذابح المنظّمة ومحاولات «التطهير العرقي»، مما حمل القوات الجوية التابعة لحلف شمالي الأطلسي على التدخل، وعجّل بتوقيع اتفاقية دايتون لعام 1995 التي قسّمت البوسنة بموجبها إلى دولتين منفصلتين، واحدة مسلمة – كرواتية والأخرى صربية.



البلقان، وكريت، وقبرص 1878-1912

1878 تاريخ الاستقلال



البلقان،
وكريت، وقبرص
13-1912
تاريخ الاستقلال 1913
1913 تاريخ الاستقلال
الامبراطورية الروسية
حتى 1917
مملكة المجر
مملكة رومانيا
مولداقيا
بسارابيا
غلاطي
إسماعيل
دوبروجة
بخارست
كرايوفا
1913 تابعة لرومانيا
البوسنة
ميتروفيتشا
بلغراد
مملكة الصرب
نيش
مملكة بلغاريا
بلقنا
قارنا
بورغاس
يمبولي
صوفيا
نهر ماريتسا
1913 تابعة لبلغاريا
مملكة الجبل الأسود
تراقيا
إدرنة
استنبول
بحر مرمرة
غاليبولي
ثاسوس
سالونيك
مقدونيا
1913 تابعة لليونان
ولاية ألبانيا
1913
دورس
جانينا
لاريسا
كورفو
بحر إيجة
مملكة اليونان
ليقاديا
بلوبونيز
أثينا
تريبوليس
البحر الأيوني
أرخبيل السيكلادس
خيوس
إزمير
ساموس
رودس
1912 احتلته إيطاليا
كريت
قبرص
ضمتها بريطانيا عام 1914
البحر الأسود
الامبراطورية العثمانية
البحر المتوسط
20°
30°
40°



البلقان، وكريت، وقبرص 1923-1920
منطقة منزوعة السلاح 1922-1920
الاتحاد السوفييتي
المجر
رومانيا
ترانسلفانيا
مولدافيا
بسارابيا
تابعة لرومانيا 20-1918
إسماعيل
غلاطي
بلويستي
دوبروجة
بخارست
كرايوفا
البحر الأسود
يوغسلافيا
بلغراد
صربيا
البوسنة
نيش
الجبل الأسود
بلغاريا
بلقنا
فارنا
بورغاس
يمبولي
صوفيا
نهر ماريتسا
تابعة للصربيا 1913
ألبانيا
دورس
شكدار
تراقيا
تابعة لليونان 1922-1920
أدريانوبل
بحر مرمرة
أنقرة
تركيا
مقدونيا
سالونيك
تاسوس
غاليبولي
بحر إيجة
تساليا
اليونان
جانينا
لاريسا
كورفو
ميتيليني
إزمير
أثينا
بلوبونيز
ساموس
البحر الأيوني
أرخبيل السيكلادس
رودس
إيطاليا
كريت
قبرص
البحر المتوسط
20°
30°
40°

الأقليات المسلمة في الصين



هذه المئذنة الصينية مثال حيّ على قابلية العمارة الإسلامية للتكيُّف مع الأشكال البلدية المحلية. وخلافاً لما هي عليه الحال بالنسبة للكاتدرائية أو الكنيسة، ليس هناك شكل معماري مفروض دينياً للمسجد سوى المحراب، الذي يُحدِّد اتجاه القبلة أو وجهة الصلاة.

تتحدّر الجاليات الإسلامية الموجودة في الصين من التّجار العرب والفرس والآسيويين (من آسيا الوسطى تحديداً) والمغول، الذين تزوجوا من صينيات وعاشوا في الأغلب ضمن جاليات صغيرة متجمّعة حول مسجد مركزي. وأحفاد هؤلاء، بالإضافة إلى الوافدين الآخرين من منغوليا وآسيا الوسطى على مر الزمن، يُعرفون في الصين بأبناء قومية «هوي». يُشكّل الـ«هوي» نصف مسلمي الصين تقريباً البالغ عددهم عشرين مليون نسمة. وخلافاً للمجموعات الإسلامية الأخرى التي تميل إلى التمركز في مناطق محاذية لجمهوريات آسيا الوسطى، ينتشر أبناء قومية «هوي» في كل أرجاء الصين، وإنْ كان هناك تركّز خاص لهم في منطقة «نينغشيا هوي» ذات الحكم الذاتي. تعترف الدولة بالـ«هوي» كأقلية قومية، وهي ثالث أكبر أقلية في الصين، ولعلّها الأقلية الوحيدة التي تتحدّد بعامل الانتماء الديني. والأقليات الإسلامية الأخرى المعترف بها رسمياً تشمل الويغور في منطقة سينكيانغ، والقازاق والقيرغيز والأوزبك والتتار والطاجيك الذين تقع أوطانهم الأصلية في أراضي الاتحاد السوفييتي السابق.

صحيح أن أبناء قومية الـ«هوي» استنّوا طريقة حياة مميِّزة لهم كأقلية مسلمة تعيش خارج حدود «دار الإسلام»، إلاّ أنهم ليسوا بأي حال معزولين عن التيارات الروحية التي تهبّ من قلب العالم الإسلامي. فالصوفية، مثلاً، وجدت منافذ لها إلى داخل الصين مع مشايخ الطُّرُق النقشبندية والقادرية والكبراوية، التي أنشأت شبكات لها من الفروع والجمعيات في كل أنحاء البرّ الصيني. وخلال فترات الاضطراب التي دامت من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، ساهمت الطُّرُق الصوفية آنفة الذكر في تنظيم سلسلة من الثورات والعصيانات التي تزعّمها مسلمون في مناطق يونان وشانغتشي وكانسو وسينكيانغ. ومعظم هذه الاضطرابات كان وليد عُنفٍ بين المسلمين أنفسهم سببه وقعُ الأفكار الإصلاحية الوافدة من الجزيرة العربية على مجتمعات الـ«هوي» المحلّية. ففي عام 1781، مثلاً، سيق أحد مشايخ الطريقة النقشبندية، ويدعى ما مينغشين (م 1719)، وكان قد درس في الجزيرة العربية واليمن طوال ست عشرة سنة، إلى منصة الإعدام لتزعّمه حركة عُرفت بـ«المذهب الجديد» أو «الطائفة الجديدة»، وتصدّت في ذلك الوقت لبدعة تقديس الأولياء. وخلال الستينيات والسبعينيات من

القرن التاسع عشر، قام شيخ نقشبندي آخر، ويُدعى ماهوالونغ، بتمردٍ ضخم عزل به أمبراطورية تشينغ (مانشو) عن شمالها الغربي، ومهَّد السبيل لاندلاع ثورة الويغور في سينكيانغ. وفي أزمنة قريبة منا، نشطت عند منعطف القرن العشرين حركة إصلاحية ذات توجّه وهّابي عُرفت باسمها الصيني «إيهواني» (من اللفظة العربية: إخوان)، وقد عارضت بعض الممارسات التي اعتبرتها وثنية، من قبيل تبجيل أولياء الصوفية أو ارتداء ملابس الحِداد الصينية. وقد لقيت حركة «إيهواني»، في ظل الحكم الشيوعي، قدراً أكبر من الرعاية الحكومية من نظيرتها الـ«غديمو» (من اللفظة العربية: قديم) الممثّلة للأحناف الأكثر تقليدية. غير أن هذه الجماعات الإسلامية تعرّضت جميعاً للاضطهاد والقمع إبّان الثورة الثقافية التي أعلنها ماوتسي تونغ (1966–1976)، ووقعت مذبحة كبرى واحدة على الأقل بحق أبناء قومية هوي في أعقاب انتفاضة لهم في مقاطعة يونان، إلاّ أن رعاية الدولة لحركة «إيهواني» استمرت في ظل الأجواء المريحة التي تلت وصول دنغ شياو بنغ إلى السلطة.

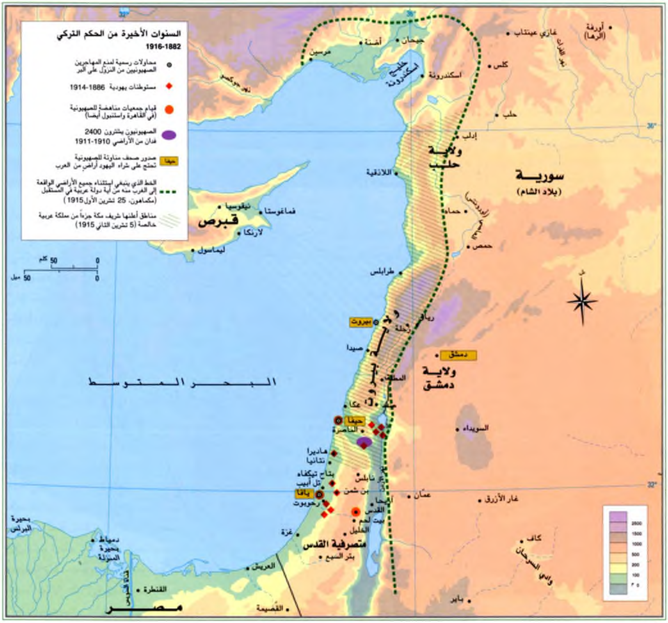
وبعد عودة مستعمرة هونغ كونغ إلى كنف الوطن الأم، جمهورية الصين الشعبية، نسجت الجالية المسلمة الصغيرة الموجودة فيها علاقات لها أيضاً مع المجموعات الإسلامية الأخرى على البرّ الصيني.



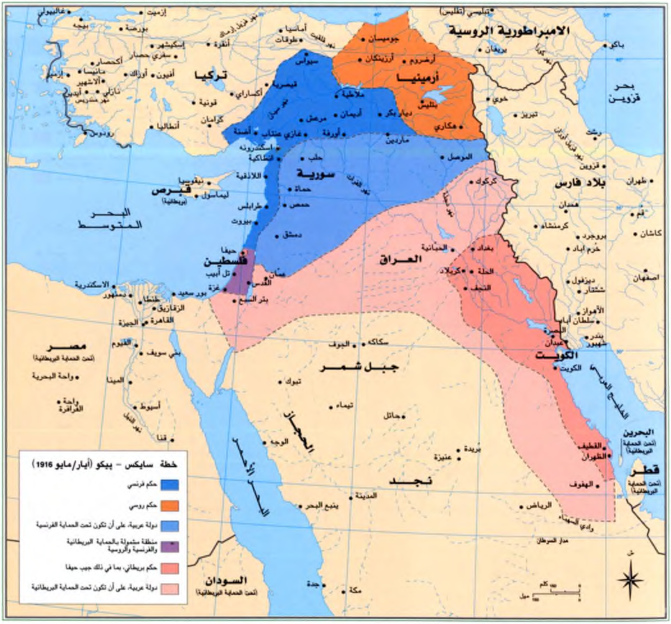


المشرق 1500 - 2000

بخلاف مصر التي حكمها العثمانيون، أو وكلاؤهم، كدويلة أو ولاية واحدة، بقي المشرق، الذي يضم سورية وجبل لبنان وفلسطين، خليطاً من الجاليات والطوائف المكبّلة بتشكيلة منوّعة من الانتماءات القبلية والعرقية والدينية تحت قيادة زعماء محلّيين. وقد كان هؤلاء رسمياً رعايا للسلطان العثماني حتى القرن العشرين، حين تقاسمت فرنسا وبريطانيا المنطقة وحوّلتاها إلى دول تابعة ذات هويات قومية مهزوزة. لقد ظلّ المشرق عُرضةً لتأثير الغرب الثقافي زمناً طويلاً بعد رحيل الصليبيين عنه؛ وحسبنا ان نذكر هنا

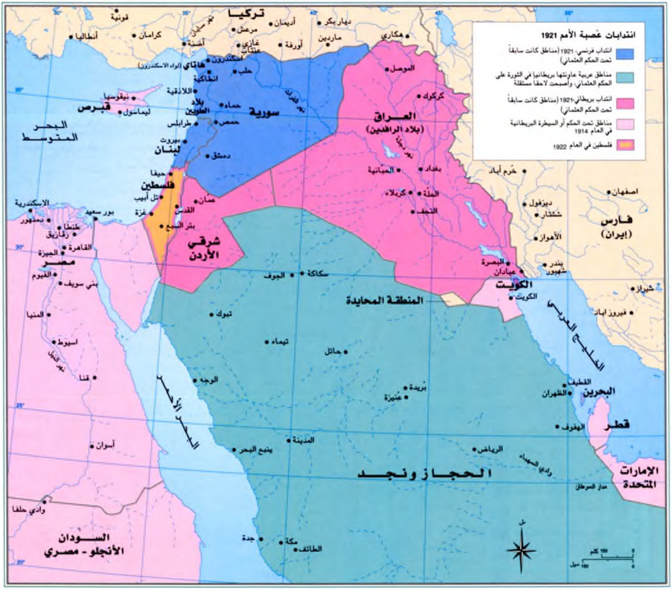


أن الكنيسة المارونية، التي تتخذ من جبال لبنان الشمالية قاعدةً لها، قد ثبتّت الطقوس اللاتينية واعترفت بالسيادة البابوية. أما المرتفعات الجنوبية المطلّة على سهول الجليل، فهي موطن الدروز، وهم نحلة منشقّة عن الشيعة الإسماعيلية. في ظل الأسرة المعنيّة (1544–1697)، والأسرة الشهابية (1697–1840) التي حلّت محلها، كان تقاسم السلطة والنفوذ بين الموارنة والدروز متكافئاً إلى حد ما، وكان الولاة الأتراك حريصين على الموازنة بين مصالح كلتا الفئتين. غير أن تراجع السلطة العثمانية منذ القرن الثامن عشر اقترن بتصاعد التوتر والمنازعات الطائفية بين الموارنة والدروز، توّجّجها المنافسة الحادّة التي كانت محتدمة بين فرنسا وبريطانيا. وهذا ما أدّى إلى وقوع سلسلة من المذابح والحروب الطائفية



المريرة ما بين عامَيْ 1838 و 1860.

وفي أعقاب هزيمة العثمانيين في العام 1918، جرى تقسيم المشرق إلى مناطق نفوذ بين الفرنسيين والبريطانيين، وقام الحلفاء المنتصرون في الحرب بخلق أربعة بلدان تابعة – هي العراق وسورية ولبنان وفلسطين – من الولايات العثمانية السابقة. طرد الفرنسيون الأمير فيصل، ابن شريف مكّة وقائد الثورة العربية ضد الأتراك، الذي أقام حكومة موّقتة في دمشق، ليبسطوا من ثم سيطرتهم المباشرة على سورية ولبنان، فيما شرَّعت بريطانيا فلسطين للهجرة اليهودية واستيطان يهود أوروبا فيها، وأقامت نظاماً ملكياً تابعاً لها في كلٍ من شرقي الأردن والعراق. لكن وفيما أوجد الفرنسيون إدارة حديثة في سورية، وبنوا بنية تحتية من الطرقات وشبكات الاتصال والمواصلات، فإنهم عملوا على تقويض دعائم الوحدة الوطنية بتقسيمهم البلاد إلى دوائر إدارية من شأنها مفاقمة الانقسامات العرقية والمذهبية. وقد شجّعوا بنوع خاص تطوّع أبناء الطائفة العلوية (وهم فئة من





الشيعة القاطنين في الجبال المطلّة على مدينة اللاذقية)، في صفوف الجيش. وبعد الاستقلال، تمكّن العلويون من إحكام سيطرتهم على حزب البعث، الحزب ذي التوجّه القومي، وبذلك أقاموا في البلاد نظاماً بعثياً يجمع ما بين الفكرة الاشتراكية المستوردة من أوروبا الشرقية والنزعة العصبية العربية الموغلة في القِدم.

كذلك عمد الفرنسيون إلى تكبير حجم لبنان بضمّهم أقضية طرابلس وصيدا وسهل البقاع وجنوب لبنان إلى الولاية العثمانية الصغيرة السابقة، الأمر الذي أدّى إلى زيادة كبيرة في نسبة المسلمين من الطائفتين السُّنّية والشيعية. وبناءً على سوابق عثمانية، اشترع الفرنسيون دستوراً تتقاسم بمقتضاه الطوائف الدينية الرئيسية السلطة، على أن يحتفظ الموارنة بالسُّلطة العليا من خلال احتلالهم منصبَيْ رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش بصرف النظر عما يطرأ من تغييرات ديمغرافية على تركيبة السكّان. وقد أُعيد تثبيت نظام تقاسم السلطة هذا القائم على أسس طائفية، في الميثاق الوطني لعام 1943، الذي أرسى دعائم الحكم بعد الاستقلال. صحيح أن هذا النظام أمّن قدراً لا بأس به من السلام الاجتماعي، إلاّ أنه وقف حجر عثرة في وجه تقدم الوطن وتطوّره. وحين استخدم الفلسطينيون الأراضي اللبنانية لشنّ هجمات على إسرائيل في السبعينيات من القرن العشرين، أعادت العمليات الانتقامية الإسرائيلية إحياء الانقسامات والحزازات الطائفية القديمة، ما أدّى إلى وقوع حرب أهلية واسعة النطاق (1975–1982)، وإلى تشظّي لبنان مناطق تُسيطر عليها الميليشيات المسيحية والشيعية والسُّنّية والدرزية. ولعلّ ما فاقم حالة الفوضى هذه، قيام الإسرائيليين باجتياح لبنان في عام 1982، بهدف طرد منظمة التحرير الفلسطينية من قواعدها في لبنان. وكانت الحصيلة الرئيسية لهذا الاجتياح، فرض سورية هيمنتها على البلاد بحكم الأمر الواقع، وبروز «حزب الله» الشيعي المدعوم من سورية وإيران، كعدو لإسرائيل أقوى ساعداً وأشدّ فاعليةً من الفلسطينيين. وقد تبيّن أن الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان مكلف وغير مُجدٍ البتة، مما حمل الحكومة الإسرائيلية على الانسحاب من لبنان من طرف واحد في العام 2000.





مشاهير الرحّالة المسلمين

أمضى الرحّالة ابن بطوطة سنةً كاملة أو أكثر في جزر المالديف، حيث قبل بعد شيء من التردد منصب قاضي القُضاة المعروض عليه. كان رأيه في الناس هناك أنهم يتصفون بالاستقامة والورع، لكنه استهجن خروج النساء على الملأ عاريات الصدور.

كان الحجّ إلى مكّة باعثاً على ولادة جنسٍ أدبي غني، هو أدب الرحلات. فقد كان بعض الحجّاج يدوّنون يوميات عن رحلتهم أو يُملون مروياتهم على كتبة مختصين، آتين على ذكر تفاصيل مدهشة تتناول كل شيء تقريباً، من أصناف الطعام إلى صروح العمارة.

ولعلّ أكثر الروايات استدعاءً للعجب والإعجاب في هذا النوع من الأدب، كتاب «سفرنامه» للشاعر والفيلسوف الفارسي ناصري خسرو (1003–1088)، الذي ارتحل إلى القاهرة عن طريق نيسابور والري وبحيرة وان وحلب والقدس. ومن القاهرة قام برحلتَيْ حجّ إلى مكّة قبل أن يقفل راجعاً إلى آسيا الوسطى بصفته الداعي الإسماعيلي الأكبر للخليفة والإمام الفاطمي المستنصر بالله (ح 1036–1094). ولمّا هُوجم خسرو على دعوته هذه من جانب جمهرة من المسلمين السُنّة في مدينة بلخ، بتحريضٍ من الأمراء السلاجقة على أرجح الظن، لجأ إلى بداخشان في غرب جبال البامير، حيث عاش بقية حياته في حماية أمير إسماعيلي هناك. والإسماعيليون في البامير، التي تقع في شرق أفغانستان وأراضي جمهورية طاجيكستان السوفييتية السابقة، يُعظّمون شأنه ويحيطونه بالتبجيل بوصفه وليّهم المؤسِّس. وفي الأساطير المحلّية أنه لم يهدِ الناس إلى العقيدة الإسماعيلية فحسب، بل هو من أعطى قُراهم وبلداتهم جميعاً أسماءها أيضاً. وفي حين تعكس أشعار ناصري خسرو حالة الوحشة التي كان يعيشها في المنفى، فإن السجيّة العقلانية التي تسم كتاباته الفلسفية جعلته مقبولاً لدى الشيوعيين الذين استولوا على المنطقة في العام 1920، فاستبقوه معزَّزاً مكرّماً باعتباره بطل طاجيكستان القومي.

والقاهرة بحسب وصف خسرو لها في كتابه آنف الذكر، تُعدّ قدوة تُحتذى في الإدارة الحكيمة والعادلة. فالحرفيون هناك يتقاضون أجوراً مقبولة، الأمر الذي يحدوهم إلى تحسين نوعية منتجاتهم باستمرار. والجنود يتسلّمون معاشهم بانتظام، وهذا ما يجعلهم أقلّ ميلاً إلى التحرّش بالفلاحين ومضايقتهم. والقُضاة يحصلون على رواتب عالية، وبذلك تُضمن نزاهتهم ويوفِّرون على الرعية عاقبة الفساد والجور. وإذا ما ضُبط تاجرٌ يغشّ زبوناً، فإنه «يوضع على ظهر جمل وبيده جرس، فيُدار به في طُرقات المدينة وهو يرنّ الجرس صائحاً: اقترفتُ إثماً كبيراً وها أنذا ألقى جزاء ما صنعتُ. وكل من يستغويه الغشّ، يُجلّله العار على رؤوس الأشهاد».

الصيغة العربية من رواية الحجّ أو التسفار تُعرف

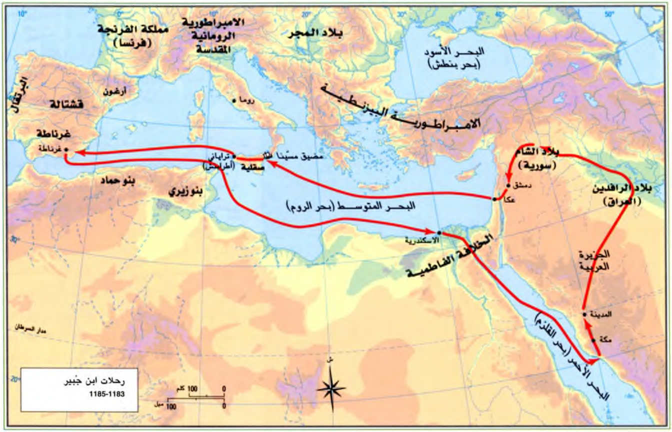


بـ«الـرحـلـة». وهـذا الجنس الأدبـي هـو من ابـتداع ابن جُبير الأندلسي (1145–1217)، الذي دوّن وقائع رحلة شهيرة له دامت سنتين، انطلق فيها من غرناطة في شهر شباط/فبراير 1183 قاصداً مكّة. وهناك أقام ابن جُبير تسعة أشهر قبل أن يعود من الديار المقدسة الإسلامية عن طريق العراق وعكا، حيث صعد على متن سفينة جنوية متّجهة إلى صقلية. وبعد أن كُتبت له النجاة إثر غرق السفينة في مضائق مسّينا، استقلّ مركباً آخر في تراباني ووصل سالماً إلى غرناطة في نيسان/إبريل 1185. تسوق لنا رواية ابن جُبير فيضاً من المعلومات والحقائق عن الأقطار والأمصار التي مرّ بها، وتُشكّل مرجعاً لا يُقدّر بثمن لمعرفة أحوال الصليبيين ووضع الملاحة في البحر المتوسط، والوقوف على الظروف السياسية والاجتماعية السائدة في ذلك العصر. إنـها بـحق نموذج حيّ لـعديد من الروايات الأخرى، لعلّ أهمّها طُراً الرحلة التي قام بها أعظم الرحّالة المسلمين على الإطلاق، المغربي ابن بطوطة (1304– ن 1370)، وأخذته من موطنه طنجة إلى الصين، فإلى إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى (بلاد الزنج). أدّى ابن بطوطة فريضة الحجّ ست مرّات على الأقل في سياق رحلاته وأسفاره، والفصول الأولى مما حكاه عنها يستوفي تماماً مواصفات أدب الرحلات. لكن حيث إن رحلاته أخذت تستطيل بشكل مطّرد سواء في الزمن أم في المدى، فقد صارت روايته أكثر شمولاً وأوسع إحاطةً، فجاء كتابه متضمناً وصفاً منقطع النظير للعالم المعروف آنذاك. وعلى غرار رواية



رحلات ناصري خسرو
حوالى 1040

ماركو بولو التي لا تقلّ عن روايته شُهرةً، لم يدوّنها ابن بطوطة بقلمه هو، بل أملاها إملاءً على معاونٍ له، هو الكاتب والدارس الغرناطي ابن جُزي (1321– ن 1356). فقد سجّل ابن جُزي مرويات ابن بطوطة في كتابٍ بناءً على إيعاز من أمير فاس، أبو عِنان (ح 1349–1358). وفي الوقت الذي كان فيه الكتاب قيد التدوين، كان الجنس الأدبي، أدب الرحلات، قد استتبّ فعلاً بين صفوف المتعلّمين، فثارت التساؤلات هنا، كما بشأن مجمل روايات الأسفار الأخرى، حول بعض ما جاء في وصف ابن بطوطة، وهل يُمكن الركون إليه. يلمّح باحثٌ عصري إلى أن ابن جُزي ربما يكون قد «اشتط كثيراً في الميل إلى الغرائبية، بينما العمل الأصلي كان بالتأكيد أكثر اعتدالا»، فتصرّف من عنده في بعض ما حكاه ابن بطوطة لأسباب ربما لها علاقة بالأسلوب. غير أن مراوغات الكَتَبة وألاعيبهم لا يُمكنها أن تنال من سمعة ابن بطوطة بوصفه واحداً من أعظم الرحّالة في كل العصور. إنّ الثروة من المعلومات التي تركها للأجيال القادمة جميعاً عن العالم في عصره، ليس لها نظير في الواقع. فمثل الرحّالة العظام كافة، تُخبرنا ملاحظاته ومشاهداته الشيء الكثير عن عالمه الاجتماعي بقدر ما تُخبرنا عن البلاد التي زارها وطاف في أرجائها. كانت له عين ثاقبة تلتقط أدقّ التفاصيل. وفضوله يأخذ قارئه إلى ما وراء مظاهر الحياة المألوفة؛ وكل جملة من جُمله تنطوي على قدرٍ غير يسير من التساؤل والاستفهام كهذه الجُملة: «وكفّار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم، وهم أهل رفاهية وسعة عيش. إلاّ أنهم لا يحتفلون في مطعمٍ ولا ملبس، وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تُحصى أمواله كثرةً عليه جبة قُطن خشنة». والتباين هنا تامٌ مع ما كان



بادياً في المجتمعات الإسلامية، حيث الأقمشة محل تقدير رفيع، والأقمشة التي تُلبس في العلن مؤشّر مهمّ على ما يتمتع به المرء من جاه وما يتبوؤه من مكانة اجتماعية. وقد أُعجب ابن بطوطة بالأفارقة في «سلطنة» مالي لما يتحلّون به من تقى وورع، ولاسيما عنايتهم بحفظ القرآن عن ظهر قلب: «وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقّهم التقصير في حفظه، فلا تُفك عنهم حتى يحفظوه». غير أنه لا يستهجن عادة ظهور النساء عندهم باديات العورات كقوله: «ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات. وتعرّي بناته... ومنها أن كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير».



صُنع الأسطرلاب. هذه الخطيطة العائدة إلى القرن الحادي عشر وضعت بقصد تعيين اتجاه مكة – الأمر الفائق الأهمية بالنسبة للمسلمين عند إقامة الصلاة.



بريطانيا في مصر والسودان خلال القرن التاسع عشر



لقي الجنرال تشارلز جورج غوردون، الملقّب بـ«الصيني» (1833–1885)، حتفه على أيدي قوات المهدي فوق الدرج المؤدي إلى مقر الحاكم في الخرطوم بعد حصار دام خمسة أشهر. اعتبره الجمهور البريطاني شهيداً مسيحياً، ولذلك ثأر كيتشنر لمقتله بأن أعاد إخضاع السودان عام 1898. هذا الرسم بريشة الرسّام الفيكتوري لويس ديكنسون يحمل عنوان «مناوبة غوردون الأخيرة».

بدأت هيمنة بريطانيا على مصر مع النظام التحديثي لمحمد علي، الذي كان بالاسم والياً عثمانياً على مصر، بينما هو في الواقع حاكم مستقلّ فعلاً؛ وكذلك مع سليله الخديوي إسماعيل (ح 1863–1879)، الذي كان مفتوناً إلى حد الهوس بأوروبا. فمخططات إسماعيل باشا الطموحة للتنمية الاقتصادية، ومن ضمنها مدّ السكك الحديدية وخطوط البرق وشق قناة السويس (افتُتحت عام 1869)، أدّت إلى إفلاس البلاد وفرض إدارة مالية أجنبية عليها. فأعلنت مجموعة من ضباط الجيش المصري من أبناء البلاد الأصليين، يُساندها رجال الدين وملاك الأراضي والصحفيون وداعية الوحدة الإسلامية الجامعة جمال الدين الأفغاني، عن معارضتها لنظام إدارة الدَّيْن، واستولت على وزارة الحربية حيث شكّلت حكومة برلمانية برئاسة الوزير «الثائر» عُرابي باشا. عندئذ عمد وليام غلادستون، رئيس الوزراء البريطاني، إلى قصف الإسكندرية، وقام بإنزال قواتٍ على الأراضي المصرية، فألحقت الهزيمة بجيش عُرابي في معركة «التل الكبير». وفي ظل المقيم البريطاني، السير إيفلين بارينغ (لاحقاً: اللورد كرومر)، الذي تولى الشؤون المالية في الحكومة، جرت إدارة الاقتصاد المصري بنجاعة، إنما لما فيه مصلحة الأمبراطورية. وشهد الإنتاج الزراعي تحسّناً من جراء إقامة السدود وخزانات المياه للتحكّم بفيضان النيل، وتوسيع شبكة السكك الحديدية. فتضاعفت كميات القطن الخام المزروع لأغراض التصدير، لكن البريطانيين حرصوا على تقييد عملية التصنيع خوفاً من تشجيع المنافسة.

بدأ الاختراق المصري للسودان في عشرينيات القرن التاسع عشر، حين أطاح محمد علي بسلطنة الفُنج كجزء من رهانه على إقامة إمبراطورية مصرية في إفريقيا. في عام 1830، أُنشئت الخرطوم على النيل الأبيض كعاصمة محصّنة جديدة. وباستخدامهم ضباطاً أوروبيين لقيادة القوات المجنّدة المحلّية والقوات المصرية، تمكّن خلفاء محمد علي من توسيع نطاق سيطرتهم إلى أعالي النيل والأقاليم الاستوائية. وعملاً بمبادىء الإصلاح الإداري التي كانت رهن التطبيق آنذاك في مصر والأمبراطورية العثمانية، فرض المصريون نظام احتكار الدولة للتجارة – حتى الغارات لاصطياد العبيد صارت من أعمال الدولة – في الوقت الذي وحّدوا فيه معايير الإجراءات القضائية وفقاً للمذهب الحنفي المعمول به رسمياً في الأمبراطورية العثمانية. وهذا ما انتقص من سلطة العلماء المحليين، وهم من المذهب المالكي، كما أضعف من جهة أخرى كافة البدع الصوفية المحلّية. ومن المفارقة بمكان، ان هذا التدبير جاء مُساعداً في نشر الطُرُق ذات التوجّه الإصلاحي، كالطريقة السَّمَّانية والطريقة الختمية، اللتين طلع بهما حُجّاج عائدون من الحجاز، حيث كانت الروح الإصلاحية على أشدّها منذ القرن الثامن عشر.

وحين أُلغيت احتكارات الدولة المصرية في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، شرع الأوروبيون بدخول السودان لتسلّم مقدرات التجارة في موادٍ مثل الصّمغ العربي وريش النعام والعاج، الأمر الذي ألحق ضرراً فادحاً بمشاريع الأعمال المحلّية. وبضغطٍ من بريطانيا، وقّعت الحكومة عام 1877 ميثاقاً تحظر بموجبه كل أشكال النخاسة. وقد تفجّرت مشاعر الاستياء من هذا الإجراء في ثورة كبرى أشعل فتيلها وتولى زمامها محمد أحمد. كان هذا الأخير شيخاً من مشايخ الطريقة السَمّانية، وكان يتمتع بسمعة عطرة تشهد له بالتقوى والصلاح. في تشرين الثاني/نوفمبر 1882،




شمال شرقي إفريقيا
1898-1840
السلطنة العثمانية
نيابة السلطنة العثمانية/ مصر في ظل محمد علي، 1840
تابعة لمصر، 1871-1874
رقعة النشاط الرئيسية للطريقة السنوسية، الحركة الإصلاحية الإسلامية بعد 1856
الدولة المهدية، 1881-1898
الحدود الشمالية لمنطقة التجارة الحرة بمقتضى قرار مؤتمر برلين لعام 1885
الحبشة في أقصى اتساعها في عهد منليك ملك قبائل الشوا (منليك الثاني)، حوالى 1907
احتلتها بريطانيا عام 1882
تابعة لإيطاليا بحلول 1889
تابعة لفرنسا بحلول 1890
تابعة لبلجيكا
إيطاليا
البحر الأسود
اسطنبول
بر الأناضول
بحر قزوين
اليونان
البحر المتوسط
السلطنة العثمانية
طرابلس
بنغازي
إيالة طرابلس
إيالة برقة
الإسكندرية
القاهرة
الصحراء الليبية
إيالة فزان
مرزق
أسوان
مصر
تحت الحماية البريطانية منذ 1882
البحر الأحمر
الجزيرة العربية
مكة
سواكن
1883
دنقلة
أم درمان
1898
الخرطوم
1895
الدولة المهدية
الأبيض
1883
إيالة دارفور
تابعة لمصر 1874
دارفور
جبال النوبة
فاشودة
نوير
دينكا
المديرية الاستوائية
تابعة لمصر 1871
وداي
زاندي
جميرة
مصوع
جزر دهلك
إريتريا
اليمن
تيغري
عدوة
1896
أمهرة
مجدلة
1868
قوارة
الحبشة
غوجام
شوا
أديس أبابا
هرر
صومال
أوروموا
جيما
صيداما
الصومال
جيبوتي
زيلع
إفريقيا الشرقية البريطانية
دولة الكونغو الحرة
منذ 1885
بوغندا
بحيرة فكتوريا
إفريقيا الشرقية الألمانية
منذ 1885
المحيط الهندي
خط الاستواء

أعلن محمد أحمد على الملأ أنه هو المهدي (أي «المسيح» المسلم الذي كان ظهوره منتظراً على نطاق واسع في نهاية القرن الثالث عشر للهجرة)، ومن ثم استنهض قبائل البقارة الرعوية للتمرد على الحكومة التركية – المصرية «الكافرة». وبعد أن أباد قوة من ثمانية آلاف مجنّد محلّي بقيادة هيكس باشا في شيخان، انتقل المهدي للاستيلاء على أم درمان والخرطوم. وهناك لقي الجنرال غوردون مصرعه على درج دار الحاكم بعدما رفض الامتثال للتعليمات المعطاة له بوجوب إخلاء الحامية. وهذا ما أورث الجمهور الفيكتوري في بريطانيا عطشاً شديداً للثأر. وقد مات المهدي بعد ذلك بستة أشهر (بحُمى التيفوئيد على الأرجح) إثر دخوله الخرطوم دخول الظافرين. وبقيادة خليفة عبدالله الطايشي، الذي خلفه في زعامة الحركة، استمرت تلك الحركة في الامتداد والتوسّع جنوباً نحو جبال النوبة ومنطقة بحر الغزال. وهذا ما أدخل العديد من أقوام الإرواحيين غير المسلمين، ومنهم النوير والدينكا وسواهما، في مدارها مما بذر البذور لنزاعات وصراعات ستتفجّر مستقبلاً.

لقد كان قدر الدولة المهدية الهلاك، لأنها تحدَّت وأذلّت قوة بريطانيا في منطقة حسّاسة استراتيجياً لفرنسا فيها، هي الأخرى، أطماعها ومآربها الأمبريالية. ففي عام 1898، تعرّض جيش خليفة البالغ تعداده 50 ألف رجل لمذبحة مروِّعة على يد قوة إنجليزية – مصرية مشتركة بقيادة الجنرال هربرت هوراشيو كيتشنر. فما كانت حراب خليفة ولا بنادقه العتيقة لتُضاهي بأي حال رشاشات «غاتلينغ» الحديثة التي كان أحضرها كيتشنر عبر مجرى النيل في أسطوله الصغير من المراكب البُخارية المصفّحة.

آلت هزيمة المهدي إلى نصف قرنٍ أو أكثر من الحُكم البريطاني في ظل السلطة الإنجليزية – المصرية المشتركة. وهنا اعتمد أتباع المهدي السابقون – وكانوا يُعرفون بـ «الأنصار» تيمناً بأنصار الرسول محمد في المدينة – مبدأ الجهاد «السلمي»، موسّعين نطاق نفوذهم ليشمل المناطق المدينية. في عام 1944، شكّل زعيمهم سيد عبد الرحمن، ابن المهدي، «حزب الأمة»، الذي أبقى على تعاونه مع البريطانيين حتى وهو يعمل من أجل الاستقلال. في حين شكّل أتباع الختمية «حزب الاتحاد الوطني»، المحبِّذ للاتحاد مع مصر، لمواجهة نفوذ الأنصار. ولئن لقيت فكرة الاتحاد هذه رفضاً باتاً بعد الثورة المصرية عام 1952، فإن المنافسة المريرة بين الحزبين الدينيين ظلت قائمة، مما فتح الباب لمجيء الحكم العسكري، أولاً بقيادة اللواء إبراهيم عبّود (ح 1954–1964)، ولاحقاً بقيادة الفريق جعفر النميري (ح 1969–1985). حاول النميري في البدء رأب الصدع ما بين الشمال المسلم والجنوب غير المسلم بمعظمه (غالبيته من المسيحيين والإرواحيين)، وذلك بمنح حكم ذاتي محدود لمديرية بحر الغزال والمديرية الاستوائية ومديرية أعالي النيل. غير أن النميري بدّل اتجاهه على نحو جذري في العام 1983، وشنّ حملة لأسلمة البلاد أسلمة تامّة. وقد سانده في ذلك حسن الترابي، زعيم الجبهة القومية الإسلامية (النسخة السودانية من حركة «الإخوان المسلمين» في مصر). صحيح أنه جرت الإطاحة بالنميري في عام 1985 بعدما أضحى شخصاً غريب الأطوار وغير متزن على نحو متزايد، إلاّ أن عمر البشير الذي استولى على مقاليد السلطة بمساعدة الترابي في انقلاب عسكري عام 1989، مضى قُدماً في تطبيق برنامج الأسلمة إيّاه. أثار إصرار الترابي على تعريب وأسلمة السكّان من غير المسلمين، إلى حد تطبيق العقوبات الإسلامية عليهم، أثار مقاومة متعاظمة في صفوف أبناء الجنوب. فانضم عدد غفير منهم، أو قدّموا المساندة، إلى الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة العقيد جون قرنق. وهذا الصراع ما بين الشمال والجنوب، وهو بالمناسبة أطول حرب أهلية متواصلة في إفريقيا، يصفه أحد المؤرخين المرموقين بأنه «حرب أهلية ذات أبعاد تُقارب الإبادة الجماعية... يُلجأ فيها إلى استخدام تكتيكات من ضمنها تجويع السكان المدنيين وإجبارهم قسراً على النزوح عن ديارهم». إن الأقوام التي تعتنق الديانات الإفريقية، مثل النوير والدينكا، تعرّضت ولا تزال لمحاولات إدخالها في الدين الإسلامي عنوةً. وقد استخدم عمر البشير برنامج الجبهة القومية الإسلامية، القاضي بتطهير صفوف الجيش العليا ودوائر الخدمة المدنية من غير الإسلاميين لا بل وإعدامهم، للقضاء على قوة الأحزاب السياسية التقليدية التي تُهيمن عليها الجماعات الصوفية. وبعد مضي عشر سنوات على الحكم الديكتاتوري، كان الترابي قد أدّى خلالها كل ما هو مطلوب منه، قام اللواء البشير بانقلاب «داخلي» عزل فيه الترابي عن الحُكم في كانون الأول/ديسمبر 1999.


إفريقيا بعد مؤتمر برلين، 1885
ممتلكات بريطانية
ممتلكات فرنسية
ممتلكات عثمانية
ممتلكات برتغالية
ممتلكات إسبانية
ممتلكات ألمانية
دول إفريقية
حدود منطقة التجارة الحرّة بحسب القرار الصادر عن مؤتمر برلين، 1885
500 كلم
500 ميل
إسبانيا
البرتغال
ماديرا
طنجة
فاس
مراكش
جزر الكناري
إفني
تابعة لإسبانيا
وهران
الجزائر
الجزائر
1890-1871
تونس
تونس
محمية 1881
البحر المتوسط
طرابلس
طرابلس
إيالة عثمانية
فزان
إيالة عثمانية
مرزق
برقة
الإسكندرية
القاهرة
مصر - نيابة السلطنة العثمانية
احتلال بريطاني 1882
أسوان
وادي حلفا
الجزيرة العربية
البحر الأحمر
مدار السرطان
الصحراء الكبرى
السنغال
سان لوي
دكار
غامبيا
كيس
تمبكتو
غينيا البرتغالية
منطقة عمليات ساموري
فريتاون
سيرا ليون
مونروفيا
ليبيريا
ساحل العاج
ساحل الذهب
أشانتي
ياتنغا
واغادوغو
غورما
ماميروسي
دوغومبا
لومي
بنين
بورتو نوفو
لاغوس
خلافة
سوكوتو
سوكوتو
كانو
كانم
بورنو
كوكا
وداي
يولا
أداماوا
دارفور
الفاشر
الأبيض
دولة المهدي
1898-1881
دولة رابح
الخرطوم
مروي
مصوع
عصب
أوبوك
قندار
الحبشة
الصومال البريطاني
المديرية الاستوائية
زاندي
دوالا
تابعة لألمانيا 1884
جزيرة فرناندو بو
جزيرة برنسيبي
جزيرة ساوتومي
ريو موني
ليبرفيل
الغابون
دولة الكونغو الحرة
برازافيل
ليوبولدفيل
كابيندا
1891-1886
بحيرة فيكتوريا
ويتو
1890-1885
مومباسا
جزر بمبا
جزر زنجبار
جزر الدابرا
جزر القمر
خط الاستواء
المحيط الأطلسي الجنوبي
أمبريز
لواندا
لوبا
لوندا
كازيمبي
بنغويلا
بحيرة نياسا
نهر زامبيزي
لوزي
تيتي
موزامبيق
تاناناريف
مدغشقر
محمية فرنسية
1885
مملكة متابل
جنوب غرب إفريقيا الألماني
محمية ألمانية
1884
خليج والفيز
لودريتز
تابعة لألمانيا
1883
بيرا
جمهورية جنوب إفريقيا
أرض الزولو
ناتال
دربان
مستعمرة الكاب
كيبتاون
(مدينة الكاب)
المحيط الهندي
مدار الجدي

فرنسا في شمال إفريقيا وغربها

الفتحُ الفرنسي لشمال غربي إفريقيا لم يبدأ جدياً إلاّ في العام 1930، حين أقدمت حكومة الملك البوربوني المستعيد عرشه، شارل العاشر، مسنودةً من تجار مارسيليا، أصحاب المصالح القديمة في تجارة الصوف، على غزو الجزائر. وفي حين احتلَّ الفرنسيون مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية، أثار حلول الأوروبيين محل العثمانيين في المناطق الداخلية من البلاد حركة مقاومة تزعّمها الأمير عبد القادر الجزائري، ابن شيخ مشايخ الطريقة القادرية، بالتحالف مع سلطان المغرب. وبعد انكسار الجيش المغربي على يد الجنرال توما – روبير بوغو في معركة إيسلي عام 1844، زالت كل الحواجز من أمام الاستيطان الفرنسي هناك. أقدم بوغو على تخريب البساتين والمحاصيل الزراعية، وعلى تدمير قرى بأكملها، مُزهقاً أرواح أعداد غفيرة من الناس، وتاركاً عشرات الآلاف منهم يموتون جوعاً. تمت مصادرة مساحات شاسعة من الأراضي، وجرى تهجير عشائر برمّتها، عربية وبربرية على السواء، إفساحاً في المجال أمام توطن المستوطنين الفرنسيين والأوروبيين. شهد القرن الثامن عشر قيام حركات تمرد وعصيان عديدة ضد الفرنسيين، بلغت ذروتها في انتفاضة كبرى سُرعان ما سُحقت في عام 1871. وقد





استمر استيطان الأراضي المُنتجة في الشريط الساحلي الجزائري حتى إلى ما بعد حلول القرن العشرين. ففي عام 1940، كان المستوطنون الأوروبيون يملكون زهاء 2,7 مليون هكتار، أي ما يُمثل 35 إلى 40 بالمئة من الأراضي الصالحة للزراعة، تُشكّل الأنبذة (المحرَّم شربها على المسلمين) أهمَّ صادراتها.

والتخريب الثقافي كان هائلاً هو الآخر. فقد حُظرت المعاهد الإسلامية التقليدية أو حُجزت مواردها المالية. وكان من المفترض أن تُستبدل بمدارس فرنسية، إلاّ أن أقلية صغيرة جداً من المسلمين الجزائريين استفادت من ذلك. وعلى عكس بريطانيا التي كانت تؤثر حُكم أمبراطوريتها من خلال وكلاء مطواعين لها، رأت فرنسا أن تنتج سياسة الاستيعاب. ولئن كان تطبيقها لهذه السياسة محدوداً، إلاّ أنها خلقت نُخبة فرانكفونية صغيرة تتماهى مع الحضارة الفرنسية. في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، برزت حركة قومية تضم مصلحين إسلاميين يتحلّقون حول عبد الحميد بن باديس، وقوميين عرباً يستلهمون أفكار مصالي الحاج، وقد أصابت تلك الحركة نجاحاً ببذرها البذور لقيام حرب استقلالية ناضجة الشروط، وهي التي اندلعت فعلاً في أواخر الخمسينيات من ذلك القرن بدعم من الكتلة السوفييتية ومصر والبلدان العربية الأخرى. في عام 1958، استطاعت حركة مضادة قام بها مستوطنون فرنسيون يعارضون استقلال الجزائر، أن تطيح بحكومة الجمهورية الرابعة وتأتي بالجنرال ديغول إلى الحُكم في فرنسا. لكن ديغول، وخلافاً لتوقعات المستوطنين، أقرَّ باستقلال الجزائر. وبعد مفاوضات مديدة في إفيان، اعترفت فرنسا بالسيادة الجزائرية في عام 1962. مهما يكن من أمر، فقد بقيت الروابط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين فرنسا والجزائر وثيقة للغاية، حتى بعدما حلت جبهة التحرير الوطني – الحزب القومي الذي فاوض على الاستقلال – محل الإدارة الفرنسية، تلك الأقلية الفرانكفونية شبه الاستعمارية التي كانت تتسيَّد على الأغلبية من الناطقين باللغتين العربية والبربرية (الأمازيغية). وفي كانون الأول/ديسمبر 1991، تدخل الجيش لمنع الجبهة الإسلامية للإنقاذ من الوصول إلى السلطة عبر انتخابات وطنية. وقد فقد أكثر من مئة ألف جزائري أرواحهم في غمرة الحرب الأهلية التي تلت ذلك، تلك الحرب التي عكست في جزء

منها صراعاً بين النخبة الفرانكفونية الملتزمة بالقيم الغربية وبين الإسلاميين الذين يعتقدون بأنهم يمتلكون شرعية ثقافية أرفع شأناً.

ولم تقف المطامع الاستعمارية الفرنسية عند حدود الجزائر فقط، بل تعدّتها إلى جارتها تونس أيضاً. كانت تونس ولاية عثمانية ذات حكم ذاتي، فأخذت فرنسا بالاستيلاء عليها تدريجياً اعتباراً من العام 1881. وبحلول عام 1945، كان نحو من 144 ألف مستوطن أوروبي يحتلّون خُمس مساحة الأراضي القابلة للزراعة. إلاّ أن هؤلاء المستوطنين لم يشكلوا في أي يوم مجموعة ضغط محلية قوية كنُظرائهم في الجزائر. لذلك ما إن مُنيت فرنسا بالهزيمة في الهند الصينية بعد الحرب العالمية الثانية، حتى سلّمت باستقلال تونس في العام 1956. والنسق عينه من التغلغل الاقتصادي الفرنسي المُستتبع بالسيطرة الإدارية والاستيطان الأوروبي حصل في المغرب أيضاً، إنما مع فارق رئيسي هو أن البلد احتفظ بوضعيته ككيان مُسلم في ظل الأسرة الشريفية (المتحدِّرة من سلالة الرسول) التي وصلت إلى السلطة في القرن السابع عشر. كان سلطان المغرب، مثل حكّام إيران في زمانه، يفتقر إلى الأموال اللازمة لدفع رواتب جنوده. وكان هذا وضعه بنوع أخصّ بعدما انتقل إنتاج السلعة الأعلى قيمة مالية لديه، ألا وهي السُكّر، إلى أيدي الأوروبيين ولاسيما مع تطور زراعة السكّر في جُزر الكناري والأميركيتين. وبغية الحفاظ على هيمنته على القبائل العاصية، رهن السلطان عائداته الجمركية واستلف دونما حساب من المصارف الفرنسية. وحين أثار ذلك ثورةً في صفوف العلماء، تدخل الفرنسيون بصورة مباشرة، فارضين الحماية على البلاد (إلى جانب محميّة أصغر حجماً أُعطيت لإسبانيا) في العام 1912. وهكذا طُرحت أراضي المغرب للبيع على الأوروبيين، الذين بلغت ممتلكاتهم منها بحلول عام 1953 زهاء مليون هكتار، أو ما يوازي 10 بالمئة من مساحة الأراضي التي تغلّ محاصيل زراعية، فضلاً عن 25 بالمئة من مجموع بساتين الفاكهة وكروم العنب، مع أن الأوروبيين بالكاد كانوا يُشكّلون واحداً بالمئة من مجمل عدد السكّان. غير أن الأُسرة الشريفية استطاعت على عكس الحال في الجزائر وتونس، أن تضع نفسها في مقدمة الحركة المُطالبة بالاستقلال. ففي عام 1953، جعل الفرنسيون من الملك محمد الخامس بطلاً قومياً وذلك عندما نفوه من البلاد بعدما رفض الموافقة على نظام «ازدواجية السيادة». وإثر وقوع مظاهرات حاشدة وأعمال عنف، سمح الفرنسيون للملك بالعودة، مسلّمين باستقلال المغرب في عام 1956. وما زالت الأسرة الحاكمة في السلطة إلى يومنا هذا، ممثّلة بحفيد محمد الخامس، الملك محمد السادس.

وهذا النموذج من الفتح الاستعماري الذي تتبعه ثورة وطنية، عاد وتكرر، وإنْ بوضوح وشدّة أقل، في أجزاء أخرى من الأمبراطورية الفرنسية في إفريقيا، حيث كانت للفرنسيين مطامع اقتصادية لكن مصلحة قليلة في الاستيطان.

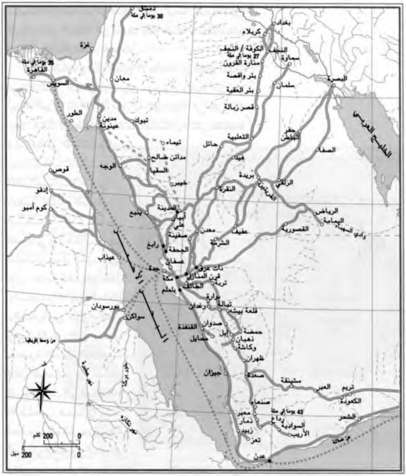


شمال غربي إفريقيا حتى 1914
ممتلكات بريطانية
ممتلكات فرنسية
ممتلكات إسبانية
ممتلكات برتغالية
ممتلكات بلجيكية
ممتلكات ألمانية
ممتلكات إيطالية
دول مستقلة

تمثلت مصلحتهم الاقتصادية الأولى في تحفيز إنتاج المحاصيل النقدية، مثل الفول السوداني والأخشاب وزيت النخيل. عمل الفرنسيون على جباية الضرائب نقداً، واستخدموا الأيدي العاملة بالسُخرة في مزارع الموز والكاكاو والبن. ومدّوا خطوط السكك الحديدية لنقل البضائع من مناطق الداخل إلى المحيط الأطلسي، فدمّروا بذلك أسلوب النقل بواسطة الجمال القديم والعريق. وتقوّضت أُسس التجارة الإفريقية باستيلاء العرب المشارقة واليونانيين والآسيويين من جنوب القارة على تجارة المفرّق في المستعمرات الفرنسية. وأَهمل التعليم الإفريقي، بحيث لم يُتح سوى لـ 3 بالمئة فقط من الأفارقة في الإمبراطورية الفرنسية أن ينالوا نصيباً من التعليم المدرسي. مع ذلك، فقد نبتت نخبةٌ فرانكفونية صغيرة هي من سيرتقي سُدة الحُكم بعد الاستقلال. وفي عام 1958، عرض ديغول على مستعمرات فرنسا في إفريقيا الاختيار بين الاستقلال الفوري أو الحُكم الذاتي ضمن الأُسرة الاقتصادية الفرنسية. وحدها غينيا اختارت الاستقلال الفوري، وكان اختيارها هذا مُكلفاً إذ أضرّ ضرراً فادحاً بإنمائها الاقتصادي. أما ما تبقّى من بلدان تابعة لفرنسا في غرب إفريقيا، فقد نالت استقلالها الناجز في غضون الستينيات من القرن العشرين.

نمو الحجّ وتطوُّر المشاعر المقدسة





الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو فريضة دينية يتوجب على كل مسلم أن يؤدّيها مرة واحدة على الأقل في حياته. وهذه الفريضة صارت اليوم سهلة يسيرة نسبياً بفضل النقل الجوي الذي في طاقة المرء تحمّل نفقاته. إن محطة الحجّاج في مطار جدة – وهي عبارة عن مبنى على شكل خيمة عملاقة يمتد على مساحة بضع عشرات الآلاف من الأمتار المربعة – لتستوعب في وقتٍ واحدٍ عدداً أكبر من المسافرين مما يستوعبه أي مطار في العالم. إن الحج يجمع بالمعنى المادي للكلمة، المسلمين من كل أرجاء الأرض بعضهم ببعض، وهو يجتذب نحواً من مليون حاجّ من الخارج كل سنة، وحوالي العدد نفسه من داخل المملكة العربية السعودية من المواطنين السعوديين والمقيمين الأجانب على حد سواء.

قبل وفاة النبي محمد في العام 932 م، تناول شعائر الحج التي كانت سارية قبلاً داخل مكّة وما حولها وعمل على إصلاحها. وهذه الشعائر المُصْلَحَة التي تستغرق تأديتها عدة أيام، تشتمل على الطواف حول الكعبة، البناء المكعب الشكل القائم وسط المَشْعَر الحرام في مكّة؛ والسعي أثناء التلبية بين الصفا والمروة؛ والوقوف يوماً كاملاً على جبل عرفات؛ والنفرة (وهي اليوم سيل هائل من البشر والمركبات) عبر المزدلفة؛ ورمي الجمرات (وهي كناية عن أعمدة ترمز إلى إبليس) في مِنى. إن الحجر الأسود «حجر سماوي» تكتنفه الأسرار. إنه مصمود في الركن الجنوبي الغربي للكعبة، وموجَّه نحو عبادة الله دون سواه كما تجلّى لأبي الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل، الجد القديم للعرب. والفصل الأخير من الحجّ، ألا وهو تقديم الأضاحي إحياءً لذكرى الشاة التي تقبّلها الله بدلاً من ولد إبراهيم، يُحتفل فيه في جميع أنحاء العالم الإسلامي تحت اسم «عيد الأضحى»، حينما يذبح المسلمون بضعة رؤوس من ماشيتهم أو يتناولون لحوم حيوانات ذُبحت في منازلهم. أما العمرة، أو «الحجّ الأصغر»، فهي مقصورة على الحرم المكّي المحيط بالكعبة، وباستطاعة المرء أن يؤديها في أي وقتٍ من السنة، أو في التزامن مع الحجّ نفسه.

فيما قبل الأزمنة الحديثة، كان يُمكن لرحلة الحجّ أن تكون شاقّة للغاية، ولاسيما للقادمين من مناطق الأطراف القصية، كان من الجائز جداً أن تستغرق



خريطة مكة

1 حي جرول.
2 حي الباب.
3 حي الشبيكة.
4 حي السوق الصغير.
5 حي المسفلة.
6 حي باب العمرة.
7 حي الشامية.
8 حي السويقة.
9 حي القرارة.
10 أكواخ.
11 حي الركوية.
12 حي النقع.
13 حي السليمانية.
14 حي بني عامر.
15 درب الحدّادين.
16 درب المعلاة.
17 حي غزة.
18 قصر شريف الأشراف، عون الرفيق (1882-1905) بناه والده محمد بن عون.
19 قصر شريف الأشراف عبدالله، الأخ الأكبر لعون الرفيق.
20 حي بني المولد.
21 حي سوق الل.
22 حي المدّعى.
23 المروة.
24 المسعى.
25 زقاق الحجر.
26 مولد ستنا فاطمة.
27 حي القشَشيّة.
28 الصفا.
29 حي أجياد (يوجد في هذا الحي مبنى مؤسسة التكايا المصرية وسراي الحكومة الجديدة).
30 مقر الحرس الرئيسي (الشرطة).
31 دارة والي الحجاز، مخفر الشرطة...إلخ.
32 مدرسة (تستخدم حالياً مقراً للجنة قناطر زبيدة ومكتباً لرئيس المؤذنين).
33 بركة ماجد. بئر كبيرة للمياه موصولة بالقناطر.
34 دار القضاء ومسكن القاضي.
35 قبر أبي طالب (عم الرسول).
36 آبار مياه موصولة بالقناطر.
37 قبر السيد عقيل.
38 قبر الوليّ الشيخ محمود.
39 جبل قعيقعان.
40 حي المعبدة (المحصّب).
41 آبار ماء من القناطر (مثل هذه الآبار موجودة حالياً في الدروب الرئيسية كافة).

الرحلة سنوات عديدة من عمر الإنسان – أو حتى عمره بكامله – كي يتمّ «الركن الخامس» من أركان الإسلام. في تلك الرحلة، كان ثمة «مدن/قوافل» تتحرك بسرعة تحت إمرة «أمير الحج» بعد أن تنطلق من سورية ومصر والعراق. وكان آمرو القوافل بمثابة قادة عسكريين في الميدان. واجبهم الأوّلي، في واقع الأمر، كان حماية الحُجّاج من قطّاع الطُرُق البدو. ابن جُبير، الذي أدّى فريضة الحجّ عام 1184، يصف خيمة أمير القافلة العراقية بـ«مدينة مسوَّرة» أو «قلعة منيعة» لها «أربع بوابات شامخة»، يلج المرء عبرها سلسلة من الردهات والدهاليز. في القرن التاسع عشر، تضافر ظهور الملاحة البخارية برعاية القوى الاستعمارية مع استحداث نوادٍ خاصة لتوفير نفقات الحجّ، ليجعل رحلة الحجّ في متناول الآلاف من الفلاحين وأبناء المدن العاديين من مناطق نائية جداً كالبنغال والملايو وجُزر الهند الشرقية الهولندية، الذين ما كانوا ليأملوا على الإطلاق في أداء تلك الفريضة الدينية في عصور ما قبل الصناعة.

وكانت لهذه الزيادة الكبيرة في عدد المشاركين في الحجّ نتيجة جانبية وخيمة تمثلت في حالات من تفشّي وباء الكوليرا على نحو مدمِّر. ففي عام 1865، قضى وباء مصدره جاوه وسنغافورة على ما يُقدَّر بـ 15 ألفاً من أصل 90 ألف حاجّ، وذلك قبل أن ينتهي الحجّ الذي صادف وقوعه في شهر أيار/مايو من ذلك العام. ولم يلبث أن امتد الوباء في الشهر التالي إلى الإسكندرية، حيث لقي 60 ألف مصري حتفهم. ولم ينقض شهر تشرين الثاني/نوفمبر إلاّ وكان الوباء قد بلغ أماكن قصية جداً كمدينة نيويورك. وإذا كانت إجراءات الحجر الصحّي (الكارنتينا) التي اتخذتها السلطات العثمانية والحكومات الاستعمارية قد حمت مصر وأوروبا من عواقب العدوى، إلاّ أن الكوليرا استمرت بالتفشي في الشرق وفي الحجاز، حيث وقعت ثماني حالات وبائية بين عامَيْ 1865 و1892. وكان أسوأها على الإطلاق تلك التي شهدها عام 1893،



حين قضى 33 ألفاً من أصل 200 ألف حاج نحبهم في جدة ومكّة والمدينة. وتواصل مسلسل الأوبئة حتى عام 1912، أي إلى حين أعطت إجراءات الحجر الصحي الصارمة مفعولها. وبالمقارنة مع أهوال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، فإن الكوارث التي شهدتها مواسم الحجّ في الآونة الأخيرة، من قبيل مصرع ما يزيد عن 400 شخص، معظمهم من الحجّاج الإندونيسيين، في الحريق الذي اندلع عام 2000 في عرفات، تبدو غير ذات أهمية تقريباً.

إنّ العديد من الحجّاج، إنْ لم يكن معظمهم، يُتمّون مناسك الحجّ بزيارة مسجد الرسول في المدينة، حيث مدافن أهل البيت وأزواج النبي والصفوة البارزة من صحابته. في عام 1925، أقدمت المملكة العربية السعودية على إزالة كل المعالم التي تدلّ على تلك القبور وسوّتها بالأرض، وفرضت قيوداً صارمة على زيارتها والصلاة عندها.

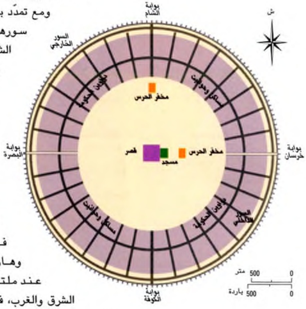


مُدن متمدّدة

بغداد:

مدينةٌ أسّسها في العام 672 بعد الميلاد أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العبّاس، وإنْ كانت المدينة قد بُنيت في الأصل على الضفة الغربية لنهر دجلة.

كان اسمها الأصلي «مدينة السلام»، لكن بغداد عُرفت بين الشعب بـ«المدينة المدوَّرة»، نسبةً إلى الجدران الدائرية التي كانت تحيط بها. كان قصر الخليفة والمسجد الجامع يقومان في نقطة المركز منها تماماً، ومنهما تتشعب أربعة طُرقات باتجاه الخارج. وكانت تعلو القصر قبةٌ خضراء يبلغ ارتفاعها زهاء 165 قدماً ويعتليها خيّال على صهوة فرسه.



ومع تمدّد بغداد تدريجياً إلى ما وراء سورها الأصلي باتجاه الضفة الشرقية لنهر دجلة، جرى وصل شطرَيْ المدينة بجسرٍ من القوارب، وسُمّي الشطر الشرقي منها بالرُّصافة.

بلغت بغداد أوجها من حيث الازدهار التجاري والتأثير الثقافي في القرنين الثامن والتاسع للميلاد. ففي ظل خلافة المهدي وهارون الرشيد، وقفت بغداد عند ملتقى طُرُق التجارة ما بين الشرق والغرب، فكانت تربط آسيا بأوروبا وبالعكس. وبسببٍ من صروحها العمرانية المهيبة وحدائقها الغنّاء، طارت شهرتها بوصفها أغنى وأجمل مدينة في العالم.

في النصف الثاني من القرن التاسع، كانت سلطة الخليفة العبّاسي قد ضعفت من جراء المشاحنات والمنازعات الداخلية التي كانت تصل أحياناً إلى حد الاحتراب الداخلي. وعندما غزا المغول بغداد في القرن الثالث عشر، قُتل الخليفة ومعه الآلاف من أبناء رعيته. ويومها دُمّرت أحياء عن بكرة أبيها بعدما انتُهبت وأُضرمت فيها النيران. ولحق تخريب واسع بشبكة الريّ التي كانت تعتمد عليها المدينة وبساتينها، الأمر الذي عجّل بصورة دراماتيكية في انحطاط المدينة ومن ثم اضمحلالها. وحين صارت بغداد جزءاً من الأمبراطورية العثمانية عام 1534، كانت قد عرفت طعم الإهمال وخمول الذكر ردحاً طويلاً من الزمن.

أُجريت على بغداد تحسينات، وإنْ على نطاق متواضع، في مستهلّ القرن العشرين، مع بناء المدارس والمستشفيات فيها. وحملت إليها الطفرة النفطية التي شهدتها سنوات السبعينيات من القرن العشرين الغنى المتزايد، وبفضله شرعت المدينة تتطور على نطاق مُذهل، ولاسيما مع إنشاء مناطق سكنية لأبناء الطبقة الوسطى. فمُدّت خطوط جديدة من قساطل المياه ومجاري الصرف الصحّي، كما بُنيت فوق الأرض شبكة من الطُّرُقات السريعة، فضلاً عن بناء مطار جديد للعاصمة. ثمة أحد عشر جسراً تربط ما بين شطرَيْ المدينة، وقد دُمِّر العديد منها لاحقاً بفعل القصف الجوي الأميركي في عام 2003. هذا وتُمثّل ساحة التحرير حالياً، القائمة على الضفة اليُسرى للنهر عند أحد طرفَيْ جسر الجمهورية، قلب المدينة الذي تشعّ منه شوارعها الرئيسية.

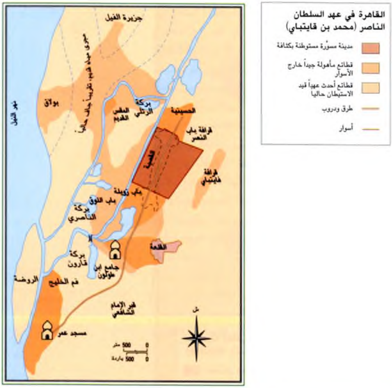
وفي ظل حُكم صدّام حسين الديكتاتوري، أُقيمت مجموعة من النُّصب التذكارية الضخمة، ومن أبرزها «قوس النصر»، وهو كناية عن كتلة هائلة من البرونز على شكل ساعدين يمتشقان سيفين قيل إنهما نموذجان عن ساعدي صدام حسين نفسه. وهناك مثل آخر مغاير تماماً لعلّه أدعى إلى الإعجاب عن الفن النُّصبي الحديث؛ ذلك هو «نصب الشهيد» الذي أُقيم تخليداً لذكرى القتلى في الحرب الإيرانية – العراقية (1980–1988). صمّم النصب إسماعيل فتّاح، وهو كناية عن قبّة ضخمة بصلية الشكل قُدّت نصفين وأُكسيت غطاءً لمّاعاً بالآجرّ الخزفي الأزرق التقليدي. وبصرف النظر عن كل هذه النُّصب التذكارية، فإن معظم مشاريع التحسينات المكرّسة لبغداد قد توقفت لدى اندلا ع الحرب مع إيران في بداية الثمانينيات من القرن العشرين، ثم حرب الخليج التي تلت غزو العراق للكويت والعقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق إثر ذلك. لكن الاستثناء الأبرز الوحيد في هذه القصة من الانحطاط المتجدّد، كان القصور الرئاسية، وهي في حقيقة الأمر كناية عن مجمّعات شاسعة من المباني تحيط بها الأسوار العالية، وتضمّ مقرّات باذخة

الـزخـرفـة لسُكـنـى صدّام حسين أو لاستـضـافـة كـبـار الـزائـريـن والضـيـوف، وقد أُقيمت بـجـانـبـهـا بُـحيرات اصطناعية. قبل الإطاحة بالنظام البعثي العراقي عن طـريـق الـعمل العسكري الذي أقدمت عليه الـولايات المتحدة في العام 2003، كان الدخول إلى هذه المقرّات من قبل مفتّشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة سبباً رئـيسيـاً لـلـخـلاف والجدل مـا بين الـنـظـام الـعـراقي والمنظمة الدولية.

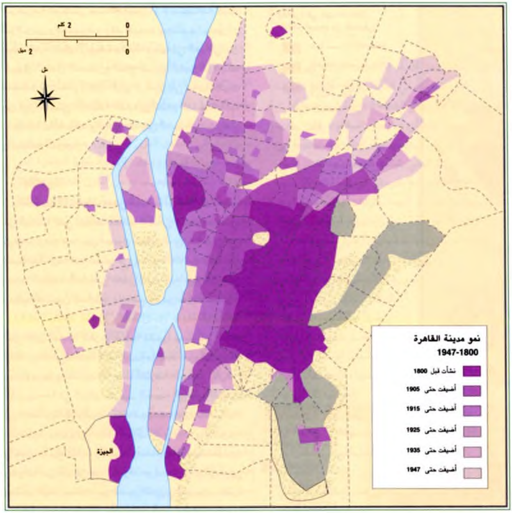
القاهرة:

استمدت القاهرة، وتعني الظافرة أو الغلاّبة، اسمها من المدينة التي أنشأها القائد الألمعي جوهر الصقلي. كـان جـوهـر هـذا مـن أصـول صـقلّية، وربما كـان مـن الصقالبة، وقد فتح مصر في العام 969، بالنيابة عن سيده، الخليفة الفاطمي المُعزّ لدين الله. وشأنه شأن معظم الفاتحين السابقين، اقتطع جوهر مدينة عسكرية منفصلة لجنوده تقع إلى الشمال من مدينة الفسطاط التي كان أسّسها العرب عندما فتحوا مصر في العام 642. وتضم المديـنـة الـفـاطـمـيـة، فضلاً عن قصورهـا ومـدارسـهـا ومساجدها، ومـا أكثرهـا، الجامع الأزهر، أقدم جامعة في العالم. خرجت المدينة إلى حيز الوجود في الـعـام 970، وفـيـمـا بـعـد تـعـهّـدهـا أمـراء المـمـاليك بالعمارة والتزيين، فبنوا مئات المساجد والأضرحة والخانات والتكايا والبيمارستانات (المستشفيات). وسواها من المباني العامة. وقد عرف طرازهم الزخرفي المتميّز كيف يستفيد من الحجر الجيري الموجود بكثرة في جبل المقطم كما في أهرامات الجيزة، ولذلك عمدوا في بعض الحالات إلى استخدام الغطاء الخارجي لتلك الأهرامات. وبعد استيلاء صلاح الدين الأيوبي على السلطة إثر سقوط الحكم الفاطمي، شيّد القلعة المهيبة لـنـاحـيـة الجـنـوب، حيث بـنـى محمد عـلي، الحاكم الأوتـوقـراطي إنما المُصلح في الـقـرن الـتـاسـع عشر، المسجد الكبير على الطراز العثماني الذي لا يزال يُشرف على المدينة القديمة إلى يومنا هذا.

كان أول استيطان لهذه البقعة العظيمة الشأن من الضفة الشرقية لمجرى النيل قُبالة الأهرامات، بـابيلون أو مـنـف (ممفيس، مصر الـقـديـمـة حـالـيـاً)، حيث أقـام الغُزاة الفرس حصناً في العام 525 قبل الميلاد لحراسة معبر مهمّ على نهر النيل. وتمدُّد المدينة شمالاً بـاطراد الـذي اسـتـمـرّ حتى الـقـرن العشرين بـإنشاء ضـاحـيـة هليوبوليس الصحراوية، حكَمه الاتجاه العام لهبوب







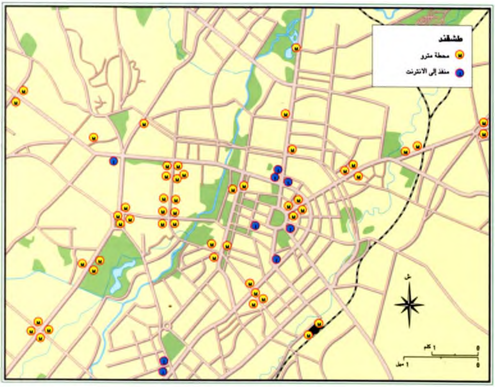
الريح الشمالية بحيث تأخذ معها الروائح الكريهة وأدخنة النفايات المحروقة جنوباً. قبل القرن التاسع عشر، كان ثمة ما يحول دون تمدّد المدينة غرباً، وهو السهل الفيضي (الناجم عن ترسبات الطمي من النهر). لكن أمراء المماليك والولاة العثمانيين بنوا قصوراً بديعة لأنفسهم تحفّ بها الحدائق وتظلّلها أشجار النخيل الوارفة، فيما بقي السواد الأعظم من الشعب يعيش في دروب وأزقّة أشبه بالمتاهة داخل أسوار القاهرة القروسطية. أما المدينة ذات النسق الأوروبي بجاداتها العريضة وميادينها الرحبة، فلم ترَ النور إلاّ في الستينيات من القرن التاسع عشر، وذلك في محاكاة واعية لباريس المُعاد تخطيطها على يد البارون هاوسمان. والحال، أن تحسّن نظام التحكُّم بفيضان النيل، واستقرار منسوب النهر عند ضفتيه، فضلاً عن وجود جزيرتين كبيرتين هما الروضة والجزيرة، هو ما أتاح للمدينة أن تتوسّع وتتمدد عبر النهر نحو الجيزة وأمبابة. وهذا ما جعل القاهرة الحديثة (بسكانها البالغ تعدادهم 18–20 مليون نسمة)، واحدةً من أضخم مدن العالم على الإطلاق.

طشقند:

إلى حين انهيار الاتحاد السوفييتي في عام 1991، كانت طشقند ذات المليونين ونصف المليون نسمة تقريباً، رابع أكبر مدينة سوفييتية بعد موسكو ولينينغراد وكييف. لقد دُمِّرت المدينة بمُعظمها من جراء زلزال عنيف ضربها عام 1966، فتهدّم 95 ألف

منزل، وأصبح قُرابة 300 ألف من سكّانها بلا مأوى. وقد أُعيد بناء طشقند كمدينة سوفييتية نموذجية، ذات جادات عريضة وفضاءات عمومية رحبة تزدان بالنوافير الرشراشة، وتتخلّلها صفوف من المباني العامة والعمارات السكنية المبنية بالخرسانة في هندسة عصرية عالمية، وإنْ احتفظت بموتيفات أوزبكية تقليدية كالممرات المقنطرة والأروقة ذات الشرفات المكشوفة والأشغال الفسيفسائية والكسوات الخشبية. تمتاز المدينة بمتنزهاتها الفسيحة وشبكة مترو الأنفاق الحديثة تحتها. عندما صارت أوزبكستان دولة مستقلّة في العام 1992، قيل بأن الروس، الذين كانوا يشكّلون حوالى نصف عدد السكّان، أخذوا يغادرونها بمعدل 700 فرد أسبوعياً. إلاّ أن اللغة الروسية لا تزال تتردّد على ألسنة نصف مواطني طشقند على الأقل.

قبل إعادة بناء طشقند، كانت هناك مدينتان متمايزتان فيها: المدينة الإسلامية القديمة، والمدينة الروسية الحديثة، تفصل بينهما ترعة مائية. وقد قُيِّض لبعض الدروب والأزقّة الشبيهة بالمتاهة في طشقند القديمة ذات البيوت التقليدية بأفنيتها المظلّلة بدوالي الكرمة البهيجة، أن تنجو من الزلزال المدمِّر، و«طشقند» هو الاسم الأخير من عدة أسماء أُعطيت للمدينة القديمة، التي كانت في الأصل مستوطنة نُجعية للبدو الرُّحّل والتّجّار على ضفة نهر شرشيك، أحد فروع سيرداريا، لمّا هزم العرب جيشاً صينياً في معركة طَلاس عام 751، كانت المستوطنة تُعرف باسم شاش، وعُرِّب الاسم لاحقاً إلى «الشاش». وقد أطنب الكُتّاب العرب في وصفها باعتبارها بقعة مزدهرة تكثر فيها الكروم وتعجّ بالأسواق والحرفيين العاكفين على أشغالهم بكل همة ونشاط. ولفظة «طشقند»، التي تعني باللغة التوركية المحلّية «المدينة الحجرية»، ظهرت أول ما ظهرت على نقود معدنية صُكّت في الحقبة المغولية. ولئن استُبيحت المدينة وانتُهبت على أيدي المغول، إلاّ أنها استعادت شيئاً من ازدهارها وألقها السابق في عهد تيمورلنك وخلفائه. وبالنظر إلى الصراع المحتدم عليها بين الحكّام المتعاقبين، الأوزبك والقازاق والفُرس والمغول والأُيروت والكالميك، لم تعرف المدينة قط طعم الاستقلال. في القرن الثامن عشر، قُسِّمت المدينة إلى أربعة أحياء، متخاصمة أو حتى متعادية في بعض الأحيان، إنما تتقاسم معاً سوقاً واحدة. استولى عليها الروس في العام 1865، ولم يصل خط سكة حديد ما وراء بحر قزوين إلى طشقند إلاّ في عام 1898، بعدما كان عدد سكّانها قد ارتفع ثلاثة أضعاف تقريباً، من 56 ألفاً إلى 156 ألف نسمة. شهدت الحقبة السوفييتية عملية تصنيع مكثّفة وتوسعاً في الأحياء السكنية ذات المتنزهات والحدائق الوفيرة. أما المساجد والمدارس وغيرها من المباني الدينية، فإما هُدمت أو حُوِّلت إلى مصانع ومخازن أو مطابع. ومنذ الاستقلال والمدينة بأجمعها تعاود التأكيد مجدداً على طابعها الإسلامي، وذلك بتشييد المساجد ذات القباب الساطعة، جنباً إلى جنب المجمّعات التجارية الكبرى والأروقة المقنطرة التي تغصّ بالسلع الآتية من جنوب شرقي آسيا.



وقعُ النفط في القرن العشرين

كان وقعُ النفط والغاز الطبيعي بمثابة نعمة متفاوتة على المجتمعات الإسلامية في غرب آسيا، ولاسيما في منطقة الخليج التي تضم العراق؛ تلك المنطقة التي تحوي ما بين 60 و65 بالمئة من الاحتياطي العالمي المُكتشف من النفط. فمن جهة، أتاح ذلك للبلدان المنتجة للنفط أن تبني مُدناً عصرية تخلب الألباب، ذات عمارات شاهقة، ومجمّعات تجارية برّاقة، وطُرُقات سريعة من ستة مجازات، وأحدث أنظمة الاتصالات وأكثرها تطوراً، وغيرها وغيرها من آخر منجزات المدينة الحديثة. لنأخذ المملكة العربية السعودية مثلاً، وكانت فيما مضى إحدى أفقر دول العالم وأقلّها تطوّراً؛ لقد أتاح لها اكتشاف النفط في أراضيها أن تؤمِّن لسكّانها نظاماً رائعاً للرعاية الصحية والتعليم العام.



محطة لتكرير النفط في المملكة العربية السعودية. إن 95 بالمئة تقريباً من نفط العالم تُنتجه حوالى 5 بالمئة من مجمل آباره النفطية، ويقع ثُلثا تلك الآبار في غرب آسيا، حيث تُعدّ المملكة العربية السعودية أكبر منتج للنفط في العالم.

ومن جهة أخرى، ساهم ذلك في زيادة عدم استقرار المنطقة من جراء ترسّخ أقدام الأنظمة الأوليغارشية القبلية، التي مكّنها إمساكها بمقدرات النفط من التسيُّد على البلاد بواسطة صيغة مُركّبة من المحسوبية والقمع.

ولعلّ المثل الصارخ على الأثر المُدمِّر لسياسة الاعتماد الكلّي على النفط هو العراق. فقد غطّته شبكة من العلاقات القرابية يُشرف عليها صدّام حسين شخصياً، لم تترك ناحية من نواحي المجتمع إلاّ وامتدت إليها إثر تأميم النفط في العام 1972. لقد تحكّمت تلك الطغمة بتوزيع أُذونات الأراضي المصادرة من مُلاّك الأرض من العهد السابق أو من الخصّوم السياسيين، فأقامت مشاريع تجارية وأعمالاً شتّى، بما فيها

استيراد الأسلحة، ناهيكم عن المضاربة بالعُملات الأجنبية والتلاعب بعلاقات العمل كما يحلو لها. والذي عزَّز سُلطتها القسرية هذه، أجهزة المخابرات المتغلغلة في كل مكان، والتي اكتسبت سمعة مخيفة لممارستها أعمال التعذيب والقتل خارج نطاق القضاء.

إن الطبيعة السياسية لمنطقة الخليج، كما دلَّت عليها ثلاث حروب كبيرة نشبت منذ عام 1980، قد حفزت المعنيين على البحث عن مصادر بديلة للنفط في مناطق إسلامية أخرى، وبالتحديد في آسيا الوسطى وبحر قزوين. فدول مثل أذربيجان وتركمنستان وأوزبكستان وكازاخستان السوفييتية السابقة، تملك احتياطات واعدة من النفط، لكنها لا تستطيع تصدير نفطها من دون ضخّه عبر أنابيب تمرّ في أراضي البلدان المجاورة. ولعلّ السبيل الأجدى من الوجهة الاقتصادية هو ذاك الذي يمرّ في إيران نحو الخليج ويستخدم شبكة الأنابيب الإيرانية القائمة. غير أن هذا الطريق يلقى معارضة من جانب الولايات المتحدة لأسباب سياسية، وهي تحبّذ مشروعاً أكثر تكلفةً ينتهي عند مصب جيهان على الساحل التركي للبحر المتوسط.



الموارد المائية

لطالما كان للماء، وفرته أو ندرته، أعمق الأثر في تلك المناطق التي تُشكّل قلب العالم الإسلامي. ففي مصر الغابرة، أثمرت عدّة قرون من الخبرة الإنسانية في التحكّم بفيضان النيل السنوي وتصريفه عبر منظومة معقّدة من ري الحياض، تلك الهندسة المدرَّجة فائقة الدقّة للأهرامات. وفي بلاد ما بين النهرين، كما في مصر، كانت الدولة بكل بُناها البيروقراطية اللازمة لممارسة السُلطة والسيطرة، هبة النهرين بالذات. وفي الجزيرة العربية، احتلت قحولة الأرض وقيمة المياه مكانهما كمفردتين أساسيتين في لغة الإسلام. ففي القرآن، المطرُ النادر والثمين، الذي يجعل الصحراء تُزهر ما بين ليلة وضُحاها، إنْ هو إلاّ آية من آيات الله، واستعارة مجازية تُستخدم للبعث والنشور: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربَتْ إنّ الذي أحياها لمُحْيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ [سورة فُصِّلت، آية 39]. والمعنى الجذر للفظة «الشريعة» هو السبيل أو المجاز إلى حيث الإرواء، مصدر البقاء والنقاء. وهناك معجم عربي من القرن الثامن عشر يُشبِّه الشريعة بـ«الماء السلسبيل» الذي يروي ظمأ الإنسان ويُطهِّره من خلال الصوم والصلاة والحجّ والزواج. لقد كانت إدارة الماء مفتاحاً أساسياً للنجاح أو الفشل بالنسبة للحكومات الإسلامية في الماضي. ففي منطقة أعالي الفرات، حرص الخلفاء العبّاسيون على ترميم وتوسيع قنوات المياه الجوفية التي بناها الساسانيون، مما أتاح لهم إضافة مساحات جديدة قابلة للزراعة. وبالعكس، فإن إهمال منظومة الري في العصور اللاحقة عجّل بتدهور أوضاع تلك الدولة اقتصادياً وسياسياً.

هذا وتعدّ إدارة المياه عاملاً مفصلياً في تطور مصر الحديثة. فتحت حكم أُسرة محمد علي، بُنيت أولى السدود وخزّانات المياه للسيطرة والتحكّم بفيضان النيل، مما وسَّع رقعة الأرض الزراعية وسمح باستخدام المنبسط الفيضي الواقع ما بين القاهرة والجيزة لإقامة مدينة جديدة على الطراز الأوروبي تتخلّلها الميادين والجادات العريضة. وجمال عبد الناصر، الزعيم القومي الكاريزمي الذي أطاح بالملكية في عام 1952، عجَّل بحدوث أزمة السويس عام 1956 عندما أقدم على تأميم قناة السويس بعدما رفضت الولايات المتحدة تمويل السدّ العالي في أسوان. والسدّ الذي بُني بمساعدة سوفييتية، يربض اليوم عند بحيرة ناصر، ممسكاً بزمام النهر بإحكام من خلال تخزينه مياه الفيضان في ما يُعدّ حالياً أضخم خزان اصطناعي للمياه في العالم. يرى بعض الخبراء أنه ستكون للسدّ العالي عواقب وخيمة بعيدة المدى على البيئة. فالسدّ يحول دون وصول العناصر المغذّية التي تحملها مياه النهر من المناطق الاستوائية، مما يزيد في درجة ملوحة التربة ويقلّص الثروة السمكية في شرق البحر المتوسط. والسدود التي أقامتها تركيا على نهر الفرات، لم تكن بأي حال أقلّ إثارة للجدل والمشاكل. فسدّ كيبان (1975) وسدّ كراكايا (1987)، وكلٌّ منهما معدّ لاختزان حوالى 30 مليون كيلومتر مكعب من المياه بغية توليد الطاقة الكهربائية وتنظيم جريان مياه النهر، قد مُوِّلا جزئياً بقروض من البنك الدولي. غير أن البنك نفسه رفض الإسهام في بناء سدّ أتاتورك الأضخم حجماً، البالغة سعته التخزينية زهاء 46 مليون كيلومتر مكعب، لأن سورية والعراق اللتين يعبر مجرى النهر السُّفلي أراضيهما، امتنعتا عن الموافقة على المشروع. لقد خفّضت السدود التركية ومشاريع الري المرتبطة بها من تدفّق نهر الفرات بمقدار النصف تقريباً، من 30 مليون متر مكعب إلى ما دون 16 مليون متر مكعب في السنة. ودفاعاً عن موقفها، تدّعي تركيا أن متوسط استخدام البلدين من مياه النهر لم يتعدَ قط 15 مليون متر مكعب سنوياً، وبالتالي ليس ثمة من ضررٍ يصيب أياً منهما. كذلك تعكف تركيا على تطوير نهر دجلة من خلال سلسلة من المشاريع التي قد تفضي إلى انخفاض حجم التدفق المائي، إنما مع تحسُّن في مستوى الاعتمادية. فالعراق هو المستفيد الأكبر من نهر دجلة، وأي نقص يحصل في تدفق مياه الفرات نتيجة الأشغال الهندسية التركية قد ينقلب نفعاً له من خلال تطويره مياه دجلة.

وربما لا تتجلّى قضية إدارة المياه المشحونة بكل عوامل التفجير كأوضح ما يكون للعيان مثلما تتجلّى في الجدل الدائر حول اقتسام مياه نهر الأردن، النقطة المفصلية في النزاع العربي – الإسرائيلي. فمعاهدة السلام المبرمة بين إسرائيل والأردن في تشرين الأول/أوكتوبر 1994، تتضمن بنداً ينصّ على تزويد الأردن وعلى مراحل بكمية 200 مليون متر مكعب من المياه سنوياً، على أن يُؤمَّن جزء من هذه الكمية من الموارد المائية الإسرائيلية الحالية، والجزء المتبقي من مشاريع التطوير المشتركة. وخلال المفاوضات



التمهيدية بين إسرائيل والفلسطينيين المعروفة بـ«أوسلو – 1» (1993) و«أوسلو – 2» (1995)، أُدرجت قضية المياه في المباحثات بوصفها إحدى المسائل الحاسمة الخمس، إلى جانب الأراضي، والقدس، والاستيطان اليهودي، واللاجئين. ومع استمرار الانتفاضة وانهيار ما يُسمى بـ«خريطة الطريق» التي رعتها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة وروسيا، بقيت هذه المسألة من دون حلّ. بيد أن واقعة أن التشارك في المياه يُمكن أن يندرج في صُلب المفاوضات لترسم لنا بالذات حقيقة مهمّة للغاية، وهي أن المصدر الرئيسي للمياه في اقتصادات المنطقة، الإسرائيلي والفلسطيني والسوري والأردني، سواء في الحاضر أم في المستقبل، إنما يقع خارج المنطقة على شكل «مياه افتراضية».

«المياه الافتراضية» مفهوم يستخدمه الاقتصاديون والخبراء الهيدرولوجيون للإشارة إلى كميات المياه اللازمة لإنتاج الغذاء المستورد، كمادة القمح مثلاً، من مناطق غنية بالمياه مثل أميركا الشمالية. فكل طن من القمح أو أية سلعة غذائية أخرى مماثلة، يحتاج إنتاجه إلى ألف ضعف حجمه من المياه على وجه التقريب. وباحتساب معدل استيراد الحبوب إلى غرب آسيا وشمال إفريقيا، يتبيّن أن المنطقة آخذة في «استنفاد» ما لديها من مياه منذ سبعينيات القرن الماضي. غير أن هذا لم يفض إلى حدوث مجاعات. ذلك أن بلدان المنطقة إذ تستورد القمح وسلعاً غذائية رئيسية أخرى من مناطق حيث مياه التربة ورطوبتها عاليتان، فإنما تُطعم نفسها من «المياه الافتراضية» الثاوية في المواد الغذائية التي تستوردها. وطبقاً لهذا التحليل، فإنه لمن الأجدى اقتصادياً وأكثر معقولية أن يُصار إلى استيراد الغذاء محسوباً بـ«المياه الافتراضية» من إنتاجه محلياً. لنأخذ مثلاً: المملكة العربية السعودية فإنها تستخدم مياهاً أحفورية من الطبقات الصخرية الحاملة للمياه غير القابلة للتجدّد من أجل زراعة القمح بكميات ضخمة. لكن الثمن باهظ جداً. ففي عام 1989، دُفع للمزارعين السعوديين 533 دولاراً أميركياً للطن الواحد بغية إنتاج قمح متوافر في الأسواق العالمية بسعر 120 دولاراً فقط. إنّ النظام العالمي للتجارة بالحبوب قادرٌ على تسليم 40 مليار متر مكعب من «المياه الافتراضية» الثاوية في حبوب مستوردة من دون أي إجهاد ظاهر. ولا أظن أن هناك نظاماً هندسياً يُمكنه تعبئة عُشر هذه الكمية بالدرجة عينها من المرونة.

تجارة السلاح

العناصر الأساسية للقوات المسلحة الحديثة ثلاثة، هي: أنواع السلاح المستعمل؛ مصادر التزوّد بالسلاح؛ وتنظيم الأناس المطلوب منهم استخدم ذلك السلاح. والقوات المسلّحة للدول ذات الأغلبية السكّانية المسلمة لا تملك في العادة إلاّ خصائص قليلة تميّزها عن سواها وتطبعها بالطابع الإسلامي.

فهذه الدول كافة تملك قوات مسلحة منظّمة قوامها موظفون ومستخدمون بدوام كامل. وهي مرتبة وفق هيكلية عسكرية تبلورت في أوروبا خلال القرن الثامن عشر إنما جرى تكييفها بما يتماشى وطبيعة العتاد العصري، بما في ذلك الطائرات. فالمصطلح العسكري «سكوادرون»، الذي كان يُستخدم تاريخياً للدلالة على



«شاهين -1»، صاروخ باكستاني أرض - أرض، يستطيع حمل أي نوع من أنواع الرؤوس الحربية، بما فيها النووية، إلى مسافة 434 ميلاً (حوالى 700 كيلومتر). التُقطت هذه الصورة في تشرين الأول/ أوكتوبر 2003، في وقتٍ بدت فيه محادثات السلام الجارية مع الهند حول المنطقة المتنازع عليها من كشمير وكأنها على وشك الانهيار.

مجموعة صغيرة من السفن (عمارة أسطول)، أو على شرذمة من الفرسان (سرية خيّالة)، بات يُطبَّق على الطائرات (سرب طائرات). وحتى البزّات العسكرية، فإنها تجدها هي الأخرى ذات تصاميم أوروبية طاغية. إن القوات المسلّحة لجميع الدول مشرّبة بالثقافات التي أوجدتها، والقوات المسلّحة في الدول الإسلامية ليست استثناءً عن هذه القاعدة. لكن التقاليد الإسلامية يُمكن تلمّسها في زيّ الوحدات وأعلامها أو شعاراتها. فبعض الدول، ولا سيما الدول الصغيرة في الخليج مثلاً، تستفيد من خدمات المرتزقة على نطاق واسع. لكن هذه الممارسة القديمة العهد والهجينة ثقافياً يُمكن العثور عليها في غير الدول الإسلامية

أيضاً، في «وحدات الغوركا النيبالية» لدى بريطانيا، و«الفيلق الأجنبي» لدى فرنسا على سبيل المثال لا الحصر. وعلى النسق عينه، ثمة دول إسلامية استحدثت لنفسها وحدات عسكرية من النُّخبة تقترن اقتراناً وثيقاً بحكّامها، كما هي الحال، مثلاً، مع الحرس الثوري الإيراني (باسدران انقلاب)، أو السلاح الجوي الملكي الأردني. إلا أن هذه، هي الأخرى، لا تعدو كونها ممارسة ثقافية هجينة.

وأنواع منظومات السلاح متعدّدة، فهي تشمل المدرّعات، والطائرات، والسفن الحربية، والصواريخ، وفي بعض الحالات القليلة الأسلحة الكيميائية والنووية. وجميع أنواع الأسلحة هذه نشأت وتطوّرت



إلى ما هي عليه الآن من قبل الدول الصناعية إبّان الحرب العالمية الثانية.

والدول الإسلامية بعامّة تندرج في عِداد البلدان النامية، إذ لا تملك أي منها قاعدة صناعية متقدمة، مما يعني أنها مضطرة إلى استيراد منظومات أسلحتها الرئيسية كافة من الخارج. والاستثناء هنا نوعان: الأول، إن البنادق والمسدسات وذخائرها وسواها من الأسلحة الصغيرة يتمّ صنعها بكميات وفيرة؛ والثاني، إن بضع دول مما لها حلفاء أقوياء، مثل باكستان وتركيا ومصر، تحظى بقدرٍ من المساعدة الخارجية في تطوير صناعة خاصة بها لإنتاج الأسلحة. ويُعتقد أن باكستان قد حصلت على مساعدة تقنية من الصين في تطوير برنامجها النووي.

وعلى شاكلة القسم الأكبر من دول العالم، نجد الدول الإسلامية، من المغرب إلى إندونيسيا، تدور بمعظمها حالياً في فلك الولايات المتحدة. وتبعاً لذلك، تميل تلك الدول إلى تدريب وتنظيم قواتها المسلّحة على النسق الأميركي. وهذا النفوذ يحلّ باطراد محل نظيره البريطاني أو الفرنسي أو الروسي السابق، إلاّ في حالتَيْ سورية وليبيا، حيث أسلحة وتنظيمات الحقبة السوفيتية لا تزال ملموسة إلى حد بعيد. ربما تكون إيران استثناءً لجهة تطويرها مركزاً مستقلاً لها على الصعيد العسكري. إلا أن هذا المركز ما برح ضعيفاً وفي أولى مراحل نموه. ثمة من بين أعضاء الحكومة الإيرانية من يُعلن أن الأسلحة النووية تتنافى ومبادىء الإسلام. صحيح أنك تلمس مشاعر وآراء مماثلة يُعبِّر عنها في البلدان المسيحية، إلاّ أنه نادراً ما تجدها داخل الحكومة.



إضاءة سريعة: جنوب شرقي آسيا 1950 - 2000

شهدت أواخر الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ظهور تشكيلة منوّعة من الدول في جنوب شرقي آسيا. تتألف المنطقة، في الوقت الحاضر، من جمهورية إندونيسيا واتحاد ماليزيا وسلطنة بروناي، حيث المسلمون أكثرية؛ ومن جمهوريات سنغافورة والفيليبين وميانمار (الجمهورية الاشتراكية للاتحاد البورمي)، ومملكة تايلاند، وجمهورية لاو الديمقراطية الشعبية (لاوس)، وجمهورية كامبوتشيا الشعبية (كامبوديا)، وجمهورية فييتنام الاشتراكية، حيث المسلمون أقليّة.

تميّز انخراطُ المسلمين في تكوين وتطوير عددٍ من هذه الدول على مدى السنوات الخمسين الماضية



فتيات صغيرات في آتشيه بإندونيسيا يتعلّمن القرآن. كانت آتشيه، تاريخياً، مركزاً للمقاومة الإسلامية ضد الحكم الاستعماري الهولندي، وهي اليوم المقاطعة الإندونيسية الوحيدة التي أعادت العمل بالشريعة الإسلامية كأساس للقانون العام.

بالتعدّد والتنوّع. وقد تخلّلته، جزئياً، سلسلة من الالتماعات التي شملت مسلمين من شتّى التوجّهات والتطلّعات.

فتكوين جمهورية إندونيسيا مثلاً في الفترة 1949 – 1950، اقترن بانتفاضات (1948 و 1953) قام بها عدد كبير من المسلمين في غرب جاوه وجنوب جُزر سيلاويزي (سليبيس) وآتشيه (شمال سومطرة)، لأن زعماءهم لم يرق لهم القرار المتّخذ بتقييد دور الإسلام في الجمهورية الوليدة. وفي السنوات الأخيرة كذلك، شهدت إندونيسيا ولا تزال سلسلة من النزاعات المحلية والإقليمية والدولية التي للمسلمين ضلعٌ فيها. فما بين عامَيْ 1999 و2000، اندلع صراعٌ بين المسلمين والمسيحيين في جزر الملوك (ملوكو) الإندونيسية الشرقية، وكذلك في جنوب جُزر سيلاويزي. وفي تشرين الأول/أوكتوبر 2002، انفجرت قنابل (يُزعم أن أعضاء من منظمة «القاعدة» هم الذين زرعوها) في حانة ليلية على جزيرة بالي، مما أسفر عن مقتل 200 شخص وجرح 300 آخرين.

نالت ماليزيا استقلالها في العام 1957 وشكّلت اتحاداً يضم الملايو وسنغافورة وصباح وساراواك. وقد انسحبت سنغافورة من الاتحاد في العام 1966 واعتنقت سياسة للحُكم متعدّد الأعراق والديانات؛ فيما يُعتبر الإسلام، على النقيض من ذلك، دين الدولة الرسمي في ماليزيا. منذ ما قبل تأسيسها، وحالات



التوتر دائمة الحدوث بين سكّان ماليزيا الصينيين والملاويين، حتى إن إحداها انفجرت على شكل أعمال شغب عرقية في عام 1969. وحيث إن الملاويين مسلمون ويشكّلون الغالبية العُظمى من سكّان البلاد، فإن مثل هذه النزاعات بين فئات المجتمع المختلفة لا بد من أن تأخذ بُعداً دينياً. غير أن ماليزيا تشهد كذلك توتراً داخل المجتمع الإسلامي نفسه يستمر معه المسلمون في مناقشة طبيعة دور الإسلام ومداه في شؤون الحكم.

وفي الفيليبين، يتواجد المسلمون (أو «المورو» كما يُسمَّون في كثير من الأحيان) أكثر ما يتواجدون على جزيرة مندناو وأرخبيل سولو. وقد رأينا المسلمين هناك يدعون في أوائل السبعينيات من القرن العشرين إلى الانفصال عن دولة الفيليبين، وإلى إقامة وطن مستقل للمسلمين الفيليبينيين. كما سعت حكومات فيليبينية متعاقبة إلى التوصل إلى تسويات مع المسلمين في المنطقة. والمسلمون في تايلاند يتركّزون بالدرجة الأولى في ساتون، شمال غربي البلاد، وفي الأقاليم الجنوبية: باتّاني ويولا وناريثيوت، المحاذية لماليزيا. وقد بلغت مقاومة المسلمين للدولة التايلاندية، المتخذة شكل نضالات مسلّحة ودعوات انفصالية، ذروتها في عقد التسعينيات من القرن العشرين. أما المسلمون في ميانمار (بورما)، فهم يقطنون غالباً في منطقة أراكان على حدود البلاد مع بنغلادش، وما انفكوا منذ خمسينيات القرن المنصرم في نزاع متواصل مع السلطات هناك حول وضعهم القانوني.



إضاءة سريعة: العراق 1917 - 2003



شأن معظم الدول العربية، أصبح العراق دولةً مستقلّةً بعد انفراط عقد الأمبراطورية العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد واجه منذ البداية مشاكل جمّة في بلورة شعور موحّد بالهوية القومية. صحيح أنه كان تحت حُكم العثمانيين المتمسكين بالمذهب السُّنّي، إلاّ أن أغلبية السُكّان العرب (حوالى 60 بالمئة) هم من الشيعة الذين تربطهم وشائج دينية وثقافية قوية بإيران المجاورة، حيث المذهب الشيعي هو عقيدة الدولة الرسمية منذ القرن السادس عشر. وزهاء رُبع السكّان هم من الأكراد، ويتواجدون أساساً في شمال البلاد. خلال السنوات الأخيرة من الحُكم العثماني، انبثقت حركة تدعو إلى الاستقلال بين ضباط الجيش وأعيان المُدن، أجّجتها مشاعر قومية عربية جيّاشة. وحين مُنحت بريطانيا، التي كانت احتلت بغداد عام 1917 ونصّبت حكومة عسكرية في البصرة، تفويضاً بالانتداب على العراق في مؤتمر سان ريمو عام 1920، واجهت سلسلة من الثورات شارك فيها موظفون سابقون في الإدارة العثمانية وملاّك عقاريون وزعماء عشائر ورجال دين سُنّة وشيعة، وكذلك ضبّاط عسكريون. ردّ الإنجليز على ذلك بإقامة ملكية دستورية على رأسها فيصل بن الحسين، أحد أبناء شريف مكّة، الذي كان الفرنسيون قد أخرجوه عنوةً من دمشق. وقد انتهى الانتداب البريطاني في عام 1932، حين قُبل العراق عضواً في عصبة الأمم، لكن بريطانيا احتفظت بقواعد جوية لها في الشُّعَيْبة والحبّانية، وبحصة حاكمة في شركة نفط العراق التي باشرت بتصدير النفط في عام 1934. ولئن أُدخلت النخبة العراقية في الحكومة، إلاّ أنها ظلّت منقسمة على نفسها تتنازعها مختلف المصالح الفئوية والعشائرية، في حين عملت الاضطرابات في فلسطين الناجمة عن الهجرة اليهودية على إلهاب الحسّ القومي والمشاعر المناوئة للإنجليز. وقد أدّى انقلاب عسكري موالٍ للمحور قامت به مجموعة من الضباط القوميين عُرفت بـ«المربع الذهبي»، إلى احتلال البريطانيين بغداد والبصرة للمرة الثانية في عام 1941.

وتسبّبت أزمة السويس عام 1956، وانضمام العراق إلى «حلف بغداد» الذي يضمّ تركيا وإيران وباكستان، والموالي للغرب والهادف إلى احتواء النفوذ السوفييتي، بحدوث توترات شديدة ما لبثت أن انتهت بقيام ثورة تمكّنت بدعم شيوعي من الإطاحة بالنظام الملكي في عام 1958. غير أن الحُكم العسكري الجديد نفسه استُبدل في عام 1963 (ومرة أخرى في عام 1968) بضباط ينتمون إلى حزب البعث العلماني التوجّه. وفي ظل صدّام حسين التكريتي (نائب رئيس الجمهورية الفريق أحمد حسن البكر، ورجل النظام القوي قبل زمن طويل من تبوئه سدّة الرئاسة في عام 1979)، سخّرت عشيرة البونصر من تكريت جهاز حزب البعث على

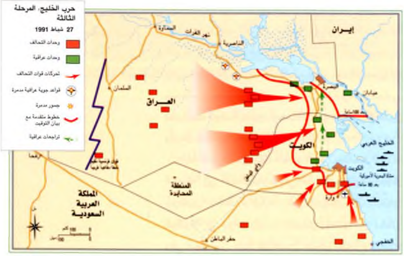


المنوال المعمول به في بلدان أوروبا الشرقية لبناء مراكز قوى مهولة أساسها توليفة مركّبة من المحسوبية والإكراه. وقد أثبت نظام الحكم هذا أنه منيع وصامد على نحو لافت للنظر. وعمل ما في وسعه لخلق شعور بالهوية الوطنية العراقية، أساسه التراث العربي – الإسلامي والتراث «الرافدي» ما قبل الإسلامي، مع توظيفه التنقيبات الأثرية والفولكلور والشعر والفنون على أنواعها لتعزيز حسّ الفرادة والتمايز العراقيين. وجرى التنكيل بالأكراد على نحو وحشي، فدُمِّرت نحو من ألف قرية وأُزهقت أرواح آلاف المدنيين بالغازات السّامة. هذا بينما وقف الشيعة، على وجه العموم، إلى جانب الحكومة في حربها الكارثية مع إيران (1980–1988)، وإن كانت هناك معارضة لا يُستهان بها من جانب حزب الدعوة الذي أسَّسه رجل الدين المغدور، آية الله محمد باقر الصدر في ستينيات القرن العشرين. وفي أعقاب قيام قوات تحالف دولي بطرد العراقيين من الكويت في عام 1991، اندلعت انتفاضة شيعية في عدد من المدن الجنوبية، من بينها البصرة والنجف وكربلاء، لكنها سُرعان ما أُخمدت دونما رحمة بالرغم من وجود القوات الأميركية في المنطقة. وفي حملتها لاستئصال شأفة المعارضة بكل صورها، أقدمت الحكومة العراقية على تجفيف المستنقعات الجنوبية (الأهوار) التي يقطنها الشيعة؛ في حين وجد الأكراد في المظلة الجوية للقوات المتحالفة حماية فعّالة لهم.

وخلافاً لكل التوقعات، لم تعمل العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق بعد احتلاله الكويت سوى على تشديد قبضة النظام الحاكم على المجتمع العراقي، وأغنت أكثر فأكثر الشبكات التي يسيطر عليها صدّام حسين وابناه من خلال احتكارهم صادرات النفط غير الشرعية وبرنامج الأمم المتحدة «النفط مقابل الغذاء». وقد اكتمل سقوط النظام إثر الهجوم الأنجلو – أميركي على العراق في آذار/مارس 2003، بالقبض على صدّام حسين في كانون الأول/ديسمبر من نفس العام. إلاّ أنه من غير الواضح بعد ما إذا كان الأميركيون سينجحون في تحقيق هدفهم المعلن، ألا وهو إقامة نظام حُكم ديمقراطي يحظى بالقبول لدى جميع فئات الشعب العراقي.







إضاءة سريعة: أفغانستان 1840 - 2002



أفغاني يحمل قذيفة إلى خط الجبهة. سوف يتلقى هؤلاء المقاتلون في وقت لاحق صواريخ «ستينغر» أرض – جو. وهذا السلاح على خفة وزنه وقابليته للحمل، يحتوي على أجهزة إلكترونية بالغة التعقيد لتتبّع الهدف. وقد تزوّد المقاتلون سرّاً بهذا الصاروخ عن طريق دائرة الاستخبارات الباكستانية، وكان له أثر مدمّر على الاحتلال السوفييتي، وأتاح لرجال قبائل غير مدربين أن يُسقطوا طائرات هليكوبتر حربية.

أفغانستان بلاد جبلية تكثر فيها الأودية السحيقة والبوادي والنجود القاحلة؛ وهي لم تُشكّل في أي وقت مضى كياناً سياسياً واحداً وإنْ دخلت أجزاء منها ضمن دولة البشتون التي أسَّسها أحمد شاه دورّاني (ح 1747–1772). سكّان البلاد في غاية التعدّد والتنوّع، يُمثّل البشتون، وهم أكبر مجموعة عرقية – لغوية فيهم، حوالى 47 بالمئة. وتتركّز هذه المجموعة السكّانية في الحزام الجنوبي من المناطق المحاذية للحدود مع باكستان. أما الطاجيك، وهم ثاني أكبر مجموعة سكّانية من حيث الحجم (حوالى 35 بالمئة)، فيعيشون أساساً في شمال البلاد، إلى جانب الأوزبك والتركمان والقيرغيز (8 بالمئة)، فيما يُمثّل الهزارة، وهم من الشيعة الإمامية، نحواً من 7 بالمئة من السكّان.

ونتيجة الصراع بين الإخوة، تفككت أوصال الدولة الدورّانية في القرن التاسع عشر، وقد فتح ذلك الباب واسعاً أمام التدخل الروسي والبريطاني. فاهتمام بريطانيا بحماية أمبراطوريتها من التعدّيات الروسية، حفزها على اجتياح أفغانستان مرتين: الأولى في الفترة 1839–1842، والثانية في الفترة 1879–1880. ونظراً لحاجتها إلى حكومة مركزية قوية لتثبيت وجود أفغانستان دولة عازلة في وجه الروس، نصَّبت بريطانيا «الأمير الحديدي» عبد الرحمن خان (ح 1880–1901). فوطّد هذا الأخير سلطانه على البلاد بشنّه حرباً ضد الهزّازة الشيعة وقام بحملات هداية قسرية لأهالي كفرستان الأصليين من غير المسلمين. وفي خطوة لم يسبق لها مثيل، أعلن عبد الرحمن أنه يحكم بموجب حق إلهي وليس بتفويض قبلي. فمُورست سياسة تمييزية ضد كل من هو غير البشتون وأُرهق كاهلهم بالضرائب الجائرة.

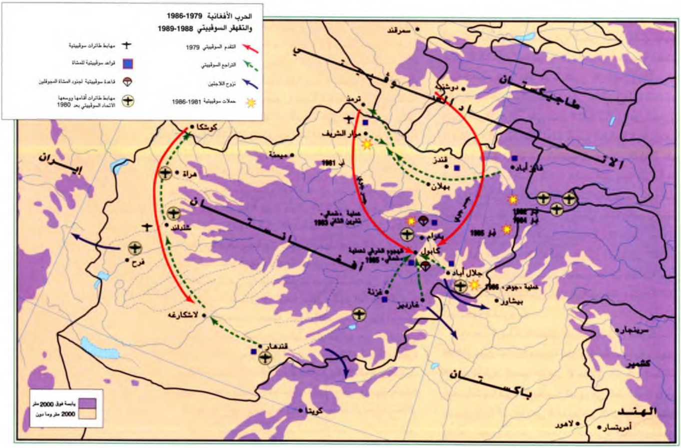
أياً كان الأمر، فقد أُدخلت أيضاً عناصر الدولة الحديثة إلى أفغانستان، وفي مقدمتها تكوين جيش مركزي استُخدم لإخماد تمردات القبائل، ونُظِّمت الحكومة في دوائر رسمية منفصل بعضها عن بعض. وفي عهد ابن عبد الرحمن، حبيب الله (ح 1909–1919)، طُبِّق مبدأ الاحتراف في الجيش، كما أُدخل التعليم الحديث إلى البلاد. وقام ابن حبيب الله وخَلَفه أمان الله (ح 1919–1929) بدفع عجلة التحديث أشواطاً إلى الأمام باجتراحه تغييرات تشريعية كبيرة، بما في ذلك تحريم العبودية. وشرع يسمح بتعليم النساء، وعدَّل من وضعيتهن القانونية بأن منحهن حقوقاً متساوية في الزواج والطلاق والميراث، كذلك اعتمد اللباس الغربي في البلاط. فأثارت تلك الإصلاحات حفيظة بعض العلماء وزعماء القبائل المحافظين المنتمين إلى الطريقة النقشبندية، فثاروا على أمان الله وأجبروه على ترك البلاد إلى المنفى في عام 1929.

وآل الأمر بعد أمان الله إلى القائد العسكري البشتوني نادر شاه (ح 1929–1933)، فأعاد خَلَفُه ظاهرشاه (ح 1933–1973) العمل بالمحاكم الشرعية، وكافأ قبائل البشتون التي كان يعوِّل عليها بإغداق المناصب الحكومية على زعمائها، وغضّ الطرف عن ممارسة التمييز المفرط ضد أبناء البلاد من غير البشتون في توزيع الثروة. وفي الوقت عينه، استؤنف برنامج التحديث إنما بشكل معدّل، اضطلعت الدولة فيه بالدور الرئيسي في التنمية الاقتصادية. وبفعل الضغوط الاستراتيجية الناجمة عن مفاعيل الحرب الباردة والنزعة القومية البشتونية للنظام التي ولَّدت توترات حادّة مع الدولة الجارة: باكستان، اقترب طرفٌ نافذٌ في النخبة البشتونية من موسكو، وآلت هذه العملية إلى عزل ظاهر شاه على يد ابن عمه، رئيس الوزراء الأسبق محمد داوود، بدعمٍ من بعض الدول المجاورة. ألغى داوود الملكية، وأعلن نفسه رئيساً لجمهورية أفغانستان. ردّ السوفييت بتدبير انقلاب عسكري قاده حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، الشيوعي، وأدّت هذه الخطوة إلى تدخل سوفييتي مباشر في عام 1979 لمساندة جناح «برشام» (غير البشتوني) في حزب الشعب الديمقّراطي الأفغاني بزعامة بابراك كارمال. والجهاد الذي تبع ذلك، ونال دعم بعض الدول العربية، إضافة إلى باكستان

والولايات المتحدة، اجتذب متطوعين من العديد من البلدان الإسلامية، وكان من ضمن هؤلاء المتطوعين: الثري أسامة بن لادن الذي تزعّم فيما بعد شبكة القاعدة. وبواسطة صواريخ ستينغر المضادة للطائرات التي زودتهم بها الولايات المتحدة، أجبر المقاتلون الاتحاد السوفييتي على سحب جنوده من أفغانستان في عام 1989. غير أن النضال ضد السوفييت بدلاً من

الملاّ محمد عمر. وبعد أن تمّت لهم السيطرة على كابول في عام 1994، منع الطالبان النساء من الذهاب إلى المدارس أو الخروج إلى أماكن العمل، وارتكبوا فظاعات بحق أبناء قبائل الهزارة الشيعية، ودفعوا بإيران إلى حافة التدخل العسكري عندما أقدموا على قتل تسعة من دبلوماسييها.

وفي أعقاب الهجمات على نيويورك وواشنطن في



أن يولّد شعوراً بالوحدة الوطنية، جاء ليُفاقم من حدة الشقاق والتنازع بين المجموعات العرقية المختلفة، لاسيما وأن المؤسسات المركزية للدولة كانت قد أخذت في الانحلال. والاقتتال الفئوي الذي أعقب الانسحاب السوفييتي وانهيار نظام الحكم الماركسي للجنرال نجيب الله في عام 1992، فتح الباب واسعاً أمام مجيء نظام طالبان البشتوني بزعامة حليف بن لادن الوثيق:

11 أيلول/سبتمبر 2001 من جانب إرهابيين قيل بأنهم ينتمون إلى شبكة القاعدة بزعامة بن لادن، أطاح الأميركيون بنظام طالبان في خضم حملة من القصف الجوي المكثّف. والزعيم البشتوني الجديد، حميد كرزاي، الذي نصّبته الولايات المتحدة رئيساً للبلاد إثر المؤتمر الدولي حول أفغانستان المنعقد في برلين، يمتّ بصلة قرابة إلى ظاهر شاه.

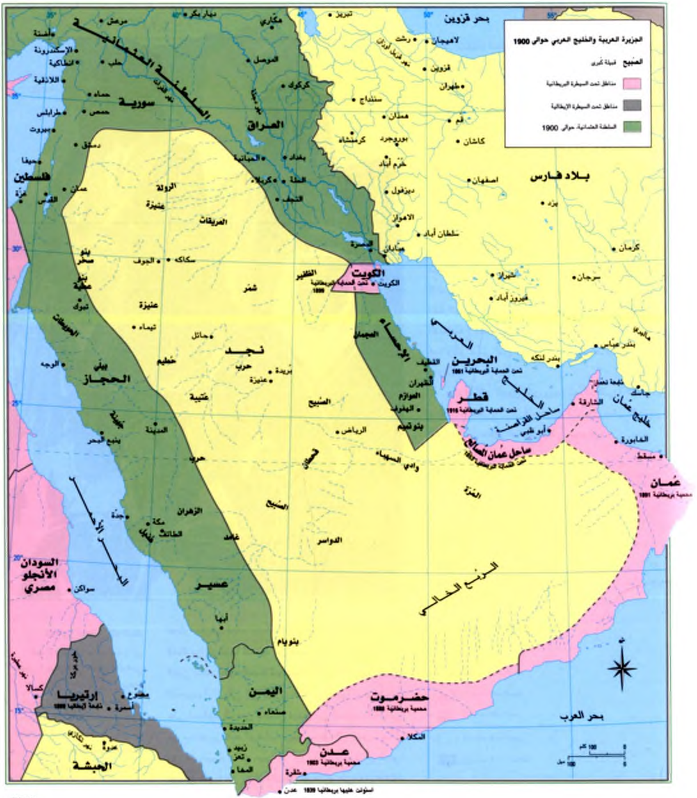
الجزيرة العربية والخليج 1839 - 1950

التاريخ الحديث للجزيرة العربية والخليج عبارة عن نسيج معقّد من التفاعلات بين القوى المحلية على الأرض من جهة، والقوى الإقليمية والدولية من جهة أخرى. وقد تضاعفت الرهانات تضاعفاً هائلاً بوجود النفط واعتماد الاقتصادات الغربية، بالإضافة إلى الاقتصاد الياباني، على الإمدادات المنتظمة التي يُمكن تأمينها منه. وإلى حين اكتشاف النفط في المنطقة، كانت في الأغلب الأعمّ منطقة فقيرة (فيما خلا مركزَيْ صيد اللؤلؤ في الكويت والبحرين وميناء مسقط التجاري)، ولا أهمية كبيرة لها بالنسبة للعالم الخارجي. بيد أن بريطانيا كانت في حاجة إلى حماية أمبراطوريتها الهندية من خصوم أو منافسين محتملين، بمن فيهم روسيا القيصرية والسلطنة العثمانية وإيران، لذلك أقدمت على احتلال عدن في عام 1839، التي سرعان ما أصبحت محطة حيوية للتزوُّد بالفحم (وفيما بعد مستودعاً لإعادة التزوّد بالوقود) في الطريق إلى الهند.

وهذا التطوّر الذي عرفته عدن، دشّن عملية ضخمة قام بها البريطانيون طوال الثلاثينيات من القرن العشرين لتهدئة كل المنطقة الساحلية في جنوب الجزيرة العربية ولا سيما القطاعات القريبة من موانئها، بما فيها مرتفعات لحج والمدن – الدويلات المتناحرة في وادي حضرموت، مستخدمين في ذلك قاذفات القنابل التابعة لسلاح الجو الملكي كرادع أخير. وقد ضمّت محمية جنوب الجزيرة العربية (سُمّيت لاحقاً «اليمن الجنوبي» قبل أن تتوحد مع اليمن في عام 1991) نحواً من ثلاث وعشرين سلطنة وإمارة وكياناً قبلياً تحت السيطرة التامة والشاملة لبريطانيا، حيث السلاطين يهيمنون على المدن، وحيث طبقة «السيّاد» التي تزعم تحدّرها من سلالة الرسول، تحتكر ملكية الأرض وتقوم بدور الوسيط بين عشائر الداخل.

وإلى مسافة أبعد شرقاً، تمكّنت أسرة البوسعيد العُمانية في عهد زعيمها سيد سعيد بن سلطان (1807–1856) من خلق دولة مترامية الأطراف في المحيط الهندي أخذت تغتني وتزداد ثراءً بفضل تجارة العبيد وتصدير العاج والتوابل من المناطق الخاضعة للسلطان في زنجبار. وبموجب سلسلة من المواثيق المبرمة ما بين 1838 و1856، نزل سيد سعيد عند طلب الإنجليز بالحدّ من النخاسة في البلاد، موفّراً المزيد من الذرائع للتدخل البريطاني. فلدى وفاته في العام 1856، سوّى البريطانيون نزاعاً نشب بين ابنيه: ماجد وثويني، بإصدارهم مرسوماً يقضي بأن تعوّض زنجبار التي ورثها ماجد، على مسقط التي ورثها ثويني، لفقدان هذه الأخيرة العائدات من جراء تقسيم السلطنة بينهما. والذي حضّ بريطانيا على التدخل في منطقة الخليج إلى الشمال من مسقط، الحاجة إلى مكافحة القرصنة المستفحلة فضلاً عن شيوع الاسترقاق هناك. وهكذا، وُقّعت سلسلة من المعاهدات ما بين عامَيْ 1835 و 1853 وافق بموجبها شيوخ القبائل العربية المشتغلة في البحر، التي كانت تعيش على الغنائم المنتزعة من السفن العربية وحتى البريطانية، على عقد هدنة تُنهي كل أعمال القرصنة، والموافقة في الوقت عينه على حظر تجارة العبيد، وترك أمر الإشراف على مدى التقيّد بالمواثيق للبحرية الهندية البريطانية. وقد حمى نظام التهادن هذا صناعة صيد اللؤلؤ في الخليج، كما عاد بالفائدة على الملاحة العربية التي طالما عانت أكثر من غيرها من انعدام الأمن والطمأنينة بسبب القرصنة، مما كان يحمل التجّار المحلّيين على نقل بضائعهم بواسطة السفن البريطانية الأفضل تسليحاً والأضمن حمايةً. ودويلات الساحل المتصالح (دولة الإمارات العربية المتحدة حالياً) ظلّت بحكم المحميات البريطانية حتى عام 1971, ترفدها بريطانيا بالضباط وتُشرف على سياستها الخارجية.

وسّعت بريطانيا نطاق نفوذها ليشمل الكويت عام 1896، حيث أقامت محمية غير رسمية لحماية وكيلها، الشيخ مبارك الصباح، من الاحتلال التركي المباشر. وبصفتها قوة رئيسية كبرى في المنطقة، راحت بريطانيا تتدخل في العديد من النزاعات المحلّية وتُدخل تعديلات على الحدود المتنازع عليها، وتحاول ضمان استمرارية الوراثة. وأبرز حالة تستحق الذكر في هذا الصدد، النزاع الذي نشب بين أبو ظبي وعُمان والمملكة العربية السعودية على واحة البُريمي. وقد فُض النزاع بقيام قوات الساحل المتصالح العُمانية بقيادة بريطانية بإخراج السعودية من الواحة في عام 1955. كما أن مطالبة العراق بالكويت (التي تعود إلى أيام العثمانيين حين اعترف الشيخ رسمياً بالسيادة العثمانية على بلاده) قاومتها بريطانيا بأن أرسلت جنودها إلى الكويت لضمان استقلالها في عام 1961.


الجزيرة العربية والخليج العربي حوالي 1900
الصُبيح قبيلة كبرى
مناطق تحت السيطرة البريطانية
مناطق تحت السيطرة الإيطالية
السلطنة العثمانية حوالي 1900
بحر قزوين
بلاد فارس
العراق
سورية
فلسطين
الكويت
البحرين
قطر
نجد
الحجاز
عسير
اليمن
حضرموت
عدن
عمان
بحر العرب
الربع الخالي
الأحساء
ساحل عمان المتصالح
السودان الأنجلو مصري
إرتيريا
الحبشة
بغداد
البصرة
الموصل
كركوك
دمشق
حلب
بيروت
حمص
حماه
طرابلس
اللاذقية
عمان
القدس
حيفا
غزة
طهران
قزوين
همذان
كرمانشاه
أصفهان
يزد
كرمان
شيراز
الرياض
حائل
بريدة
عنيزة
المدينة
مكة
جدة
الطائف
ينبع البحر
تيماء
الجوف
سكاكه
أبها
صنعاء
الحديدة
زبيد
تعز
المخا
المكلا
مسقط
الشارقة
أبو ظبي
القطيف
الهفوف
سواكن
كسلا
أسمرة
مصوع
بندر عباس
بندر لنكه
جاسك
خليج عمان
استولت عليها بريطانيا 1839 عدن

صعود الدولة السعودية



المغفور له بإذن الله الملك عبد العزيز بن سعود (يبدو في الصورة جالساً في الصف الأمامي إلى اليسار)، وقد طوّر ابن سعود حركة «الإخوان» بتجنيد أفرادها من القبائل البدوية. وبهذه القوة الملتزمة، استطاع بناء الدولة التي صارت تُعرف منذ عام 1932 بـ«المملكة العربية السعودية».

لعلّك تجد في قيام المملكة العربية السعودية في القرن العشرين ترجيعاً للعديد من السمات التي وسمت دعوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام. يعود تأسيس الدولة السعودية الأولى إلى القرن الثامن عشر، حين قامت على تحالف ما بين مُصلح ديني من المذهب الحنبلي، هو محمد بن عبد الوهاب، وبين محمد آل سعود، حاكم مدينة عنيزة بالقصيم. إلاَّ أن نفوذ محمد آل سعود تقلّص كثيراً من جراء التدخل المصري في عام 1818، بحيث انتقلت السلطة في تسعينيات القرن التاسع عشر إلى أُسرة آل الرشيد الموالية للعثمانيين. ومن خلال إحيائه دولة أسلافه إثر غارة قام بها على معقل آل الرشيد في الرياض عام 1902، اتبع سليل محمد آل سعود، المغفور له عبد العزيز بن سعود، النموذج الكلاسيكي نفسه الذي يُضافر بين القوة العسكرية للقبائل والقوة المعنوية للإحياء الديني. نُظّم محاربو ابن سعود، المعروفون بـ«الإخوان»، ضمن مستوطنات زراعية سُمِّيت «الهجرات». وقد استُلهمت هذه الأخيرة من المجتمع الذي بناه النبي محمد عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة في العام 622، وقد أُخضع فيها البدو لتدريب عسكري وتثقيف ديني صارم. ولما كانت مستوطنات «الهجرات» تلك متوزعة في نقاط استراتيجية على امتداد الهضبة النجدية، فقد كان في المستطاع تعبئة الإخوان وحشدهم على جناح السرعة مما وفّر على ابن سعود أعباء الإنفاق على جيش مستديم.

وقد أعاقت الدول الأوروبية تحرّك الدولة السعودية باتجاه الخارج بأن أحكمت الطوق على الجزيرة العربية من خلال السيطرة على محيطها.

مراحل اتساع الدولة السعودية
1926-1902

أراضٍ تحت سيطرة ابن سعود، حوالى 1912
أراضٍ تم تحريرها بحلول 1920
أراضٍ تم تحريرها بحلول 1926
هجمات وحملات عسكرية كبرى
صبيح قبيلة كبيرة
أراضٍ تحت سيطرة الإنجليز
أراضٍ تحت النفوذ البريطاني
أراضٍ تحت النفوذ الفرنسي
أراضٍ تحت النفوذ الروسي
أراضٍ تحت السيطرة الإيطالية


تركيا
سورية
انتداب فرنسي
1920
لبنان
بلاد العلويين
فلسطين
شرقي الأردن
إمارة تحت السيادة البريطانية
1923
العراق
انتداب بريطاني
1920
إيران
الكويت
(1920)
البحرين
قطر
عُمان
ساحل عمان المُصالح
اليمن
مستقل
1919
عدن
حضرموت
إريتريا
الحبشة
السودان الأنجلو مصري
بحر قزوين
بحر العرب
البحر الأحمر
الخليج العربي
خليج عمان
الربع الخالي
نجد
الحجاز
تابع لنجد
1926
عسير
تابعة لنجد
1920
الرياض
فتحها ابن سعود
1902
السبلة
1929
حائل
بريدة
عنيزة
الجوف
سكاكه
تبوك
تيماء
المدينة
ينبع البحر
جدة
مكة
الطائف
أبها
جيزان
صنعاء
الحديدة
زبيد
تعز
المخا
المكلا
شقرة
القطيف
الظهران
الهفوف
العوازم
بنو تميم
العجمان
شمر
عنزة
عتيبة
حرب
مطير
بلي
جهينة
الحويطات
بنو عطية
بنو صخر
الرولة
الشريقات
قحطان
السبيع
الدواسر
غامد
الزهران
المرة
العجمان
بنو يام
وادي السهباء
مجال نفوذ روسي 1907-1921
مجال نفوذ بريطاني 1907-1921
دمشق
حمص
حماه
حلب
بيروت
طرابلس
اللاذقية
أنطاكية
الإسكندرونة
أضنة
مرعش
ديار بكر
هكاري
الموصل
كركوك
بغداد
كربلاء
الحلة
النجف
البصرة
عبادان
الأهواز
طهران
قزوين
همدان
أصفهان
شيراز
كرمان
يزد
قم
كاشان
بندر عباس
بندر لنكة
مسقط
الشارقة
أبو ظبي
عمان
القدس
غزة
حيفا
سواكن
مصوع
أسمرة
1921
1922
1923
1924
1925
1926
1913
1932
1934
1919-20
100 كلم
100 ميل

إضاءة سريعة: إسرائيل - فلسطين



تكمن جذور النزع العربي – الإسرائيلي في حنين اليهود الدهري للعودة إلى «أرض إسرائيل»، الأرض التي وعد الله بها النبي إبراهيم. وقد بُنيت الصهيونية الحديثة على هذا الاعتقاد الموروث، إذ رأت أن الخلاص من الاضطهاد يكون في امتلاك أرض يُمكن إقامة دولة يهودية ذات سيادة عليها. أُقيمت أول مستوطنة يهودية عام 1878 في بتاح تيكفا. وأثناء الحرب العالمية الأولى، أعطى البريطانيون تعهّدات متناقضة للعرب واليهود: فوعدوا شريف مكة بدولة مستقلة، وبناءً عليه قاد ابناه فيصل وعبد الله الثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين؛ وفي نفس الوقت، قبلوا بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وهو المشروع الذي حظي بتأييد متزايد من الجاليات اليهودية في أوروبا، ولا سيما بعد وصول النازيين إلى سُدّة الحكم في ألمانيا. وإثر انتفاضة قام بها عرب فلسطين ابتداءً من عام 1936، وضعت خطة لتقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية، إلاّ أن الخطة عُلّقت لدى اندلاع الأعمال العدائية بين الطرفين عام 1939. وبعد أن أماط الحلفاء في الحرب العالمية الثانية النقاب عن فظائع الإبادة الجماعية التي اقترفها النازيون بحق اليهود، تزايدت الضغوط للسماح بهجرة يهودية واسعة النطاق إلى فلسطين، وسرعان ما أصبحت تلك الضغوط جارفة يتعذر الوقوف في وجهها. في عام 1947، صدرت خطة تقسيم فلسطين عن منظمة الأمم المتحدة التي تنصّ على قيام دولتين: عربية ويهودية، «متشابكتين معاً في عناقٍ غير ودّي لكأنهما حيّتان متصارعتان»، على حد وصف أحد المسؤولين. قَبِلَ زعماء اليهود بالخطة لكن العرب رفضوها. في 14 أيار/مايو 1948، انسحب البريطانيون من فلسطين، وفي اليوم التالي اعترفت الدول الكبرى باستقلال دولة إسرائيل. استطاعت الدولة الجديدة أن تنجو من هجمات متزامنة إنما غير منسّقة، شنّتها عليها جيوش الدول العربية المجاورة، مما عاد عليها بمزيد من الأراضي فوق ما خُصّص لها بموجب خطة الأمم المتحدة. بسط شرقي الأردن – الأردن لاحقاً – سيطرته على جزء من فلسطين، بما فيه القدس الشرقية التي تضم أماكن ومزارات مقدسة لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين جميعاً. وجاءت هجمات شنّها مقاتلون يهود غير نظاميين، كالمذبحة التي طالت أهالي قرية دير ياسين الفلسطينية عام 1948، لتحث آلاف الفلسطينيين على الفرار من مُدنهم وقُراهم، مما خلق مشكلة لاجئين سوف تعمل باستمرار على صبّ الزيت على النار وتتسبّب بنشوب الحروب تباعاً في الأعوام 1956، 1967، 1973 و 1982.

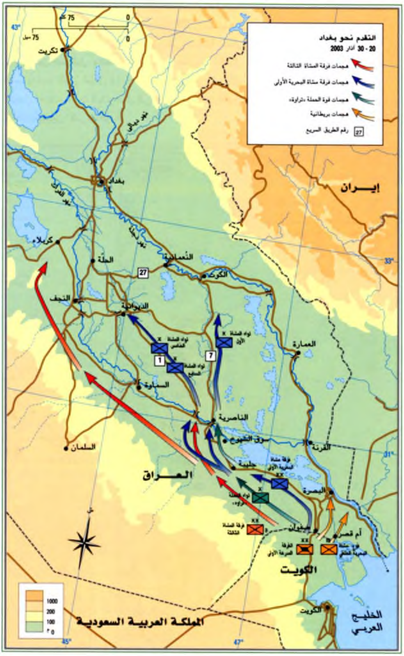
آلت الحرب العربية – الإسرائيلية الثالثة في حزيران/يونيو 1967 إلى تمكين إسرائيل من السيطرة على شبه جزيرة سيناء، وقطاع غزة، والضفة الغربية ومرتفعات الجولان السورية. وقد عمدت إسرائيل في وقت لاحق إلى ضم القدس الشرقية العربية إليها، وزرعت المستوطنات اليهودية في جميع المناطق المحتلة. النجاحات العسكرية المحدودة التي أحرزها المصريون في الحرب العربية – الإسرائيلية الرابعة في تشرين الأول/أوكتوبر 1973، شجّعت الرئيس المصري أنور السادات على زيارة القدس في عام 1977. وقد دشّنت هذه الزيارة عملية سياسية تتوّجت بتوقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل في كامب ديفيد عام 1979، تبعتها اتفاقية فك الاشتباك مع سورية، ومعاهدة سلام بين إسرائيل والأردن في عام 1994. غير أن المسألة الفلسطينية بقيت من دون حل. وإذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية، بزعامة ياسر عرفات، قد اعترفت بحق إسرائيل في الوجود عام 1988، وظفرت بحكم ذاتي محدود للفلسطينيين في غزة وأريحا وأجزاء أخرى من الضفة الغربية بموجب اتفاق أوسلو لعام 1993، فإن منظمتَيْ حماس والجهاد الإسلامي وسواهما من المنظمات الإسلامية، قد أعلنت رفضها للعملية السلمية. والحال، أن استمرار الاستيطان اليهودي، والهجمات الإرهابية على المدنيين بما فيها التفجيرات الانتحارية، والإجراءات التي تتخذها إسرائيل من قبيل بناء جدار فصل على شاكلة جدار برلين بين إسرائيل والضفة الغربية، وعمليات «القتل المُسْتَهْدَف» التي تطال قادة فلسطينيين، إنّ كل ذلك جعل احتمالات التوصل إلى سلام بين إسرائيل والفلسطينيين أكثر صعوبة.





إضاءة سريعة: الخليج 1950 - 2003

لقد شهدت منطقة الخليج نشوب عدة حروب خلال النصف الثاني من القرن العشرين؛ والحروب الرئيسية هاهنا هي: الحرب الإيرانية – العراقية في الأعوام 1979–1989؛ والاجتياح العراقي للكويت ومن ثم طرده منها في العامين 1990–1991؛ والحرب التي بدأت عام 2003 بالغزو الذي تقوده الولايات المتحدة الأميركية للعراق.



تبقى دوافع المتحاربين في كلٍ من هذه الحروب موضع جدل واسع، غير أن ثمة شواهد ضمنية جديرة بالاعتبار تقطع كلها بأن النفط كان عاملاً مهمًّا في إشعالها. فقد ظلت المنطقة قروناً مديدة، قبل اكتشاف النفط فيها، خارج بؤرة أية حرب كبرى بين الدول المحلّية أو بين القوى الأوروبية. بينما رأينا الحروب، على العكس من ذلك، تندلع مراراً وتكراراً في بحر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر في جُزر الكاريبي لا لشيء إلاّ لأنها جُزرٌ غنية منتجة للسُكر. وفَّر النفط مبالغ طائلة لدول الخليج كي تشتري كميات ضخمة للغاية من السلاح والعتاد في النصف الثاني من القرن العشرين، وهذا بدوره ما ضاعف من احتمالات وقوع حروب واسعة النطاق فيما بينها. إن الدافع الحقيقي الذي حدا بصدّام حسين إلى مهاجمة إيران أولاً، ثم الكويت بعد ذلك بعقدٍ من الزمن، قد لا يُعرف البتّة. إلاّ أنه في كلتا الحالتين، كان للأمل بإحراز نصر سريع يترتب عليه الاستيلاء على مناطق غنية بالنفط دور بارز في العملية على ما يبدو. يزعم البعض أن الولايات المتحدة هي التي حضّت بنشاط على مهاجمة إيران كوسيلة لكبح جماح الثورة الإسلامية الأخيرة فيها. وقد دلّت الدولتان، إيران والعراق، كلتاهما على درجة عالية من المرونة بالرغم من حالة الإجهاد والتوتر الشديد المُصاحبة للحرب. وخلافاً للتوقعات الإيرانية، آثر المواطنون الشيعة في العراق تقديم هويتهم العربية أو جنسيتهم العراقية على ولائهم لإخوانهم في العقيدة في إيران.

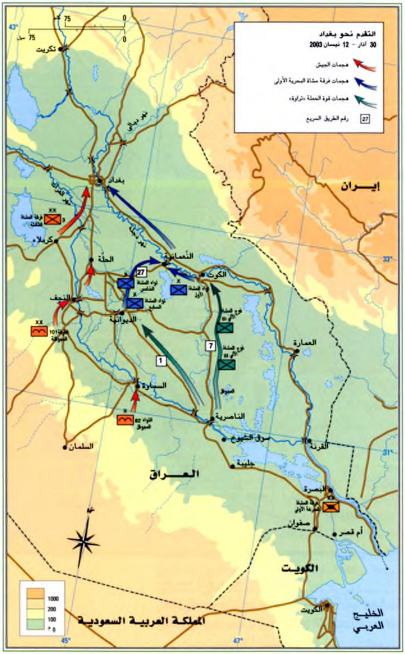
أسفرت الحرب الإيرانية – العراقية عن وقوع مئات آلاف الضحايا من الجانبين، ودامت مدة عشر سنوات تقريباً. كانت حرباً انطوت على كل خصائص وسمات الحرب المصنَّعة الكبرى كما تبلورت في الحربين العالميتين الأولى والثانية، مثل عمليات الهجوم الضخمة لقوات المُشاة، وحرب الخنادق، ومعارك تشارك فيها كل أنواع الأسلحة من دبابات وطائرات ومدفعية وصواريخ وغازات سامّة. صحيح أن الإيرانيين احتجّوا على استخدام العراق غير المشروع

للأسلحة الكيميائية، إلاّ أن المجتمع الدولي التزم الصمت حيال الموضوع. وما فتئت هذه القضية بالذات تؤثّر في مواقف الإيرانيين حيال ما يرون فيه ازدواجية معايير غربية فيما يتعلّق بأسلحة الدمار الشامل.

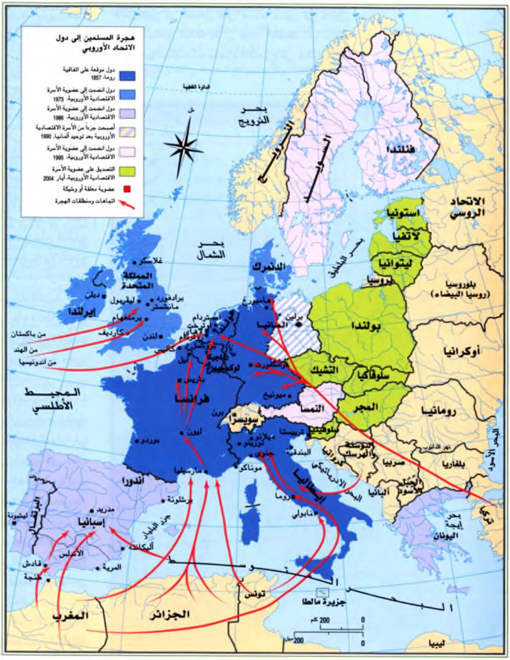
وبالنسبة للاجتياح العراقي للكويت في آب/أغسطس 1990، لعلّ باعثه كان وضع العراق المالي السيء وقراءة خاطئة لردّة الفعل الدولية المحتملة. لم يكن الاجتياح عدواناً على دولة عضو في هيئة الأمم المتحدة (وعضو في جامعة الدول العربية) فحسب، بل كان انتهاكاً صارخاً للقانون الدولي أيضاً. وإذا ما تُرك من دون رادع، فقد يدع العراق يُسيطر على حصة من احتياطي النفط العالمي أكبر بكثير مما يملك أصلاً. من منظور عراقي، يجوز التحجّج بأن الحدود والدول التي اصطنعتها القوى الاستعمارية ولا تتمتع بأي أساس تاريخي لا تستحق الاحترام. غير أن العراق كان سبق وأن اعترف رسمياً بسيادة الكويت على أراضيها ضمن حدودها الحالية في عام 1963. وعلى أية حال، قام تحالفٌ تدعمه الولايات المتحدة ويضمّ وحدات عسكرية ضخمة من مصر وسورية، بطرد العراق من الكويت في مطلع عام 1991.

وفي العام 2003، شنّت الولايات المتحدة وبريطانيا هجوماً عسكرياً على العراق، بدعوى تطبيق قرارات الأمم المتحدة التي أخفقت المنظمة الدولية في تطبيقها، وكذلك بذريعة أن العراق بات يُشكّل خطراً إقليمياً لا بل ودولياً لما يملكه من أسلحة دمار شامل، بما فيها الأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية. اعتبر العالم الهجوم على العراق انتهاكاً لأحد المبادىء الأساسية للأمم المتحدة، الذي ينصّ على عدم شرعية الحرب العدوانية. ولم تقف إلى جانب الولايات المتحدة في ذلك لا المكسيك ولا كندا، برغم اعتماد كلا البلدين اقتصادياً عليها.

لم يُعثر على أي سلاح جاهز للعمل لدى القوات المسلحة العراقية، كما لم يُعثر حتى نهاية عام 2003 على أي برنامج لتصنيع أسلحة الدمار الشامل في العراق. وقد اكتملت المرحلة الأولى من الحرب، بأن زحفت القوات المدرّعة الأميركية على بغداد، وكبرى المدن العراقية الأخرى، واحتلتها في غضون بضعة أسابيع. وتبقى الطبيعة الحقيقية للمعارك التي دارت ونطاق مشاركة الجيش العراقي النظامي فيها في وجه مصاعب هائلة غير واضحين تماماً. وبرغم نجاح الأميركيين في القبض على صدّام حسين في كانون الأول/ديسمبر 2003، إلاّ أن قوات التحالف ما برحت تتعرّض لهجمات متفرّقة تندرج في خانة حرب العصابات.



المسلمون في أوروبا الغربية



وتونس، وكذلك من بلدان غرب إفريقيا شرعوا بعد ذلك بالتوافد على فرنسا بأعداد متزايدة وترسيخ أقدامهم فيها. في البداية، كان المهاجرون في معظمهم من الذكور الذين يبعثون بتحويلات نقدية إلى عوائلهم في الوطن. إنما أخذت كفَتَيْ الجنسين تتعادلان بوصول عائلات بكامل أفرادها إلى هناك اعتباراً من ثمانينيات القرن العشرين. هذا ولئن كانت هناك جاليات مُسلمة لا يُستهان بها في مُدن مرسيليا وليون وليل، إنما تبقى باريس مدينة التوطّن بامتياز بالنسبة للمهاجرين المسلمين. أُقيم مسجد باريس الكبير في عام 1926، لكن الأحياء الإسلامية الرئيسية من المدينة لم تغدُ آهلة بالسكّان إلاّ في الفترة التالية للخمسينيات من القرن العشرين. ولا يزال المسلمون في فرنسا محل استقطاب بلدان المنشأ التي وفدوا منها، ولعل كثرة المساجد التي يبنونها تُمثّل وجه التنوّع والاختلاف هذا. والجماعات الصوفية بنوع خاص، ناشطة في باريس ولا سيما تلك العائدة إلى طُرُق إفريقية شمالية كالطريقة الدرقاوية والطريقة العلوية. وتجتذب هذه الجماعات حتى بعض الفرنسيين ممّن دخلوا مؤخراً في الإسلام.

ألمانيا (هامبورغ، ميونيخ، فرانكفورت):

يغلب على الهجرة الإسلامية إلى ألمانيا العرق التركي؛ ففي سنوات الخمسينيات من القرن العشرين، شجعت ألمانيا بصورة فعّالة هجرة العُمال الأتراك إليها. ومعظم فرص العمل المعروضة، كانت لغير المهرة أو

فرنسا (باريس):

حتى الستينيات من القرن العشرين، كانت الغالبية العُظمى من المهاجرين من البلدان الإسلامية إلى فرنسا من الجزائريين. إلاّ أن مسلمين آخرين من المغرب

لأشباه المهرة. لكن فترة السبعينيات شهدت موجة عارمة من العمال الأتراك الوافدين على ألمانيا، أفضت إلى نشوء جاليات إسلامية ذات تركّزات استثنائية. ففي تلك الفترة بالذات، التحقت عائلات بأكملها بالمهاجرين الأصليين، ومُنح معظم العُمال وضعية «العامل الضيف»، التي تُشدّد على المفهوم الرسمي بأن التوطّن مؤقت ليس إلاّ. وخلال الثمانينيات من نفس القرن، شرعت الجاليات الإسلامية في ألمانيا بتأمين ما يلزمها من مرافق دينية واجتماعية، وذلك بتشييد المساجد وتكوين الجمعيات الدينية التي ترتبط العديد منها بجماعات مقرّاتها الرئيسية في تركيا. وعلى نحو مماثل، تنشط الطُرُق الصوفية كالنقشبندية بشكل لافت؛ ومن خلال هذه الجماعات تحديداً، يلعب المتأسلمون الجُدد دوراً خطيراً داخل الجاليات الإسلامية.

بريطانيا (لندن، غلاسكو، مانشستر، برمنغهام، برادفورد):

بدأت هجرة المسلمين إلى المملكة المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر باستقرار بعض البحّارة اليمنيين في موانيء كارديف، وساوز شيلدز، وليفربول، ولندن، وأخيراً في برمنغهام. إلاّ أنّ معظم الهجرة الإسلامية إلى بريطانيا جاءت من جنوب آسيا (باكستان وبنغلادش)، حيث وصل في إبّان الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين عدد غفير من المهاجرين الاقتصاديين لشغل وظائف بناءً على استدعاءات مسبقة. وأدّى وصول عائلات بأكملها خلال الستينيات إلى قيام شتّى المرافق الضرورية لتقديم الخدمات الدينية والثقافية على غرار ما حصل في معظم جاليات المهاجرين المسلمين في أوروبا. وقد اجتذبت لندن، بالأخصّ، جاليات إسلامية متنوّعة؛ وهذا ما جعل المنظور الثقافي والديني فيها أكثر ليبرالية منه في بقية الجاليات المسلمة في المملكة المتحدة. هنا تختلط أعدادٌ ليست بالقليلة من العرب والباكستانيين والبنغلادشيين، باللاجئين النازحين حديثاً إليها، فضلاً عن الطلاب المسلمين الوافدين إليها من وراء البحار. بينما تتميّز برادفورد باحتضانها جالية أكثر تجانساً من أصل باكستاني، وهذا ما انعكس تنوّعاً واختلافاً أقلّ في النظرة الدينية. برمنغهام، من جهة أخرى، وإنْ كانت موئلاً لجالية يطغى عليها الأصل الباكستاني، إلاّ أنّ المسلمين فيها أكثر تنوّعاً بكثير، وهم يضمون عدداً ليس بالقليل من المتأسلمين من أصول إفريقية – كاريبية. إن الشباب المسلم في بريطانيا آخذٌ، وعلى نحو متزايد، باكتشاف الإسلام من جديد كجزء من هويته الشخصية. والشّابات المسلمات إنما يتخذن الحجاب حالياً باعتباره وسيلة لتوكيد هويتهن الخاصّة بناءً على السبر الذاتي وليس بقبول المُسلّمات والممارسات الدينية للأجيال السابقة. ومثلما هي الحال في السياقات الأوروبية الأخرى، تؤدي الصوفية في بريطانيا دوراً مهمّاً كحركة دينية، ولا سيما في اجتذاب المهتدين الجُدد إلى الإسلام.

هولندا (أمستردام، روتردام، لاهاي، أوترخت):

في هولندا جالية إسلامية متنوّعة المذاهب والمشارب، وهي تتألف من أتراك، وأفارقة من شمال القارّة، وملوخيين من جُزر الهند الشرقية الهولندية سابقاً. ومع ترسّخ أقدام الجاليات الإسلامية في هولندا، طرأت زيادة على عدد المساجد التي تُبنى هناك منذ عقد الثمانينيات من القرن العشرين. والعديد من المساجد ترتبط ببلدان المنشأ، ولا سيما تلك التي تعود إلى الأتراك لأن أئمتها تُوفدهم الدولة التركية نفسها. تأخذ الدولة الهولندية على عاتقها تعليم اللّغات الوطنية لأبناء المهاجرين في المدارس؛ لكن مثلما هي الحال في سائر أنحاء أوروبا، التعليم الديني مهمّة تضطلع بها المساجد حصراً.

إيطاليا (روما، ميلانو، تورينو):

في إيطاليا جالية إسلامية متنوّعة الأعراق، إنما يغلب على تكوينها المغاربة والتوانسة، وترفدها مؤخراً أعداد متزايدة من يوغسلافيا السابقة. في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، حرصت الجالية المغربية بالخصوص على بناء المساجد والمرافق اللازمة لسدّ الاحتياجات الدينية والتعليمية.

إسبانيا:

إن إسبانيا، بتاريخها الإسلامي التليد، لترتدي أهمية كبيرة كبلد أوروبي يشهد حالياً نوعاً من الإحياء الإسلامي ولا سيما في أقاليمه الجنوبية. إن الغالبية العُظمى من المهاجرين المسلمين إلى إسبانيا هم من دول شمال إفريقيا، وسوادهم الأعظم من المغرب. وهنالك جاليات من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى ومن الشرق الأوسط أيضاً. إن بناء المساجد جارٍ على قدم وساق في إسبانيا، وكذلك تأمين مرافق ومستلزمات التعليم الديني الإسلامي. يتّسم الموقف الإسباني من الإسلام بالتعاطف والودّ على وجه العموم، وثمة حركة ذات شأن لاعتناق الإسبان الدين الإسلامي ولا سيما في بلاد الأندلس. ولعلّ التوكيد على استقلالية المنطقة والتحوّل إلى الإسلام يندرجان هنا في إطار الاكتشاف المتجدّد لهوية جرى كبتها ردحاً طويلاً من الزمن.



هذا المسجد القائم في حدائق قلعة شفتزينغن بألمانيا، والذي يرجع بناؤه إلى حوالى العام 1750، يمزج في طرازه المعماري الموتيفات الإسلامية بالمؤثرات الباروكية الأوروبية.

المسلمون في أميركا الشمالية

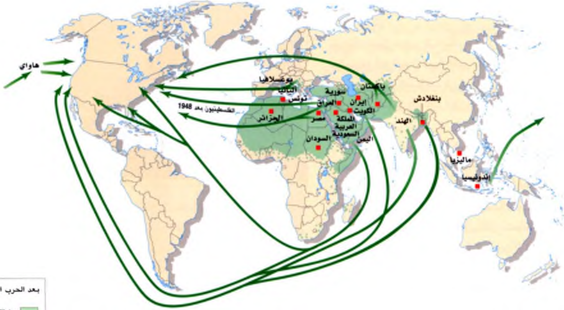
تعود نشأةُ السكّان المسلمين في الولايات المتحدة إلى حقبة مُبكرة زمنياً. فثمة شاهد على أن المسلمين الأوائل وصلوا إلى هناك برفقة المستكشفين الإسبان في القرن السادس عشر. لكن فاتحة الجاليات الإسلامية التي يُعتد بها إنما نجمت عن هجرة من سورية ولبنان إبّان الستينيات من القرن التاسع عشر ما لبثت أن استتبعت مزيداً من المهاجرين في العقود اللاحقة. وشهدت الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية توافد سيل دافق من المهاجرين على أميركا ردّاً على القيود الاقتصادية والسياسية التي تكبّلهم في بلدانهم الأصلية، ومنها: أوروبا، وجنوب غربي آسيا، وشرق إفريقيا، والهند، وباكستان.

في مقدمة الولايات التي استوطنتها الجاليات المسلمة تأتي ميتشيغن، أوهايو، إنديانا، إيلينويز، ماساشوستس، أيوا، لويزيانا، نيويورك وبنسلفانيا. في كندا، لم تكن الجاليات المسلمة متركزة إلى هذا الحدّ في أماكن معيّنة، بل كانت أكثر حركية من الوجهة الجغرافية. كما أن بلدان المنشأ اختلفت، هي الأخرى، عنها بالنسبة إلى الولايات المتحدة، إذ جاءت الغالبية العُظمى من المهاجرين المسلمين إلى كندا من بلدان عربية، وشمال إفريقية، ومن جنوب الصحراء الكبرى الإفريقية، ومن جنوب شرقي أوروبا، وتركيا، وإيران، وأفغانستان، والشرق الأقصى وشرق إفريقيا. وبعضهم وفد إليها من أقطار تابعة للكومنولث البريطاني. وفي حالتَيْ الولايات المتحدة وكندا على السواء، كان اعتناق الإسلام عاملاً في بروز المجتمع الإسلامي هناك. فالمتأسلمون الأميركيون من ذوي الأصول الإفريقية، أي الآفرو – أميركيين، استأثروا وما زالوا بأهمية كبيرة على وجه الخصوص.



إن «أمة الإسلام» حركة انفصالية ناشطة بين الآفرو– أميركيين، لكن أكثرية المسلمين لا يعدّونها من الإسلام في شيء. غير أنها تظلّ قوة يُعتدّ بها بالرغم من أن نسبةً متزايدةً من المسلمين الآفرو – أميركيين باتت تنحاز إلى المعتقدات والعبادات المأثورة عن التيار الرئيسي للإسلام السُّنّي منذ عام 1976، حين تولّى واريث دين محمد، ابن إليجا محمد مؤسِّس «أمة الإسلام»، زعامة قسمٍ من تلك الحركة. يُمثل المسلمون الآفرو – أميركيون نسبةً لا يُستهان بها من أبناء الجالية المسلمة في الولايات المتحدة. والإقبال على اعتناق الدين الإسلامي كبيرٌ بنوع خاص بين نزلاء السجون من السود، وذلك ردّاً على التمييز العنصري والمعاملة الوحشية الممأسسة التي يلقونها، وهو يعوِّل إلى حد بعيد على الأصول الإسلامية لأسلاف العديد من المواطنين الآفرو – أميركيين. المتأسلمون من البيض في أميركا ليسوا على القدر ذاته من الأهمية العدديّة، إلاّ أنهم مع ذلك دعامة ركنية للدين الإسلامي ولهم صوت مسموع، وكثيراً ما يرتبطون، شأن نظرائهم في أوروبا، بالحركات الصوفية. لقد آل التأسيس الأوّلي للإسلام في أميركا الشمالية إلى فترة من الذوبان في المجتمع، صُنِّفت معها قضية الهوية الدينية ضمن قضايا الاندماج الثقافي العام، فيما بقي المسلمون الآفرو– أميركيون خارج هذه السيرورة. لكن مع قدوم الطلاب المسلمين من وراء البحار، والمهاجرين الأحدث عهداً المتصفين بالتديُّن كالباكستانيين على سبيل المثال، طرأ ارتفاعٌ على نبرة التوكيد على الهوية الدينية في أميركا. هنالك على وجه العموم طيفٌ واسع من العبادات وأشكال الممارسة الدينية بين الجاليات المسلمة في أميركا الشمالية. ولئن كانت العديد من الجمعيات الإسلامية والمساجد تقوم على أساس عرقي، إلاّ أن هناك أيضاً منظمات إسلامية أبوابها مشرَّعة لمختلف الأعراق دون استثناء.

لنأخذ «اتحاد الطلبة المسلمين»، الذي أسَّسه في عام 1963 الطلابُ المسلمون في جامعة إيلينويز بمدينة أوربانا مثلاً، فهو يضطلع بدور بالغ الشأن في التشديد على الهُوية الإسلامية كنقيض للتمايز بالهُوية العرقية. وهناك منظمات مظلّية أخرى في الولايات المتحدة، ومجلس الجاليات الإسلامية في كندا، أسهمت وما فتئت تسهم بقسطٍ لا بأس به في هذا التحوّل نحو الهوية الإسلامية الجامعة. على المستوى



المحلّي، تتوافر لمعظم تجمعات المسلمين في المدن، مثل ديترويت ونيويورك وشيكاغو، المرافق اللازمة لتأمين الطعام الحلال، ومستلزمات الدفن، والمساجد والمصليات والقاعات الاجتماعية، فضلاً عن المؤسسات التربوية الخاصة بالتعليم الديني للأطفال. أما لجهة علاقتهم بالمجتمع الأوسع، فالمسلمون في أميركا الشمالية، وفي الولايات المتحدة بنوع أخصّ، واجهوا تحدّيات ليست بالهيّنة على مدى السنوات الخمس والعشرين الفائتة. فبعد قيام الثورة الإيرانية عام 1979، واحتجاز مواطنين أميركيين في السفارة الأميركية في طهران، أخذ الرأي العام في تغيير نظرته إلى الإسلام والمسلمين، متخذاً في ذلك وجهة سلبية. وقد كان لأحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001، والهجمات الأخرى التي استهدفت أميركيين، وعمليات قتل المدنيين الإسرائيليين (الذين يتعاطف معهم بقوة المسيحيون الإنجيليون ناهيك عن اليهود في أميركا)، وقعُها الشديد على الجاليات المسلمة في الغرب عموماً، وفي الولايات المتحدة بشكل خاص. وهكذا ترتب على قادة الجالية الإسلامية والزعماء الدينيين أن يدحضوا من جهة محاولات تنميط الإسلام سلبياً بتصويره على أنه دينُ عنفٍ، ويتصدّوا من جهة أخرى لمشكلة تسييس الإسلام في أوساطهم هم.



مالكولم إكس، زعيم المسلمين السود في أميركا، استهلّ حياته مجرماً صغيراً قبل أن يهتدي إلى جماعة «أمة الإسلام» ذات النزعة الانفصالية. لكن حجّه إلى مكة عام 1964 أقنعه بأن الانفصالية اتجاه خاطىء، وأن الإسلام الحقّ يضم أناساً من جميع الأعراق. وقد أُدين ثلاثة من أعضاء «أمة الإسلام» بمقتله إثر اغتياله في شباط/فبراير 1965.

المساجد وأماكن العبادة في أميركا الشمالية



مسجد المقرّ الرئيسي للجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية بالقرب من مدينة إنديانا بوليس في ولاية إنديانا. المبنى من تصميم المهندسين المعماريين غولزار حيدر ومختار خليل، واكتمل بناؤه عام 1981. إنه يُقدِّم صورة عصرية وتقدمية للإسلام، الدين الذي يعتنقه ما يربو عن ثمانية ملايين من الأميركيين والكنديين. يحتوي المبنى فضلاً عن قاعة فسيحة للصلاة، على مكتبة ومكاتب إدارية.

بعد أن استتب المقام للجاليات الإسلامية في الولايات المتحدة، شهد العقد الثاني من القرن العشرين أول ظهور للجوامع والمساجد على أراضيها، تلبيةً لاحتياجات المسلمين الدينية والاجتماعية. ومثلما جرى في أوروبا، استُخدمت البيوت في أول الأمر كمصلّيات، وتبع ذلك تحويل بيوت قائمة إلى مساجد، بينما جاء إنشاء المساجد المشيَّدة خصيصاً لهذا الغرض في مرحلة لاحقة. وقد أُقيمت معظم المساجد أصلاً لخدمة جاليات محدَّدة عرقياً؛ كما لم تكن دينية بالمعنى الحصريّ، إذ كانت المباني تُستعمل لأغراض عبادية واجتماعية على حد سواء. وفي أحيانٍ كثيرة، كان يُصار إلى استئجار قاعات عامّة أو صالات خاصة لمناسبات أضخم، كصلاة العيد مثلاً، كي تستوعب عدداً غفيراً من المؤمنين؛ وهذا ما كان يحصل في تورنتو ومونتريال وإدمونتون في كندا مثلاً. وأول مسجد للأفرو – أميركيين، وكان تابعاً لـ«أمة الإسلام»، أُقيم في حي هارلم بنيويورك عام 1950.

لكن حتى الستينيات من القرن العشرين، لم يكن يوجد ما يكفي من المساجد والجوامع لاستيعاب أبناء الجالية الإسلامية المتنامية باطراد، التي وجدت نفسها مضطرة إلى استخدام مصلّيات وفسحات خاصة لأداء فرائضها الدينية. على كلٍ، هنالك الآن ما يربو على ألف مسجد مسجَّل رسمياً في الولايات المتحدة.

لعلَّ واحداً من أضخم المساجد التي أُقيمت في الولايات المتحدة، هو المركز الإسلامي في ديترويت الذي ارتفع بنيانه ما بين عامَيْ 1962 و1968. وقد تكفَّل بنفقات بنائه أبناء الجالية الإسلامية في المدينة بحكم كونهم جماعة المصلّين الذين سيرتادونه. ثم جاءت التبرعات والمنح المالية من الحكومات المصرية والسعودية والإيرانية واللبنانية لتكشف عن حدوث تحوّلٍ نحو إقامة مساجد أقلّ اصطباغاً بالصبغة العرقية لناحية الذين يؤمّونها للصلاة. وقد أنشىء «مجلس المساجد» في الولايات المتحدة لتسهيل أمر توفير أماكن العبادة اللازمة للجاليات الإسلامية هناك.

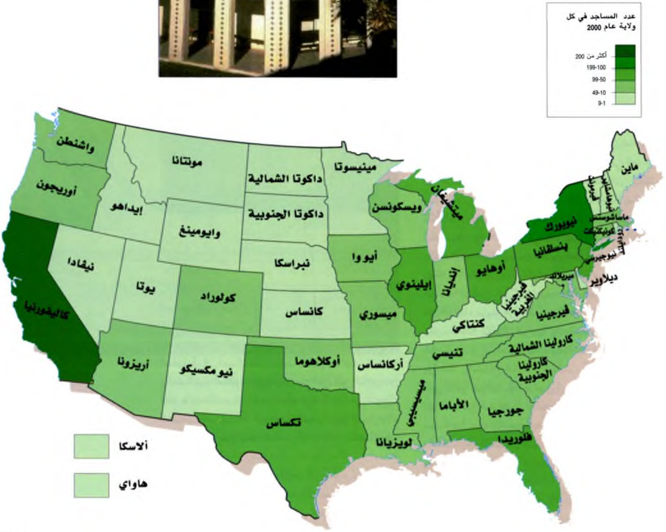
ويتبيّن من تقرير نُشر في العام 2001، أن الذين يؤمّون المساجد، بحسب الانتماءات العرقية، هم أبناء جنوب آسيا بنسبة 33 بالمئة، والآفرو– أميركيون بنسبة 30 بالمئة، والعرب بنسبة 25 بالمئة. وما فتىء أئمة المساجد يُستقدمون من بلدان كمصر وتركيا وباكستان، إلاّ أن ثمة أعداداً متزايدة من الأئمة يجري إعدادهم داخل الولايات المتحدة بالنظر لتوفّر المزيد من الوسائل الضرورية لتدريب الأئمة. بعض الأئمة يُموَّلون كذلك من الخارج، لكنهم في معظمهم يتقاضون أجورهم من الجاليات المحلّية. وقد أُنشىء مجلس للأئمة في عام 1972؛ والمساجد، على وجه الإجمال، تُدار بواسطة مجالس استشارية محلّية.

تنبغي الإشارة هنا إلى أن المساجد والمباني الأخرى التي يستخدمها المسلمون في أميركا الشمالية، بما في ذلك «حُسينيات» الشيعة الاثني عشرية، و«جَمّعَة خانات» الإسماعيليين، ومعابد «أمة الإسلام»، تؤدي في واقع الأمر سلسلة متنوّعة من الوظائف إلى جانب كونها أماكن للصلاة والعبادة. فهي تُستعمل لأغراض تربوية شتّى، كمدارس لنهاية الأسبوع، وصفوف للأطفال، وقاعات للمحاضرات، وكذلك لتنظيم دورات لتعليم الراشدين. وهي تخدم أيضاً بمثابتها مكتبات عامّة، وحوانيت لبيع الكُتب، ومطابع صغيرة لنشر المواد الإسلامية، فضلاً عن استضافتها المناسبات الاجتماعية كحفلات الأعراس ومراسم التأبين. هذا عدا عن اضطلاعها بدور حاسم كنقطة اتصال بغيرالمسلمين كي يتعرّفوا على الإسلام ويلتقوا بالمسلمين – وهذه لعمري مسألة في غاية الأهمية خصوصاً في أعقاب هجمات نيويورك وواشنطن عام 2001. وهكذا مع تطوّر الجاليات الإسلامية باطراد في أميركا الشمالية، تغدو المساجد ومراكز التجمّع الإسلامية الأخرى مفاصل حيّة لإطلاق المبادرات.

لكن التردّد على أماكن العبادة يجب ألا يُفهم بالضرورة على أنه تطوّر يكتنف الجالية الإسلامية في أميركا بأوسع مظاهره. ففي دراسة ميدانية أُجريت عام 1987، اتضح أن ما بين 10 و 20 بالمئة فقط من المسلمين في أميركا يؤمّون المساجد بانتظام، في مقابل 40 بالمئة من المسيحيين يواظبون على الصلاة في الكنائس. وفي الوقت الذي قد يُعيد فيه بعض المسلمين من الجيل الصاعد توكيد هُويتهم الإسلامية بالانغماس في ممارسة الشعائر الدينية، نجد أن الأغلبية العُظمى من المهاجرين الجُدد الوافدين من جنوب آسيا ووسطها أكثر ميلاً إلى الاندماج في التيار السائد للمجتمع الأميركي.



المركز الثقافي الإسلامي في تامبه بولاية أريزونا (بُني عام 1984).



الفنون الإسلامية

عرفت الأقطار الإسلامية تقاليد نابضة بالحيوية والنشاط في مضمار الفنون، التي ازدهرت فيها أيما ازدهار. لكن وخلافاً للتقاليد الفنية للشعوب الأخرى،



كان الخزف الصيني على الدوام موضع إعجاب وتثمين في العالم الإسلامي، ويُمكن تبيّن تأثيره بجلاء في هذا الإبريق السلجوقي.

فإن الفنون التي تفوق سواها من حيث الأهمية في الحضارة الإسلامية، كانت تُعدّ «زخرفية»، «ثانوية» أو «محمولة» في الحضارات الأخرى، من ذلك: الأقمشة، والخط، وفنون الكتابة، والسيراميك، والمشغولات المعدنية، والآنية الزجاجية وما إليها. وهذه بمعظمها كانت تستلزم لصُنعها تحويل مواد وضيعة كالألياف النباتية أو الحيوانية، والرمل، والطين، أو الفلزات المعدنية، إلى أعمال فنّية جليلة تتميّز بالألوان الزاهية والتصاميم المعقدة. مهما يكن من أمر، فإن الكثير من أكثر هذه الأعمال رفعةً ورهافةً، كانت في نهاية المطاف قطعاً ذات قيمة منفعية، من قبيل دِلاء الاستحمام وصينيات الطعام المعدّة للاستعمال في الحياة اليومية.

كثيراً ما نسمع أن الإسلام يُحرِّم تصوير الأشخاص في فنونه، لكن الحقيقة ليست كذلك تماماً. ينبغي القول بالأحرى إن الإسلام لا يُحبِّذ التصوير في الموضوعات والسياقات الدينية كافة؛ والسبب يعود ربما إلى الخشية إيّاها من الوقوع في الوثنية التي ألمّت بالديانات الأخرى في باكر الأزمنة. أما في السياقات الأخرى، ولا سيما في الوضعيات الخصوصية أو البلاطية، فقد رأينا تقليداً حيّاً من الفن التصويري ينمو ويزدهر. وحسبنا شاهداً على ذلك، جدران القصور التي كثيراً ما كانت تزدان بالمشاهد المتضمنة صوراً بشرية. أما في المساجد، فقد كانت الزخرفة غير التصويرية التي أساسها التزيين بالأشكال الهندسية والنباتية، وكذلك بالكتابة النقشية، هي الطاغية أكثر من سواها. وإذا كان فن تصوير الأشخاص بجميع صوره، فناً غير ذي صبغة دينية تعريفاً في ديار الإسلام، فإن العكس ليس بالضرورة صحيحاً. ذلك أن الفن غير التصويري كان جد مُلائم ومحل احترام كبير في كل السياقات والوضعيات، علمانية كانت أم دينية.

كانت الأقمشة بمثابة الدعامة الأساسية للحياة الاقتصادية في القرون الوسطى الإسلامية. فكانت تُصنع من الصوف، والكتّان، والحرير، والقطن؛ وتتراوح تشكيلتها من الأثواب الرقيقة كالأورغندي والموصلين (الأول مشتق اسمه من مدينة أُورغنش في آسيا الوسطى، والثاني من مدينة الموصل في العراق)، إلى البطانيات المتينة واللّباد والأقمشة التي يصنع منها البدو الرُّحّل خيمهم. ولم تكن الأقمشة تُستخدم لإكساء الأفراد فحسب، بل كانت تدخل في صُلب تحديد الفضاءات وتأثيثها في تلك البلاد الجافّة الفقيرة بالأخشاب، حيث يجلس الناس عادةً على السجاجيد ويتكئون على الوسائد. كانت الأقمشة في مُجملها من الصِّنف العادي، غير المزخرف؛ لكن السادة الموسرين، من الخلفاء نزولاً إلى التجّار، كانوا يشتهون الأقمشة الغريبة، ذات الألوان الزاهية والنقشات المتقنة. ولذلك كان يُصار إلى إضفاء البهجة على الخيوط الخام بواسطة الأصباغ الفرحة المصنوعة من مواد شتّى، التي كانوا هم أنفسهم يتاجرون بها على نطاق واسع. لقد استطاع الحرفيون والصنّاع المهرة أن يستنبطوا مجموعة مؤهلة من التقنيات، تبدأ بالتطريز والتسجيف (الكنفا) وتنتهي بالحياكة على النَّوْل والتلوين بالأصباغ، وكل ذلك من أجل أن تأتي أقمشتهم غايةً في الجمال.

وتبجيل الكلمة في الإسلام يعني أن تكون الكُتب والكتابة موضع تقدير بالغ في كل مكان. وقد أدّى

تعلُّم تقنية صُنع الورق من بلاد آسيا الوسطى في القرن الثامن، إلى حدوث طفرة هائلة في تأليف الكتب، والتدريس بالكتب، وإنتاج الكتب، ناهيك عن الفنون المصاحبة لها والمقترنة بها، كالخط والزخرفة والتذهيب والتجليد، وأخيراً التزيين بالرسوم. ولعلّ أفخر المخطوطات وأتقنها، هي تلك النُسخ من القرآن التي كانت تُرقن في البداية على الرقّ، ولاحقاً على الورق. وهي تحفل في الغالب بزخرفة غير تصويرية ولا تدخلها الرسوم مطلقاً. لكن الكُتب التي تتخلّلها تصاوير، ولا سيما تلك المُصنّفة في خانة الأدب الملحميّ أو الشعر الغنائي الفارسي، فقد باتت من الصنف الرائج في عالم الثقافة الإيرانية، وذلك بدءاً بالقرن الرابع عشر حين أقام الحكّام الناطقين بالفارسية في إيران وتركيا والهند محترفات لهذه الغاية وأنتجوا فيها بعضاً من أعظم وأروع الكُتب التي عرفها العالم على الإطلاق.

وثمة العديد من الفنون الأخرى المقترنة بديار الإسلام كانت تتوسل النار لتحويل المعادن المستخرجة من الأرض. فقد ورث المسلمون تقاليد صناعة الفخّار الموغلة في القِدم عن الشرق الأدنى، لكنهم أضافوا إليها وطوّروها من خلال استنباطهم قوالب خزفية جديدة، وتقنيات الصقل والتزجيج، وتشكيلة غنية من الأشكال الزخرفية. وقد اجتمعت بعضٌ من هذه المقوّمات المميّزة، كالرسم بالطلاء الفوقي اللمّاع المبتكر في عراق القرن التاسع، والعجينة الصلصالية المكتشفة في مصر وإيران القرن الثاني عشر، والرسم بالطلاء التحتي المطوّر في إيران القرن الثاني عشر أيضاً، لتنفجر نشاطاً خزفياً خلّاقاً منقطع النظير في بريطانيا حتى القرن الثامن عشر. صحيح أن غالبية المصنوعات كانت عبارة عن آنية فخارية غير مطلية، معدّة لتخزين ونقل المياه والأطعمة من يوم ليوم، إلاّ أن الإقبال الشديد على اقتناء وتقليد الأطباق، والزبديات، والأباريق، والزجاجات، والأكواز الفاخرة المصنوعة في الأقطار الإسلامية، شكّل ظاهرة مثيرة بكل معنى الكلمة من الصين إلى إسبانيا. أما صناعة الزجاج بطريقة النفخ، وهي تقنية ابتُدعت في سورية قبل العصر الإسلامي، فبقيت خاصيّة ينفرد بها المشرق دون غيره. فكان صنّاع الزجاج والزجّاجون ينتجون المصابيح المذهبة والمطلية بالمينا بالآلاف كي تُضاء بها المساجد والمدارس التي رُفعت لنشر كلمة الله.

يُقال إن النبي محمد قد نهى عن استعمال الآنية الذهبية والفضية، لذا عمد الحرفيون المسلمون إلى صُنع الأدوات والأوعية اللازمة للاستعمال اليومي من خلائط النحاس، كالنحاس الأصفر والبرونز، وبلغوا شاواً بعيداً في هذا المضمار. وكان الكثير من هذه



وبالمثل، يمكن تلمّس المؤثرات الأوروبية في تصوير الشخصيات من خلال هذا الرسم للسلطان سليم الثالث.

الصينيات، والأحواض، والزبديات، والدلاء، والأكواز، والمباخر، والمصابيح، والشمعدانات وما إليها، تُرصّع بالمعادن الثمينة لجعل أسطحها أكثر إشراقاً ومرآها أبهج للعين. والمشغولات المعدنية المعدّة للأغراض الدينية ما كانت تختلف كثيراً عن تلك المستعملة في المنازل إلاّ من حيث زخرفتها، التي كانت أقرب إلى الزخرفة الخطّية والهندسية والنباتية منها إلى الزخرفة التصويرية.


كازاخستان
أوزبكستان
قيرغيزيا
تركمنستان
طاجيكستان
الصين
أفغانستان
باكستان
النيبال
بوتان
بنغلادش
الهند
سري لانكا
إيران
العراق
سورية
لبنان
فلسطين
الأردن
تركيا
جورجيا
أرمينيا
أذربيجان
المملكة العربية السعودية
الإمارات العربية المتحدة
عُمان
اليمن
إثيوبيا
الصومال
كينيا
أوغندة
البحر الأسود
بحر قزوين
الخليج العربي
البحر الأحمر
بحر العرب
المحيط الهندي
أماسيا
قيصرية
دياربكر
تبريز
الموصل
الرقة
حلب
دمشق
بغداد
سامراء
البصرة
كاشان
اصفهان
يزد
شيراز
كرمان
مشهد
نيسابور
مرو
هراة
كابول
بخارى
سمرقند
أورغنتش
كشمير
لاهور
دلهي
أغرا
جايبور
كراتشي
أحمدأباد
كالكوتا
بومباي
حيدر أباد
بنغالور
مدراس
الرياض
مكة
صنعاء
الخرطوم
أديس أبابا


الفنون الإسلامية
سجاديات
خزفيات
أقمشة
مشغولات معدنية
زجاجيات
محفورات عاجية
محفورات يشبية
رسومات الكتب وزخرفتها
بلجيكا
لوكسمبورغ
باريس
فرنسا
سويسرا
التشيك
النمسا
المجر
رومانيا
أوكرانيا
مولدافيا
بلغراد
البوسنة والهرسك
يوغسلافيا
شومن
بلغاريا
إيطاليا
روما
ألبانيا
اسطنبول
إزنيك
بورصة
اسبانيا
البرتغال
توليدو (طليطلة)
ليشبونة
قرطبة
مورسيا (مرسية)
غرانادا (غرناطة)
مالاجا (ملقة)
باليرمو
اليونان
أثينا
تونس
القيروان
تونس
قفصة
صفاقس
البحر المتوسط
الرباط
فاس
مراكش
المغرب
المحيط
الأطلسي
الجزائر
ليبيا
الإسكندرية
القاهرة
مصر
الصحراء الغربية
مدار السرطان
موريتانيا
مالي
النيجر
تشاد
السودان
دكار
السنغال
غينيا
كوناكري
بوركينا فاسو
ساحل العاج
أبيدجان
ليبيريا
غانا
أكرا
توغو
بنين
نيجيريا
لاغوس
الكاميرون
جمهورية إفريقيا الوسطى
جمهورية الكونغو
الكونغو
الغابون

أبرز المواقع المعمارية الإسلامية

حلية معمارية من النقش النافر، موجودة في قصر بناه المأمون، أقوى ملوك الطوائف، في طليطلة.



إن وجود المسلمين في أية بقعة من العالم إنما يُستدلّ عليه بمبانٍ من أنماط مميّزة، يأتي في طليعتها المسجد الجامع، أو مسجد الجمعة. وإذا كان من الجائز أن يتخذ المسجد أي شكل كان، تبعاً للمواد المتوافرة محلياً وتقاليد البناء المتعارف عليها، فإن المبنى يجب أن يكون دائماً مواجهاً للقبلة، أي في اتجاه الكعبة، ورحباً بما فيه الكفاية لاستيعاب المؤمنين. تُشيَّد المساجد، على العموم، من الطوب أو الحجارة، وتُسقف عادةً بالعقود أو القباب. فلطالما كان الخشب نادراً، وبالتالي غالياً جداً، كي يُستعمل في التسقيف في المناطق الجافّة إلى حد بعيد، وإنْ كان قد استُعمل على نطاق واسع في المناطق كثيفة الأحراش كبلاد الأناضول وجنوب شرقي آسيا. وفي أماكن أخرى، ادُّخرت الأصناف الممتازة من الخشب خصيصاً لتأثيث المساجد، فكانت تُصنع منها المنابر ومناضد القراءة، التي غالباً ما تكون مطعّمة بأخشاب أخرى، بالعاج أو بعرق اللؤلؤ. كانت المساجد تُزيَّن على نحو متقن بواسطة البلاط اللمّاع والنقوش المجصّصة، وتُكسى أرضيتها بالسجاد المزأبر أو العادي. وقطع السجاد المستعملة في المساجد هي من النوع الموشّى بتصاميم نباتية، هندسية وكتابية. ذلك أن تصوير الأشخاص كان مستبعداً من السياقات الدينية، ولا تجده إلاّ في الأماكن والوضعيات غير الدينية. عملياً، كل المساجد لها «محراب» في الجدار لاستقبال القبلة، والعديد منها تعلوها مئذنة أو أكثر يُرفع منها الأذان لإقامة الصلاة. ولمّا كانت المساجد في الجملة تُبنى من أفضل المواد المتوافرة طُراً، ويُسهر على صيانتها بانتظام عبر القرون، فهي عادةً ما تكون في طليعة العمارات المُحافظ عليها في أية بقعة من البقاع.

ينزع الحكّام، في أغلب الأحوال، إلى بناء قصور منيفة وباذخة لأنفسهم، يرمزون بها إلى ما ينعمون به من جاه وسلطة. إلاّ أن هذه القصور لم يُكتب لها البقاء مثلما كُتب للمساجد لأن تصميمها وإنشاءها كانا يتسمان بقدر أكبر من التجريبية. أضف إلى ذلك أن الوارثين كثيراً ما يعزفون عن صيانة الإنجازات الباهرة لخصومهم. لقد تركّزت التنقيبات الأثرية في الديار الإسلامية على القصور المهجورة أو المهملة، مثل خربة المفجر، المنتجع الأموي بالقرب من أريحا؛ وسامراء، العاصمة العبّاسية في القرن التاسع في العراق. قلّة من القصور الإسلامية فقط قُيّض لها أن تبقى على وجه الأرض، نذكر منها: «قصر الحمراء» في غرناطة، و«توبكابي سراي» في استنبول، و«الحصن الأحمر» في دلهي. إنّ القصور الإسلامية عادةً ما تكون مزوّقة ومبهرجة، لكنها مبنية بطريقة رديئة، تُعطى فيها الأولوية للمظهر والإبراز على الشكل والإنشاء. وخلافاً لما هي الحال في قصر فرساي أو الأرميتاج، تأخذ القصور الإسلامية بصورة نمطية شكل مبانٍ مُلحقة بها أجنحة صغيرة متحلّقة حول أفنية داخلية وحدائق غنّاء.

بالرغم مما يُقال من أن النبي محمد قد استاء وتجهّم لدى رؤيته أضرحة تذكارية تُقام فوق قبور الموتى، إلاّ أن بناء الأضرحة أضحى مع ذلك شكلاً رئيسياً لرعاية العمارة في العديد من ديار الإسلام. فكانت تُبنى الأضرحة فوق مدافن رجال التقوى والصلاح بالخصوص، فضلاً عن قبور الأمراء التوّاقين إلى حفظ ذكراهم في عالمٍ يلفّه الغموض. إن معظم الأضرحة كناية عن مبانٍ مقبّبة، وهي إما مربعة الشكل أو مثمّنة الأضلاع أو دائرية؛ وتتراوح ما بين أضرحة الأولياء البسيطة في شمال إفريقيا إلى صرح «تاج محل» المهيب في الهند. والكثير منها مُزوَّد بمحراب يُحدّد اتجاه القبلة إذا ما أراد زوّار المقام أن يؤدوا الصلاة على روحه. ولبعضها مبانٍ ملاصقة كي

تتسع للزوّار المنتظرين أو للقيام ببعض الخدمات العامة المتراوحة بين تدريس القرآن وإعداد الطعام للفقراء. وبهذه الطريقة، كان يتسنّى للسادة استخدام مؤسّسة خيرية ما لتسويغ إقامة ضريح.

يُدفن المسلمون في التراب مباشرةً، ملفوفين بكفن أبيض بسيط ليس إلاّ. وهكذا، فإن أدوات الدفن التي عادةً ما يُعوِّل عليها علماء الآثار لفهم التقاليد الثقافية الأخرى، لا وجود لها في ديار الإسلام. غير أن كنائس أوروبية، واستُخدم بعضها للفّ عظام القديسين المسيحيين.

إن المكتشفات الأثرية لتشهد على مدى اتساع شبكة الطُرُق التجارية التي كانت تتقاطع في ديار الإسلام طولاً وعرضاً، رابطةً الصين والهند وإفريقيا الاستوائية بأوروبا. وبفضل تدجين الجمل قبل ظهور الإسلام، صارت التجارة تتمّ في معظمها بطريق البرّ، مع إنشاء خانات يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة



فناء داخلي لخان قانصوه الغوري في القاهرة.

الجفاف النسبي الذي يُميِّز القسم الأكبر من مناطق العالم الإسلامي، ولا سيما مصر وآسيا الوسطى، ساعد على حفظ المواد العضوية الهشّة التي لولاه لكانت اضمحلت في التراب. وأهم هذه المواد، الأقمشة التي كانت تلعب دوراً محورياً في الاقتصاد الإسلامي في القرون الوسطى، والكثير من هذه الخرق في حالة بالية وغير جذّابة بالمرة حتى إنها نادراً ما تُعرض في المتاحف. ومن المفارقة بمكان، أن أفضل أصناف الأقمشة من بلاد المسلمين، والكثير منها مزركش بابتهالات وتبريكات عربية، كانت قد حُفظت في

15 ميلاً لإيواء المسافرين ودوابهم وكذلك بضائعهم. وجزءٌ من التجارة كان يتمّ بطريق البحر، فيسلك خطوطاً محاذية لسواحل المتوسط أو يتتبّع مجاري الرياح الموسمية حول المحيط الهندي. وقد أتاح التقدّم المُحرز مؤخراً في مجال التنقيب الأثري تحت سطح البحر، استكشاف مواقع السُفن الغارقة، كتلك السفينة العائدة إلى القرن الحادي عشر التي تمّ العثور عليها في سرجي ليماني قبالة الشواطىء التركية. وكانت الغلّة من ذلك الموقع كمية ضخمة من كُسارة الزجاج المُعدّة لإعادة التذويب.



كازاخستان
منغوليا
بحر أرال
مدينة تركستان
أوزبكستان
قيرغيزيا
تركمنستان
طاجيكستان
بخارى
سمرقند
مرو
مشهد
هراة
كابول
غزنة
أفغانستان
إيران
كرمان
بام
لاهور
كشمير
ملتان
باكستان
دلهي
فاتح بور
سكري
أغرا
أجمير
جاونبور
ساسرام
كراتشي
أحمد آباد
ماندو
النيبال
بوتان
كالكوتا
باندوا
بنغلادش
الهند
بومباي
بيجابور
حيدرآباد
جلبارجا
بنغالور
مدراس
سري لانكا
بحر العرب
عُمان
المحيط الهندي
الصين
بيجينغ (بكين)
تيانجين
شنيانغ
ماربين
شيان
نانغزو
شنغهاي
ووهان
تشنغدو
تشونغكنغ
غوانغزو
هونغ كونغ
تايوان
هاينان
كوريا الشمالية
سيئول
كوريا الجنوبية
بورما
رانغون
لاوس
فيتنام
تايلاند
بانكوك
كمبوديا
هوشي منه
لوتزون
مانيلا
الفلبين
ميندناو
ماليزيا
ملقا
سومطرة
بورنيو
سولاويزي
جاكارتا
جاوة
اندونيسيا



مواقع معمارية وأثرية
قصور
مساجد ومبان دينية أخرى
أضرحة
دور سكنية
قلاع وتحصينات
جسور
سفن غارقة
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
البحر الأسود
بحر قزوين
المملكة المتحدة
هولندا
بلجيكا
لوكسمبورغ
فرنسا
سويسرا
ألمانيا
بولندا
روسيا البيضاء
أوكرانيا
مولدافيا
رومانيا
المجر
النمسا
تشيكوسلوفاكيا
البوسنة والهرسك
يوغسلافيا
بلغاريا
ألبانيا
اليونان
إيطاليا
إسبانيا
البرتغال
تركيا
جورجيا
أرمينيا
أذربيجان
سورية
لبنان
فلسطين
الأردن
العراق
المملكة العربية السعودية
قطر
اليمن
مصر
ليبيا
تونس
الجزائر
المغرب
الصحراء الغربية
موريتانيا
مالي
النيجر
تشاد
السودان
إثيوبيا
الصومال
كينيا
أوغندا
تنزانيا
الكونغو
الغابون
الكاميرون
نيجيريا
بنين
توغو
غانا
ساحل العاج
ليبيريا
غينيا
السنغال
بوركينا فاسو
لندن
باريس
برلين
وارسو
روما
بلغراد
موستار
إستانبول
أثينا
بودروم
باليرمو
الجزائر
تلمسان
فاس
الرباط
مكناس
مراكش
غرناطة
قرطبة
طليطلة
لشبونة
سرقسطة
القيروان
سوسة
صفاقس
جربة
طرابلس
أجدابيا
الإسكندرية
القاهرة
أسوان
قوص
القصير
دمشق
حماه
حلب
الرقة
القدس
عمان
غزة
بغداد
الموصل
سامراء
البصرة
الكوفة
الأخيضر
ملطية
قونية
قيصرية
أماسيا
أرضروم
ديار بكر
بورصة
إزنيق
شيراز
إصفهان
أصفهان
قم
طهران
تبريز
سلطانية
أردبيل
المدينة
مكة
جدة
الطائف
الرياض
البحرين
صنعاء
زبيد
شبام
سواكن
الخرطوم
أديس أبابا
مقديشو
لامو
نيروبي
جدي
زنجبار
دار السلام
كلوة
كينشاسا
لواندا
لاغوس
أكرا
أبيدجان
كوناكري
تمبكتو
غاو
جنة
كانو
زاريا
أغاديس
شنقيط
مدار السرطان
خط الاستواء

توزّع المسلمين في العالم (عام 2000)

هنالك ما يُقارب المليار ومئتي ألف مسلم في العالم اليوم، أي ما يُناهز خُمس تعداد البشرية. والغالبية العُظمى منهم يقيمون في الحزام الأوسط من المناطق الممتدة من إندونيسيا شرقاً إلى ساحل شمال إفريقيا على الأطلسي غرباً. وعلى ضوء تمدّد الإسلام التاريخي نحو الأقاليم الاستوائية في جنوب وجنوب شرقي آسيا، حيث طريقة الزراعة التكثيفية تسمح بدرجة تركز



سُكَانية عالية، فإن البلد المسلم الأكبر حجماً من حيث عدد السكّان (182 مليوناً) هو إندونيسيا. وهذا البلد بعيدٌ جداً عن المنبت أو الرَّحِم الذي ولد فيه الإسلام؛ أعني جنوب غربي آسيا. أما البلد الثاني من حيث الحجم السكّاني، فهو باكستان التي تعدّ 134 مليون نسمة، تليها الهند (121 مليوناً)، وبنغلادش (114 مليوناً)، ومصر (61 مليوناً)، ونيجيريا (61 مليوناً). ومن بين البلدان الإسلامية الستة الأولى التي تضم أكثر من نصف عدد مسلمي العالم، وحدها مصر تنطق بالعربية، وأضحت جزءاً من العالم الإسلامي في زمن متقارب ونشأة الإسلام. وفي واحدٍ من هذه البلدان الستة، الهند، يعيش المسلمون كأقلية. صحيح أنها أقلية ضخمة، لكنها لا تزال قابلة للعطب. من الوجهة الديمغرافية، يجوز القول إن الإسلام «القديم» الذي أبصر النور في مجرى الفتوحات الإسلامية، قد لحق به بل وتخطّاه الإسلام «الفتي» في المناطق الاستوائية إجمالاً.

ومن الناحية الطائفية والمذهبية، فإن حوالى 85 بالمئة من مسلمي العالم ينتمون إلى التيار الرئيسي للدين الإسلامي، أعني المذهب السُّنّي؛ وهم يندرجون من حيث العُرف وإن ليس دائماً بالممارسة إلى أحد المذاهب السُّنيّة الأربعة: المذهب الحنفي، وكان المذهب الرسمي للأمبراطورية العثمانية، ويسود في الممتلكات العثمانية السابقة، بما فيها بلاد الأناضول والبلقان، وكذلك في بلاد ما وراء القوقاز وأفغانستان، وباكستان، والهند، وجمهوريات آسيا الوسطى والصين؛ والمذهب المالكي، الذي يطغى في المغرب وبلدان غرب إفريقيا؛ والمذهب الشافعي، الذي يُعمل به في مصر وفلسطين والأردن، ومناطق اليمن الساحلية، وبين قطاعات من مسلمي كلٍ من باكستان والهند وإندونيسيا؛ وأخيراً، المذهب الحنبلي، وهو المذهب الساري في المملكة العربية السعودية. على أية حال، لقد تعايشت مذاهب فقهية مختلفة زمناً طويلاً في بعض المناطق، وثمة قدر كبير من التداخل والتشابك فيما بينها في بلدانٍ كمصر، حيث سمحت الحداثة الفقهية بـ«تلفيق» أحكام شرعية من شتّى المذاهب.

يُمثل المسلمون من غير السُّنّة حوالى 15 بالمئة من مجموع المسلمين في العالم. فالخوارج الذين انشقوا عن الجسم الرئيسي للإسلام في عام 660، مُمثَّلون من خلال نسخة معدّلة عنهم تُعرف بـ«الإباضية» في

عُمان، وزنجبار، وتاهرت في الداخل الجزائري. أما الشيعة، فيتركّزون في إيران، وجنوب العراق، والكويت، والبحرين، بالإضافة إلى أقلّيات ليست بالصغيرة منهم في كلٍ من أفغانستان (3,8 ملايين أو 15 بالمئة من السكّان)، الهند (30 مليوناً أو 3 بالمئة)، لبنان (1,2 مليون أو 34 بالمئة)، باكستان (28 مليوناً أو 20 بالمئة)، سورية (مليونان أو 12 بالمئة)، تركيا (3 ملايين أو 20 بالمئة)، الإمارات العربية المتحدة (حوالي نصف مليون أو 16 بالمئة)، واليمن (7 ملايين أو 40 بالمئة). والسواد الأعظم من الشيعة – حوالي 85 بالمئة – ينتمون إلى الشيعة الإمامية أو الاثني عشرية. ومعظم الشيعة الإمامية يتقيّدون بواحدٍ أو بآخر من كبار الزعماء الدينيين، أو «آيات الله العُظمى»، الذين يُعرفون بـ«المراجع» (مراجع التقليد أو الاجتهاد)، ويتّخذون صفة المفسّرين المؤهلين للشرع الإسلامي. والطائفتان الشيعيتان الأخريان هما: الزيدية في اليمن، والإسماعيلية أو الشيعة السبعية مُمثّلة بمذهبين ما برحا قائمين إلى يومنا هذا. ويعود هذان المذهبان في منشئهما إلى الخلافة الفاطمية: المستعلية، ويُعرف أتباعها في جنوب آسيا وشرق إفريقيا بـ«البهرة»، وهم يتبعون الداعي المطلق للإمام/الخليفة الفاطمي المستعلي بالله (ت 1101)؛ والنزارية، ويتبع أصحابها زعيمهم الروحي: الآغا خان، وهو نبيل من ذرّية فارسية تتحدّر من محمد بن إسماعيل الذي يُعتبر بمثابة إمامهم الحيّ. وقد عاش النزاريون ضمن جاليات صغيرة في سورية وإيران وآسيا الداخلية وشمال غربي الهند إلى حين هجرتهم إلى إفريقيا والغرب ابتداءً من القرن التاسع عشر.

إن العديد من المسلمين الملتزمين سواء أكانوا من السُنّة أم من الشيعة، يتقيّدون بأحكام واحدٍ من المذاهب الفقهية آنفة الذكر. لكن الحاصل أنه في العديد من البلدان ذات الأغلبية المسلمة، جرى إدماج عناصر من الشرع الإسلامي، ولا سيما القوانين المتعلّقة بالأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والميراث، في صُلب النظام القانوني للدولة. ففي معظم البلدان الإسلامية، أقدمت الدولة الحديثة، بدءاً بالإصلاحات، أو «التنظيمات» العثمانية التي وضعت المؤسسات الإسلامية تحت سيطرة الدولة بالتدريج، على اجتراف استقلالية رجال الدين الذين طالما احتكروا تأويل ونشر وتطبيق أحكام الشريعة في الماضي. وفي الوقت عينه، أصاب الوهن سلطتهم الدينية، القائمة على الحقّ الحصري في الوصول إلى النصوص المقدسة، بفضل التوسُّع في التعليم الثانوي وانتشار معرفة القراءة والكتابة. فالعديد من الحركات الإسلامية يقودها ويدعمها أناسٌ تلقّوا تعليماً تقنياً حديثاً، وحصّلوا تعليمهم الديني رأساً من النصوص الأوّلية أو الثانوية، وهي القرآن والحديث وكتابات المفكّرين والفقهاء المحدثين، وليس بواسطة الدراسة الفقهية التقليدية.

قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن الاتجاه نحو ما يُمكن تسميته بعلمنة السلطة الدينية في الإسلام أو جعلها ديمقراطية، قد يُفضي إلى صيغٍ أكثر تشدداً وسلفيةً، كتلك التي تروّج لها منظمات من قبيل «رابطة العالم الإسلامي» التي مقرّها في المملكة العربية السعودية. غير أنه بالرغم من كل هجمات الإصلاحيين وما يجوز وسمها بـ«الأمبريالية الدينية» المنبثقة من مناطق إنتاج النفط، الغنية مالياً إنما المحافظة ثقافياً، فقد أثبتت تقاليد الصوفية المتسربلة بالغيبيات أنها على درجة عالية من الرجوعية والقدرة على التكيُّف. ففي إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، وفي العديد من مناطق آسيا، ومنها الجمهوريات السوفييتية السابقة، نجد صيغاً من الإسلام طلع بها زعماء كاريزميون تمرّسوا في مجالات تهذيب النفس والتحكُّم بالغرائز والأهواء (وهي مجالات تُكمِّل وإنْ كانت لا تحلّ بالضرورة محل الفرائض الدينية المعتادة من صلاة وصيام وزكاة وحجّ)، لا تني تُسجِّل تقدماً وتبني على مأثورات جرى تناقلها زمناً طويلاً إما بالتواتر الشفهي أو من خلال العلاقات الشخصية. إن التنوّع الشديد الذي يسم المعتقدات والعبادات الإسلامية، كما هي ثاوية أو «مجمّدة» في النصوص، ما هو إلا وجهٌ من معجميتها الرمزية الغنية وذخيرتها الوافرة من المعاني. وإذ تأخذ الأشكال العتيقة من السلطة الدينية طريقها إلى الانحلال وينكشف عجزها أكثر فأكثر عن مواجهة تحدّيات الحداثة، تخرج إلى حيز الوجود أشكال بديلة من السلطة الروحية والقوى الاجتماعية سواء بسواء.

رفع الأذان لدعوة المؤمنين إلى الصلاة؛ صوتٌ يتردد صداه عبر العالم الإسلامي البالغ التنوّع.


الاتحاد الروسي
نوفايا زمليا
السويد
فنلندا
هلسنكي
سان بطرسبرغ
إستونيا
لاتفيا
ليتوانيا
روسيا البيضاء
موسكو
نيجني نوفغورود
بيرم
يكاترنبرغ
أومسك
نوفوسيبيرسك
سمارة
أوكرانيا
كييف
خاركوف
مولدافيا
رومانيا
بلغاريا
فولغوغراد
روستوف
كازاخستان
منغوليا
جورجيا
أرمينيا
أذربيجان
أوزبكستان
تركمنستان
قيرغيزيا
طاجكستان
تركيا
أنقرة
اليونان
سورية
لبنان
فلسطين
العراق
بغداد
إيران
طهران
الكويت
الأردن
أفغانستان
كابول
باكستان
كراتشي
لاهور
دلهي
نيبال
بوتان
الهند
أحمد آباد
بومباي
حيدر آباد
مدراس
بنغالور
سري لانكا
بنغلادش
دكا
بورما
رانغون
تايلاند
بانكوك
كمبوديا
الصين
تشنغدو
ووهان
شنغهاي
غوانغزو
هونغ كونغ
تايوان
جزيرة هاينان
هاربين
بيجينغ (بكين)
تيانجين
كوريا الشمالية
كوريا الجنوبية
سيئول
بوزان
اليابان
طوكيو
يوكوهاما
هوكايدو
هونشو
سخالين
لوزون
مانيلا
الفلبين
مينداناو
بروناي
ماليزيا
بورنيو
سومطرة
جاكارتا
جاوة
سولاويزي
إندونيسيا
تيمور الشرقية
بابوا غينيا الجديدة
أستراليا
بيرث
بريزبان
سيدني
أديلاييد
ملبورن
نيوزيلاندا
ليبيا
مصر
الإسكندرية
القاهرة
المملكة العربية السعودية
الرياض
قطر
الإمارات العربية المتحدة
عُمان
اليمن
إرتيريا
جيبوتي
تشاد
السودان
الخرطوم
أديس أبابا
إثيوبيا
الصومال
جمهورية إفريقيا الوسطى
أوغندة
كينيا
نيروبي
الكونغو
كينشاسا
رواندا
بوروندي
تنزانيا
دار السلام
ملاوي
أنغولا
زامبيا
موزامبيق
زيمبابوي
بوتسوانا
مدغشقر
مابوتو
سوازيلاند
جوهانسبرغ
دربان
ليسوتو
جنوب إفريقيا
كيب تاون
45°
60°
75°
90°
105°
120°
135°
150°
165°
180°



تعداد المسلمين لكل دولة في العالم اليوم
أكثر من 85%
أكثر من 50%
أكثر من 20%
أكثر من 5%
أكثر من 1%
أقل من 1%
مسلمون شيعة في الغالب
الاسكا (الولايات المتحدة)
أنكوراج
جزيرة فيكتوريا
جزيرة بافن
غرينلاند
أيسلندا
ريكيافيك
كندا
ادمنتون
ساسكاتون
كالغاري
ريجينا
وينيبغ
فانكوفر
سياتل
بورتلاند
دلوث
كويبك
مونتريال
هاليفاكس
نيوفوندلند
سانت جونز
مينيابولس
ميلووكي
شيكاغو
تورونتو
ديترويت
بوسطن
نيويورك
فيلادلفيا
بالتيمور
واشنطن
سنسناتي
سالت لاك سيتي
كنساس سيتي
سان فرانسيسكو
لوس أنجلس
سان دييغو
فينكس
أتلانتا
نيو أورليانز
هيوستن
مونتري
ميامي
الولايات المتحدة الاميركية
المكسيك
مكسيكو
كوبا
هايتي
جمهورية الدومينيكان
جامايكا
بليز
غواتيمالا
هندوراس
السلفادور
نيكاراغوا
ماناغوا
سان خوسيه
كوستاريكا
باناما
كاراكاس
فنزويلا
غويانا
سورينام
غويانا الفرنسية
بوغوتا
كولومبيا
كيتو
الاكوادور
بليم
البرازيل
رسيف
البيرو
ليما
سلفادور
لاباز
بوليفيا
برازيليا
باراغواي
ريو دي جانيرو
ساو باولو
أوروغواي
سنتياغو
بوينس أيرس
الأرجنتين
مونتفيديو
تشيلي
بونتا أرناس
النرويج
أوسلو
المملكة المتحدة
الدنمرك
كوبنهاجن
إيرلندا
هولندا
روتردام
لندن
برلين
ألمانيا
بلجيكا
لوكسمبورغ
باريس
فرنسا
إيطاليا
روما
البرتغال
إسبانيا
مدريد
لشبونة
الجزائر
تونس
الرباط
الدار البيضاء
المغرب
طرابلس
الجزائر
الصحراء الغربية
موريتانيا
مالي
النيجر
السنغال
دكار
غامبيا
غينيا بيساو
غينيا
كوناكري
سيراليون
ليبيريا
بوركينا فاسو
ساحل العاج
غانا
بنين
نيجيريا
لاغوس
أكرا
أبيدجان
توغو
الكاميرون
غينيا الاستوائية
الغابون
جمهورية الكونغو
لواندا
ناميبيا

السينما الإسلامية

دخلت صناعة السينما المجتمعات الإسلامية بعد زمن وجيز من ظهورها في الغرب، وقد عُرضت في بادىء الأمر على جمهور مُنتخب من المشاهدين. فلم تمضِ بضعة أشهر على الظهور الأول للسينما في أوروبا عام 1896، حتى كانت أفلام الأخوين لوميير تعرض على الشاشة في العالم العربي لجمهور من النخبة في غالبيته. ففي مصر، على سبيل المثال، كانت العروض السينمائية تُقدَّم في مبنى بورصة طوسون بالإسكندرية، وفي المغرب داخل القصر الملكي بفاس. أما في تركيا، فالعروض كانت تتمّ في بلاط السلطان، أي في قصر يلدز بإستنبول. وفي عام 1900، سافر العاهل الإيراني مظفر الدين شاه إلى فرنسا خصيصاً لمشاهدة «السينما توغرافيا» و«الفانوس السحري».



وفي السنة عينها، صوّر ميرزا إبراهيم خان، مصوّر الملك الخاص، فيلمه «حفل الأزهار» في بلجيكا، مُخرجاً بذلك أول فيلم إيراني في تاريخ السينما.

أبصرت صناعة السينما المحلّية في تلك الأقطار النور بفضل جهود الأجانب أو أفراد من الأقليات فيها. ونسوق مثالاً على ذلك، سيغموند وينبرغ، الروماني من أصل بولندي، الذي شرع يعرض الأفلام على الجمهور العام في حانة لاحتساء البيرة في ميدان غلاطة بإستنبول. وفي إيران، بدأ أوهانس أوغانيان، الإيراني من أصل أرمني، ببناء دُور السينما للعموم في عام 1905، وأنشأ أول مدرسة لتعليم السينما في عام 1929، وأنتج أول فيلم روائي إيراني في عام 1930.

كانت معظم أنحاء إفريقيا وآسيا عُرضةً للتصوير السينمائي كجزء من التجربة الاستعمارية التي كانت تعيشها. فكان أن شكّل العالم العربي بدرجة كبيرة ستارة خلفية مثيرة للأفلام الغربية. وهكذا، فُتن الجمهور الفرنسي بشمال إفريقيا، واجتذبت فلسطين اهتماماً واسعاً بحكم كونها الأراضي المقدسة، وأسرت مصر فضول الناس لتاريخها الغابر. وإذا كانت صناعة السينما الاستعمارية قد أنتجت قرابة 200 فيلم في شمال إفريقيا، فإن ستة منها فقط شارك فيها ممثلون عرب.

وأدى إدخال الصوت باللّغات العاميّة إلى إعطاء إنتاج الأفلام المحلّية دفعة قوية. فالسينما المصرية، على سبيل المثال، اجتذبت المستثمرين والمشاهدين المحليين على السواء عندما أشركت موسيقيين ومغنين مصريين شعبيين من أمثال المطربة أم كلثوم في أفلامها. هذا ولم تكتفِ السينما المصرية بأن صارت قوة موجِّهة في البلدان العربية الأخرى، بل تركت كذلك بصماتها واضحة على الفن السينمائي في بلدان بعيدة جداً عنها كالأفلام الناطقة بالفارسية في إيران ما قبل الثورة الإسلامية. غير أن صناعة السينما الوطنية لم يتسنَّ لها أن تحرز تطوراً في معظم البلدان العربية الأخرى بسبب القيود المالية والضغوط الاستعمارية. وأغلب هذه البلدان لم تعرف صناعة السينما إلا بعد نيلها الاستقلال (لبنان وسورية في الأربعينيات من القرن العشرين، وبلدان شمال إفريقيا في الخمسينيات ومطلع الستينيات من القرن نفسه).

إبّان الحقبة الاستعمارية، كثيراً ما كانت الأفلام المستوردة إلى الأقطار العربية وسيلةً من جملة الوسائل لخدمة أغراض قوى الاستعمار. حتى اليابانيون لجأوا إلى استخدام صناعة السينما الإندونيسية الوليدة لدعم مجهودهم الحربي إبّان احتلالهم إندونيسيا في الفترة 1942–1945. وفي الوقت عينه، أسهمت السينما في تقييس اللغة الإندونيسية لتغدو اللغة القومية للبلاد. في العالم

العربي، اتخذ الإنتاج السينمائي منحى قومياً واشتراكياً متعاظماً بعد الاستقلال، حيث دأبت كل من سورية والجزائر وتونس تتوسّل الفن السينمائي للإعلاء من شأن هويتها القومية على الشاشة. وفي إيران، دشّن فيلم «البقرة» لداريوش مهرجوي، الفائز بإحدى الجوائز السينمائية، وكذلك فيلم «قيصر» لمسعود كيميئي، وكلاهما أُنتجا في العام 1969، بداية ما يُعرف بـ«الموجة الجديدة» في السينما الفنية الإيرانية، التي راحت الأفلام الإيرانية بعدها تنال إطراءً عالمياً متزايداً. وحوالى الفترة ذاتها، وبالتحديد في عام 1970، شكّل فيلم يلماز غوناي «الأمل»، الحائز هو الآخر على إحدى الجوائز السينمائية، نقطة انعطاف في السينما التركية ودشّن مرحلة «الموجة الجديدة» من الأفلام التركية.

في الفترة 1978–1982، واجه السينمائيون في إيران مستقبلاً غامضاً نتيجة لعدم الاستقرار المالي وقلّة اهتمام الحكومة بالسينما خلال المرحلة الانتقالية، ناهيك عن أمور أخرى غيرهما. وفيما عدا بعض الاستثناءات القليلة، لم يُصر إلى إنتاج أية أفلام من النوعية الجيدة في تلك الفترة. قبل الثورة، كان علماء الدين في معظمهم يرفضون السينما أو يتجاهلونها. لكن الإسلاميين، بعد الثورة، أدركوا ما لها من قوة مؤثّرة وقرّروا وضعها تحت إشرافهم وتوجيههم. وهكذا، صار تبنّي السينما عند الخميني بمثابة سلاح أيديولوجي يُحارب به الثقافة الممالئة للغرب والإمبريالية لنظام حكم بهلوي. وفي عام 1989 (عام وفاة الخميني)، ظهرت أفلام، ومنها فيلما «باشو» و«الغريب الصغير»، لتكسب السينما الإيرانية من جديد إعجاباً وتقديراً على نطاق العالم. والسينما الإيرانية بإفساحها المجال هكذا أمام خطابٍ لا يني ينمو ويتطور داخل المجتمع، إنما تكرّست أداةً خطيرة الشأن في عملية التغيير نفسها.

شهدت الثمانينيات من القرن العشرين بدء انسحاب الدول العربية من مضمار الإنتاج السينمائي. فقد وقعت صناعة السينما الجزائرية في الإفلاس، فيما واجهت نظيرتها المصرية أزمة اقتصادية خانقة. وجاء التلفزيون وإنتاج شرائط الفيديو بالجملة ليزيد من تدهور صناعة السينما في المنطقة كافة. فكان أن توجهت الأفلام نحو الإنتاج المشترك مع الغرب؛ وهذه هي الحال في بلدان شمال إفريقيا وسورية، ولاسيما في لبنان. وعند بداية الثمانينيات من القرن الماضي، حصل هبوط مفاجيء في عدد الأفلام المنتجة في تركيا، إلاّ أنه عاد وارتفع مجدّداً مع نهاية ذلك العقد.

تحرص معظم الدول في المنطقة على إحكام قبضتها على صناعة السينما لما لها، في عُرفها، من أهمية فائقة كوسيلة تغيير وأداة احتجاج. ففي تركيا، مثلاً، تعمل مثل هذه الرقابة الصارمة على مستويين: على مستوى السيناريو، وكذلك على مستوى الفيلم المُنجز. وثمة عملية مشابهة تحدث في إندونيسيا، حيث تتم الرقابة قبل تصوير المشاهد وأثناء عملية التوليف. وفي السينما الإيرانية، لا تخرج الأفلام بنسختها النهائية إلى شاشات العرض إلاّ بعد أن تنال ترخيصاً رسمياً من الدولة. وفي حالات قليلة يكون هذا الترخيص مطلوباً حتى في مرحلة كتابة النصّ. وفي معظم الدول العربية، يتعين على المشاريع السينمائية أن تستحصل مسبقاً على إذن رسمي بالتصوير، وذلك قبل نيل التراخيص الأخرى من وزارة الإعلام أو سواها من السلطات الرقابية بغية ضمان جدارتها التجارية.

وحريّ بنا أن نذكر هنا «بوليوود»، أي صناعة السينما الهندية التي تتخذ من مومباي (بومباي) قاعدة لها، ليس فقط لأنها كانت موضع تقليد ومحاكاة واسعة في كثير من البلدان الإسلامية، ولا سيما في عقودها الأولى، بل وبالنظر كذلك إلى الوجود المهمّ للمسلمين فيها ككتبة سيناريو ومنتجين وموسيقيين وممثلين... الخ. وهنالك أيضاً صنف من الأفلام السينمائية الهندية يُدعى «شاهنشاه» (ملك الملوك)، وهو يعود زمنياً إلى فيلم «بوكار» (1939) الذي تدور قصته حول الأمبراطور المغولي جيهانكير. إنه أول «فيلم اجتماعي إسلامي» جدير بالتنويه. ولئن استمرت شخصية هذا الأخير بالظهور في أفلام من الإنتاج الحديث، إلاّ أن الحضور المسلم فيها أخذ يرتدي طابعاً أقلّ ملوكيةً، مركّزاً في الأكثر على مشاكل الطبقة المتوسطة الإسلامية في شمال الهند... إلى أن اضمحل هذا الصنف السينمائي تدريجاً بعد سبعينيات القرن العشرين.

نشير، في الختام، إلى أنه وبعد غياب ملحوظ عن عالم السينما (أقلّ من أربعين فيلماً ما بين طويل وقصير)، عادت أفغانستان إلى مسرح السينما العالمية بفيلم: «أسامة» في العام 2003، وهو من إنتاج أفغاني – ياباني – إيرلندي مشترك. ولكونه أول فيلم سينمائي أفغاني ما بعد طالبان، فقد عُرض في مختلف مهرجانات السينما العالمية، بما فيها مهرجانا كان ولندن.

الصورة إلى اليمين: المخرجة السينمائية الإيرانية سميرة مخملباف تقف أمام عدسات المصورين بعد نيلها جائزة عن فيلمها «الخامسة بعد الظهر»، وذلك خلال الحفل الاختتامي لمهرجان «كان» السينمائي السادس والخمسين في أيار / مايو 2003. هي ابنة المخرج المحبوب محسن مخملباف، أخرجت فيلمها الأول «التفاحة» (1998) في عمر الثامنة عشرة. كذلك فإن فيلمها «اللوح الأسود» (2000) عن اللاجئين الأكراد على الحدود العراقية الإيرانية قد نال أيضاً جائزة في مهرجان «كان».

استخدام الإنترنت

قبل قُدوم العصر الرقمي، كانت المسائل الإسلامية المُثارة للنقاش أو المطروحة للحلّ تُعالج في كثير من الأحيان محلياً، من قبل عُلماء الدين، مفسِّري العقيدة الدينية المعترف بهم، القائمين بدور الوكلاء الرئيسيين للسُّلطات الدينية. وكان لانتشار معرفة القراءة والكتابة والتعليم الثانوي في الشطر السُّنّي من العالم الإسلامي، أثره المجترف لوزن وأهمية هؤلاء العلماء قبل وقت طويل من ظهور شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت). مع ذلك، فالإنترنت تُسهم في تسريع وتيرة هذه العملية بتسهيلها أمر اضطلاع الأفراد أنفسهم بالاجتهاد، استناداً إلى مصدرين أساسيين هما: القرآن والحديث. فيما مضى كانت المرجعية المعرفية حكراً على الفقهاء المؤهّلين دون غيرهم، لكن جاء هذا التطور المُذهل ليسحب البساط من تحت أقدام الهرمية التقليدية للمعرفة.

إن المسلمين المبحرين على الشبكة غير مضطرين بعد اليوم إلى استشارة المعاجم المفهرسة للقرآن أو مراجع الفقه الرزينة للتوصل إلى اجتهادات أو أحكام، بل حسبهم ببساطة أن ينفذوا إلى مواقع معيّنة على الشبكة، فيستعرضوا فيها بالمسح الإلكتروني الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية بمجرد النقر على كلمات مفتاحية بعينها. أو إذا شاؤوا، بإمكانهم إرسال أسئلتهم بالبريد الإلكتروني إلى مئات المواقع على الشبكة التي تقدّم الإرشادات الاجتماعية والمسلكية والدينية، وفي بعض الحالات، التوجيهات السياسية أيضاً. والكثير من المواقع ذات التمويل الجيد في المملكة العربية السعودية أو دول الخليج، غالباً ما تكون أجوبتها أميل إلى المحافظة، وقد لا تكون دائماً حسّاسة لظروف السائل الاجتماعية أو الاقتصادية. لنأخذ الأجوبة على أسئلة الشابات اللواتي يعشن في أميركا الشمالية بصدد ما ينبغي عمله بشأن المعاملة السيئة التي يلقينها من آبائهن، مثلاً. إنها قد لا تخرج عن تكرار التشديد على وجوب طاعة الآباء وواجبات الأبناء والبنات تجاههم، لا بل وتقدّمها حتى على حقوقهم كمواطنين.

بالنسبة للشيعة الاثني عشرية، وهي التي يقوم رجال الدين فيها وليس النصوص مقام المدبّر الرئيسي للسلطة الدينية، تؤمّن شبكة الإنترنت سهولة الوصول إلى أحكام مراجع التقليد الأحياء، من أمثال آية الله العُظمى السيستاني، المرجع الأكبر للشيعة في العراق. فصفحات موقعه على الإنترنت تُغطي مسائل وهموماً معاصرة، كبطاقات الائتمان، والتأمين، وحقوق المُلكية، وتشريح الجثة، والتبرع بالأعضاء، فضلاً عن طلب المشورة حول الواجبات والفرائض الدينية. ولبعض الطُرُق الصوفية مواقع على الشبكة تحكي بالتفصيل عن خطوط النسب الروحية لمشايخها، ونصوص الأوراد والأذكار المستخدمة في طقوسها. لكن، طالما أن الكثرة الكاثرة من الممارسات



الصوفية تبقى مغلقة في وجه الدخلاء من غير المنتمين إليها، فإن الطُرُق الأكثر تقليدية هي من يسهر على إدارة مواقع لها على الشبكة.

كذلك، الإسلام السياسي حاضر بقضّه وقضيضه على الإنترنت، بحيث يمكن للمرء الوصول بسهولة وسرعة إلى معظم الأحزاب السياسية الإسلامية من خلال مواقعها العديدة. كما أن قوى المعارضة موجودة هي الأخرى على الشبكة، وإنْ كان الوصول إلى مواقع الجماعات المحظورة دونه قيود وتعقيدات في بعض الحالات من جانب أجهزة الرقابة الحكومية. وثمة جماعات للنساء المسلمات تنشط في «الفضاء السيبرنتيكي» ضد الممارسات الأبوية من النوع الذي كان يُطبّقه نظام طالبان البائد في أفغانستان باسم تعاليم الإسلام «الحقّة».

رغم الانتشار السريع لخدمات الإنترنت في طول العالم الإسلامي وعرضه، تبقى النتائج البعيدة المدى لهذا الانتشار غامضة نوعاً ما. فمن جهة، ثمة خطاب إسلامي «كوني» آخذٌ بالبروز وبما يتجاوز حدود التقاليد والأعراف المحلية، بما فيها تلك السائدة ممثّلة بمؤسّسات عريقة كالأزهر في القاهرة. ومن جهة أخرى، لا يستطيع الخطاب الآخذ بالبروز هذا أن يتهرّب من معالجة موضوع التنوّع والمخالَفة، طالما أن الأقليات والجماعات المُخالِفة قادرة على تحدّي رأي التيار الرئيسي في تلك الثقافات، حيث تكون التعدّدية الدينية والسياسية عُرضةً للكبت في أغلب الحالات.



جدول زمني بأهمّ الأحداث الإسلامية

ن 570 – 622	محمد في مكّة
622–632	محمد في المدينة.
632–634	خلافة أبي بكر الصِّدِّيق. انتصار المسلمين في حروب الردة. توحد الجزيرة العربية.
634–644	خلافة عمر بن الخطّاب. فتح معظم أراضي الهلال الخصيب. مصر والقسم الأكبر من بلاد فارس. التوسُّع باتجاه شمال إفريقيا.
644–656	خلافة عثمان بن عفّان. تواصل الفتوحات شمالاً وشرقاً وغرباً. جمع القرآن وتوحيد النصّ.
656–661	الفتنة الأولى إبّان خلافة علي بن أبي طالب.
660، 668، 712	إخفاق العرب في الاستيلاء على القسطنطينية.
661	مقتل عليّ. إقامة الخلافة الأموية على يد معاوية في دمشق.
680	الفتنة الثانية. توريث معاوية الحكم لابنه يزيد يثير تمرد الحسين بن عليّ. استشهاد الحسين وأتباعه في كربلاء بالعراق.
685–705	عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، باني قبة الصخرة في القدس.
687–691	الخوارج يسيطرون على معظم أرجاء الجزيرة العربية.
711	العرب يتقدمون داخل إسبانيا
712–713	العرب يفتحون بلاد ما وراء النهر (بُخارى وسمرقند)
728	موت الحسن البصري، المعلّم الصوفي الأول.
732	موقعة بواتييه. شارل مارتيل يُوقف تقدّم العرب داخل فرنسا.
744–750	الفتنة الثالثة. السلالة الأموية تسقط على أيدي العبّاسيين (749) بسبب الضعف الذي نالها من جراء الانشقاقات والمنازعات الداخلية.
756	قيام الحُكم الأموي في إسبانيا
765	وفاة جعفر الصادق، سادس أئمة الشيعة. انقسام الشيعة إلى إسماعيليين، واثني عشرية، وزيديين.
767	وفاة أبي حنيفة (م 699)، مؤسِّس المذهب الحنفي في الفقه.
786–809	عهد هارون الرشيد، الخليفة النموذجي لعصر الإسلام الذهبي.
795	وفاة مالك بن أنس (م 713)، مؤسِّس المذهب المالكي.
801	وفاة رابعة العدوية (البصرية)، المتصوفة والشاعرة.
813–833	خلافة المأمون. صعود المعتزلة (العقلانيين) والمدرسة الاعتزالية في علم العقائد (أو علم الكلام).
820	وفاة الشافعي (م 767)، مؤسِّس المذهب الشافعي في الشرع الإسلامي.
847–861	خلافة المتوكل، الذي انقلب على المعتزلة.
861–945	تفكك أوصال الدولة العباسية مع استقلال الولايات تباعاً إلى أن فقدت سلطة الخلافة السيطرة تماماً على أراضيها.
870	وفاة البُخاري (م 810)، المحدّث (جامع الأحاديث النبوية).
873	وفاة مُسلم، المحدّث.
	«اختفاء» محمد المهدي، الإمام الثاني عشر للشيعة، أو «الإمام المنتظر».
873–940	«الغيبة» الصغرى، أو الاحتجاب الذي يتمثل خلاله إمام الشيعة الاثني عشرية بأربعة وكلاء.
874	وفاة أبي يزيد البسطامي، أول المتصوفة «السكارى».
909	تأسيس أول دولة فاطمية للإسماعيليين في إفريقية (تونس الحالية).
922	إعدام الحلاّج بتهمة الزندقة، و«الشهيد» بنظر المتصوفة المتأخرين.
929–961	الأمير الأموي عبد الرحمن الثالث يُنشىء خلافة أموية في قُرطبة بإسبانيا.
940	بداية «الغيبة» الكبرى، أو الاستتار الذي يفقد خلاله الشيعة الاثنا عشرية الاتصال بإمامهم.
945	البويهيون الشيعة يستولون على بغداد ويجعلون الخليفة العبّاسي رهينة فعلية لديهم.
969–1171	الخلافة الفاطمية (الإسماعيلية) في مصر.
998–1030	محمود الغزنوي (من غزنة، افغانستان حالياً) يغزو شمال الهند.
1037–1220	الأتراك السلاجقة، المنطلقون من أواسط إيران والزاحفون غرباً، يعيدون العقيدة السُنية التقليدية إلى قلب العالم الإسلامي.
1056–1167	المرابطون، الوافدون من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، يصدّون تقدم المسيحيين في إسبانيا.
1071	السلاجقة يهزمون الروم (البيزنطيين) في معركة ملازكرد، فاتحين بذلك برّ الأناضول أمام الاستيطان التركي.
1090–1118	الإسماعيليون النزاريون ينتفضون في وجه الخلفاء السُنّة.
1091	السلاجقة يتخذون من بغداد عاصمة لهم.
1096–1291	الصليبيون يحتلّون أجزاء من سورية وفلسطين.
1099	الصليبيون ينتزعون القدس من المسلمين.
1111	وفاة الغزالي (م 1058)، المتصوِّف والمتكلّم السُنّي.
1130	وفاة ابن تومرت، مؤسِّس السلالة الموحدية في إسبانيا.
1187	صلاح الدين الأيوبي يطرد الصليبيين من القدس.
1198	وفاة ابن رشد (م 1126)، الفيلسوف الأندلسي.
1205–1287	قيام سلطنة دلهي في الهند.
1220–1231	غارات المغول في بلاد ما وراء النهر وشرق إيران تعيث دماراً وخراباً في المدن.
1225	الموحدون يتخلون عن إسبانيا، وانحسار الوجود الإسلامي هناك ليقتصر على مملكة غرناطة الصغيرة (1232–1492) فقط.
1227	موت جنكيزخان.
1240	وفاة ابن عربي (م 1165)، شيخ الثيوصوفية الإسلامية.
1256	سقوط قلعة ألموت، آخر معقل إسماعيلي جنوبي بحر قزوين.
1258	خراب بغداد على أيدي المغول.
1260	المماليك، خلفاء الأيوبيين في مصر، يهزمون المغول، الذين

لم يعرفوا طعم الانكسار حتى الآن، في معركة عين جالوت بفلسطين.

ن 1300 بزوغ السلالة العثمانية (العثمانلي) في بيثينيا، على حدود بيزنطة في غرب الأناضول.

1326 العثمانيون يحتلّون بورصة، أول عاصمة حقيقية لهم.

1362 العثمانيون يحتلّون أدريانوبل (أدرنة حالياً) في البلقان.

ن 1378 صعود نجم تيمورلنك، التركي العامل في خدمة المغول في بلاد ما وراء النهر، ليغزو القسم الأكبر من آسيا الوسطى والغربية.

1389 العثمانيون يهزمون الصرب في كوسوفو بأواسط صربيا، بدعم من الألبان والبلغار والبُشناق والمجريين.

1405 موت تيمورلنك.

1453 محمد الفاتح (ح 1451–1481) يستولي على القسطنطينية ويُخضع الأمبراطورية البيزنطية.

1498 فاسكو داغاما يدور حول رأس الرجاء الصالح، مُنهياً بذلك احتكار المسلمين للتجارة في المحيط الهندي.

1501 صعود الدولة الصفوية في إيران. الشيعة الاثنا عشرية تُصبح العقيدة الرسمية للدولة.

1517 العثمانيون يفتحون مصر وسورية.

1526 معركة بانيبوت (الهند) تُتيح للأمير التيموري، بابر، أن يؤسّس الأمبراطورية المغولية (المُغلية) في الهند.

ومعركة موهاكس تجعل من الكاثوليك المجريين تابعين للأمبراطورية العثمانية.

1529 العثمانيون يُحاصرون فيينا.

1552 موسكو تضم خانات قازان.

1605–1556 عهد الأمبراطور المغولي الثالث، أكبر، الذي رعى التقارب الثقافي والديني بين الهندوس والمسلمين.

1699–1682 العثمانيون يخسرون المجر وبلغراد في الحرب مع النمسا وبولندا.

1718 الصلح في باسروفيتز يُكرّس ما فقده العثمانيون من مناطق لصالح آل هابسبورغ.

1739 العاهل الإيراني نادر شاه، يستبيح دلهي ويضع نهايةً لسلطة المغول في الهند.

1757 الوهّابيون ينتزعون الإحساء في شرق الجزيرة العربية.

انتصار بريطانيا في معركة بلاسّي يفتح الهند أمام التوسّع البريطاني.

1762 وفاة شاه وليّ الله، المُصلح الصوفي الهندي من الطريقة السيرهندية.

1774 معاهدة كوتشوك كينارجي. العثمانيون يفقدون شبه جزيرة القرم عقب هزيمتهم أمام روسيا. الاعتراف بالقياصرة الروس حُماةً للمسيحيين الأرثوذكس في البلاد العثمانية.

1779 قيام السُلالة القاجارية في إيران.

1807–1789 الإصلاحات العثمانية الأولى على النهج الغربي في عهد السلطان سليم الثالث.

1798 نابليون بونابرت ينزل في بر مصر ويهزم المماليك في معركة الأهرامات؛ غزوته تولّد اهتماماً بالثقافة الأوروبية.

1848–1805 محمد علي يُباشر عملية التحديث في مصر.

1817–1815 ثورة الصرب على العثمانيين.

1818 بريطانيا تصبح القوة صاحبة السلطة المطلقة في الهند.

1820 محمد علي يشرع في إخضاع السودان.

1830–1821 حرب الاستقلال اليونانية.

1830 بدء الاحتلال الفرنسي للجزائر.

إنشاء الخرطوم كموقع بريطاني – مصري متقدم في أعالي النيل.

1848–1832 القوى الأوروبية تُسارع إلى نجدة الأمبراطورية العثمانية في وجه اجتياح محمد علي لأراضيها.

ن 1839–1861 فشل «التمرد» الهندي يؤدي إلى إلغاء «شركة الهند الشرقية»، ويُمهّد السبيل لدمج الهند في صُلب الأمبراطورية البريطانية.

1859 الروس يهزمون الإمام شامل في القوقاز، ويُتبعون ذلك بضم الشيشان وداغستان إلى ممتلكاتهم.

1867 تأسيس أكاديمية ديوباند في شمال الهند من قبل فئة من المُصلحين الذين يُحاذرون الاتصال بالبريطانيين.

1868 اكتمال الضم الروسي لكازاخستان.

إمارة بُخارى تُصبح محمية روسية.

1869 افتتاح قناة السويس.

1875 انهيار خزانة الدولة المصرية. السويس تُباع للبريطانيين.

1876 إعلان أول دستور عثماني بعد وقوع ثورة في القصر.

1909–1876 السلطان عبد الحميد يُعلّق الدستور، ويُجري إصلاحات في مجالات التعليم والنقل والاتصالات من خلال الحُكم الاستبدادي.

1881 إعلان تونس محميّة فرنسية.

1882 احتلال بريطانيا لمصر.

1885 مقتل الجنرال غوردون (الملقب بـ«الصيني») في الخرطوم أثناء الثورة المهدية ضد الحُكم المصري المدعوم من بريطانيا.

1889 محمد عبده، تلميذ الأفغاني ومريده، يعود إلى مصر ويقرّر التعاون مع البريطانيين.

طلاب الأكاديمية العسكرية في استنبول، يُشكّلون أول تنظيم ثوري لـ«تركيا الفتاة» باسم «جمعية الاتحاد والترقي».

1897 وفاة السيد جمال الدين الأفغاني (م 1838)، المُصلح والداعية للوحدة الإسلامية الجامعة.

1898 الحركة المهدية في السودان تُمنى بالهزيمة على يد قوة إنجليزية – مصرية مشتركة بقيادة الجنرال كيتشنر في موقعة أم درمان.

وفاة السير السيّد أحمد خان (م 1817)، الشخصية الإصلاحية والتحديثية، ومؤسّس جامعة عُليكرة في الهند (1875).

1905 وفاة محمد عبده (م 1849)، مؤسّس الحركة الإصلاحية السلفية الحديثة.

1906 تأسيس «الرابطة الإسلامية» في الهند.

1908–1906 وقوع ثورة دستورية في إيران.

1908 ثورة «تركيا الفتاة»، تُجبر السلطان العثماني على إعادة العمل بالدستور والتئام البرلمان مجدداً.

1909 اعتماد جمهوريَنْ منفصلين للناخبين، أحدهما مسلم والآخر هندوسي، في الهند.

1911–1913 إيطاليا تنتزع طرابلس الغرب من العثمانيين.

1912 إعلان المغرب محميّةً فرنسية.

1914–1918 هزيمة الأمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى. إعلان مصر رسمياً محميةً بريطانية.

1916–1918 اندلاع الثورة العربية المدعومة من بريطانيا ضد الحُكم التركي بقيادة حسين، شريف مكّة، وابنه الأمير فيصل، والكولونيل الإنجليزي ت. إ. لورانس.

1917 وعد بلفور يفتح الباب أمام الاستيطان المتزايد ليهود أوروبا في فلسطين.

1917–1920 الثورة الروسية والحرب الأهلية في روسيا تفضيان إلى وقوع نزاعات سوفييتية – إسلامية في آسيا الوسطى. المسلمون في كازاخستان وأذربيجان والقوقاز يناضلون في سبيل الاستقلال الوطني.
القوات الروسية تطيح بجمهورية تركستان المستقلّة (1918) وتتسبّب باندلاع الثورة البسماتشية.
إدراج بُخارى وخيوة ضمن الجمهوريات السوفييتية.
انتساب بعض «التجديديين» المسلمين البارزين إلى عضوية الحزب الشيوعي.

1918 مؤتمر سان ريمو. عُصبة الأمم تُكلِّف دولاً بالانتداب على الولايات التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية، فتنتدب بريطانيا على فلسطين وشرقي الأردن والعراق، وفرنسا على سورية ولبنان.
الفرنسيون يطردون الأمير فيصل بن الحسين من دمشق، والإنجليز ينصّبونه ملكاً على العراق. وأخوه الأصغر، عبدالله بن الحسين، يُنصَّب ملكاً على شرقي الأردن. الزعيم المصري سعد زغلول يترأس الوفد المطالب باستقلال مصر. إبعاده عن البلاد يُشعل فتيل «ثورة» وطنية.
إلغاء السيادة العثمانية على مصر، فيما تحتفظ بريطانيا بحق الإشراف على شؤون الدفاع والسياسة الخارجية والسودان وقناة السويس.

1919–1922 حرب الاستقلال التركية. مصطفى كمال (أتاتورك) يجمع شمل القوى الوطنية التركية لإنزال الهزيمة بالغُزاة اليونانيين، وصدّ عمليات الإنزال الأوروبية على بر الأناضول.

1923 معاهدة لوزان تضمن وحدة وسلامة الأراضي التركية.

1924 آسيا الوسطى السوفييتية يُعاد ترتيبها تحت أسماء: جمهوريات أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان، وقيرغيزيا الاشتراكية.
إلغاء الخلافة العثمانية. المحاكم الشرعية التركية تُستبدل بمحاكم مدنية.
حركة «خلافت» الهندية تنحو باللائمة على البريطانيين لإلغاء الخلافة.
ابن سعود يجتاح الحجاز، فيطرد الشريف حسين من الجزيرة العربية ويضع حجر الأساس لمملكة وهّابية مُحدثة.

1926 تكبير الكيان اللبناني وفصله عن سورية تحت رعاية فرنسا وحمايتها.

1928 حسن البّنا، المدرّس المصري، يؤسّس تنظيم «الإخوان المسلمين».

1932 العراق ينال استقلاله ويُقبل في عضوية عُصبة الأمم.

1936 الفلسطينيون يثورون على الحكم البريطاني في فلسطين، وضد ازدياد الهجرة اليهودية من جراء وصول النازيين إلى السلطة في ألمانيا.
محمد علي جناح يتولّى قيادة «الرابطة الإسلامية»، مُنهياً بذلك دعم المسلمين لحزب المؤتمر.
دستور سوفييتي جديد يُنظّم آسيا الوسطى في ست جمهوريات اشتراكية سوفييتية (أوزبكستان، آذربيجان، كازاخستان، تركمانستان، طاجيكستان، قيرغيزيا)، وثماني جمهوريات اشتراكية سوفييتية ذات حكم ذاتي (تاتارستان، باشكيريا، داغستان... وغيرها من أقاليم القوقاز الواقعة تحت السيطرة الشيوعية).

1938 وفاة محمد إقبال، الشاعر/الفيلسوف، والأب الفعلي لدولة باكستان.

1940–1947 الرابطة الإسلامية تتبنى فكرة قيام دولة إسلامية منفصلة للمسلمين الهنود.

1941 البريطانيون يُخمدون تمرداً موالياً للمحور قام به ضباطٌ من الجيش العراقي.

1942 البريطانيون يُجبرون الملك فاروق على استبدال رئيس وزرائه الموالي للمحور بآخر أسهل انقياداً لهم وأكثر تعاطفاً مع قضية الحلفاء.

1943 بدء حملة الإرهاب الصهيوني ضد البريطانيين في فلسطين.

1945 تأسيس جامعة الدول العربية.

1946 الاعتراف باستقلال كل من شرقي الأردن، ولبنان، وسورية. أعمال شغب واسعة النطاق تندلع بين الهندوس والمسلمين في الهند.

1947 استقلال الهند. تكوين دولة باكستان من المناطق ذات الغالبية المسلمة فيما عدا كشمير.

1948 انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. هزيمة نكراء تحل بالجيوش العربية إثر الإعلان عن قيام دولة إسرائيل. نزوح الفلسطينيين عن ديارهم يخلق مشكلة لاجئين خطيرة. الأمير عبد الله، عاهل شرقي الأردن، يضم القدس الشرقية (بما فيها البلدة القديمة) والضفة الغربية إلى دولته.
رئيس الوزراء المصري، محمود النقراشي، يتعرّض للاغتيال.

1949 اغتيال حسن البنّا على أيدي عملاء أجهزة الأمن رداً على مقتل النقراشي.

1952 الإطاحة بالملكية في مصر بانقلاب قادة ضباط قوميون عرب يتزعمهم جمال عبد الناصر ويحظون بدعم حركة الإخوان المسلمين.

1956 عبد الناصر يؤمم قناة السويس؛ خطوة استدعت تدخلاً عسكرياً من إنجلترا وفرنسا، في تواطؤ سري مع إسرائيل.

1958 قلب النظام الملكي الموالي لبريطانيا في العراق، بانقلاب دموي قاده الزعيم عبد الكريم قاسم.

1963 الإطاحة بعبد الكريم قاسم في انقلاب عسكري قام به الضباط البعثيون بقيادة عبد السلام عارف.

1965 تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية.

1966 إعدام سيد قطب، الكاتب والأيديولوجي ذي النزعة الكفاحية الجامحة في تنظيم الإخوان المسلمين بمصر. مصرع الرئيس العراقي عبد السلام عارف في حادث طائرة.

1967 حرب الأيام الستة (في حزيران/يونيو) تنتهي بسيطرة إسرائيل عسكرياً على شبه جزيرة سيناء بأكملها، والضفة الغربية بما فيها البلدة القديمة من مدينة القدس، ومرتفعات الجولان السورية.

ياسر عرفات (أبو عمّار)، قائد منظمة فتح، أكبر المنظمات الفدائية الفلسطينية، يُنتخب رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية.

1968 سقوط الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف (شقيق عبد السلام عارف وخَلَفه في الحُكم) على يد الفريق أحمد حسن البكر. لكن السلطة الحقيقية في قبضة صدّام حسين التكريتي.

1969 الإطاحة بالنظام الملكي للأسرة السنوسية الموالية لبريطانيا في ليبيا، وذلك بانقلاب عسكري على النمط الناصري، بقيادة العقيد معمر القذّافي، البالغ من العمر 27 سنة.

تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي لتعزيز التضامن الإسلامي وتشجيع التعاون السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين البلدان الإسلامية.

1970 حافظ الأسد، قائد سلاح الجو السوري، ينتزع مقاليد السلطة في سوريا على رأس حزب البعث.

حرب أهلية في الأردن بين الجيش الأردني والفدائيين الفلسطينيين (ومن هنا منظمة «أيلول الأسود»).

أنور السادات يتبوأ رئاسة الجمهورية في مصر عقب وفاة جمال عبد الناصر.

1972 بنغلادش، باكستان الشرقية سابقاً، تفوز باستقلالها بمعاونة الجيش الهندي.

1973 حرب أوكتوبر/تشرين الأول (حرب رمضان/حرب يوم كيبور). مصر تقيم رأس جسر على الضفة الشرقية لقناة السويس، في أول نجاح كبير تحرزه الجيوش العربية ضد إسرائيل.

منظمة البلدان المصدِّرة للبترول [أوبك] التي تتزعمها إيران والمملكة العربية السعودية، تفرض زيادة قدرها أربعة أضعاف على أسعار النفط الخام، مما خلق لديها فائضاً هائلاً من «البترودولار» للاستثمار في تصنيع اقتصاداتها ولمساندة الحركات الإسلامية في العالم؛ وأدّى كذلك إلى حدوث ركود اقتصادي عالمي.

1975 اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، لأسباب تعود جزئياً إلى وجود اللاجئين الفلسطينيين المقاتلين والعمليات الانتقامية الإسرائيلية ضدهم.

1977 بدء التفاوض بين مصر وإسرائيل.

ضياء الحق، القائد العسكري الباكستاني، يغتصب السلطة ويفرض الأحكام العُرفية. إعدام الرئيس السابق ذو الفقار علي بوتو، وضياء الحق يشرع بتنفيذ برنامجه الخاص بأسلمة البلاد.

وفاة علي شريعتي (م 1933)، المفكّر والفيلسوف الإسلامي، في مدينة ساوثمبتون ببريطانيا.

1978–1979 استعمال الاضطرابات في إيران ضد ديكتاتورية الشاه محمد رضا بهلوي.

1979 آية الله الخميني يعود من منفاه في أوروبا ليقيم الجمهورية الإسلامية في إيران. أخذ 52 دبلوماسياً أميركياً رهائن واحتجازهم لمدة 444 يوماً. اتفاقية كامب ديفيد للسلام بين مصر وإسرائيل تدشّن العملية السلمية بين العرب والإسرائيليين.

وفاة أبو الأعلى المودودي (م 1909)، المفكّر والمنظّر الهندي – الباكستاني، ومؤسّس «جماعتي الإسلامي» (الجماعة الإسلامية).

الرئيس الباكستاني، ضياء الحق، يشرع بتطبيق «الحدود»، أي العقوبات المنصوص عليها في القرآن لصنوف معيّنة من السرقة والزنا وشرب الخمر.

الغزو السوفييتي لأفغانستان، دعماً للنظام الشيوعي المعتلّ. التدريب والتسليح الغربي للمجاهدين يخلق كادراً جيد الإعداد من المناضلين الإسلاميين.

1980–1988 الحرب الإيرانية – العراقية، الناجمة عن الاستفزازات العراقية لإيران، تتحوّل إلى أطول نزاع دولي مستديم في القرن العشرين، مُوقعة ما لا يقل عن نصف مليون ضحية على الجانب الإيراني فقط، فضلاً عن خراب اقتصادي هائل.

1981 متطرفون إسلاميون يغتالون الرئيس المصري أنور السادات.

1982 إسرائيل تجتاح لبنان وتطرد منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس.

1987 بداية الانتفاضة الفلسطينية. الجماهير الغفيرة تنتفض ضد الاحتلال الإسرائيلي؛ والأطفال، رُماة الحجارة، يشكّلون رأس الحربة في تلك الانتفاضة.

1988 الشيخ أحمد ياسين، رئيس المركز الإسلامي في غزة وعضو تنظيم الإخوان المسلمين الفلسطينيين، يؤسّس «حركة المقاومة الإسلامية» (حماس).

آية الله الخميني، المرشد الديني لإيران، «يتجرع السم» ويقبل بوقف إطلاق النار مع العراق. مقتل الرئيس الباكستاني ضياء الحق في حادث طائرة مريب.

صدور «الآيات الشيطانية» للكاتب البريطاني المسلم سلمان رشدي.

محمد محمود طه، زعيم الإخوان الجمهوريين والمُصلح ذو الميول الصوفية، يُعدم شنقاً بتهمة «الردّة» في السودان.

1989 الخميني يُصدر «فتوى» ضد سلمان رشدي، مما يحول دون

حدوث انفراج بين إيران والغرب برغم وجود برغماتيين في الحكومة الإيرانية.
وفاة الخميني (في حزيران/يونيو)، ليخلفه في منصب المرشد الديني الأعلى آية الله علي الخامنئي.
في الجزائر، فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ بـ 55 بالمئة من أصوات المقترعين في الانتخابات البلدية.

1990 الزعيم العراقي صدّام حسين يجتاح الكويت.

1991 عملية «عاصفة الصحراء» بقيادة الولايات المتحدة وبمساندة عسكرية من بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والمملكة العربية السعودية، ومصر، وسورية، وباكستان، تنجح في طرد القوات العراقية من الكويت.
انتفاضة شيعية في مدينتي النجف وكربلاء العراقيتين تُقمع بوحشية.
تفكك أوصال لاتحاد السوفييتي، بعد فشل الانقلاب العسكري على غورباتشيف، يؤدي إلى استقلال جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية إنما تحت حكم أفراد من الشريحة الطفيلية المتنفذة السوفييتية السابقة. التنافس بين القيادة الشيوعية السابقة والمعارضة الإسلامية في طاجيكستان يتمخض عن حرب أهلية مريرة ومُكلفة.
في الجزائر، الجبهة الإسلامية للإنقاذ تفوز بـ 49 بالمئة من أصوات الناخبين في الجولة الأولى من الانتخابات العامة. الجيش يتدخل للحوؤل دون فوز الجبهة في الجولة الثانية، ما أثار حرباً أهلية دامت ثماني سنوات يُقال إنها كبّدت البلاد مئة ألف قتيل على أقل تقدير.

1992 متشدّدون إسلاميون يُطلقون النار على الكاتب والمفكّر الإنساني المصري البارز، فرج فودة، ويردونه قتيلاً في القاهرة.
إقامة منطقتين يُحظر فيهما الطيران في شمال العراق وجنوبه لمنع هجمات القوات العراقية على السكّان الأكراد والشيعة. العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق تتسبّب بمصاعب جمّة للفئات الهشّة من المواطنين وفي طليعتهم الأطفال.

1994 اغتيال الشبّ حُسني، مطرب «الراي» الشعبي الجزائري في فرنسا. والطاهر جعوط، الروائي والناشر الحائز على عدة جوائز أدبية، يُردى قتيلاً خارج منزله في مدينة الجزائر.

1995 مقتل أكثر من سبعة آلاف مُسلم ومُسلمة في مذبحة سربرنيتشا بالبوسنة والهرسك، بعدما أخفقت قوات الأمم المتحدة في حماية الجيب المسلم من هجمات صرب البوسنة.

1996 حركة طالبان، المعوّلة على طلاب المدارس الدينية في أرياف أفغانستان، تستولي على كابول. برنامجها لوضع حد للعُنف، ينعكس سلباً على وضع النساء والأقليات في البلاد.

1997 مقتل أكثر من 60 سائحاً أوروبياً بالقرب من مدينة الأقصر في مصر على أيدي متطرفين إسلاميين.
محمد خاتمي، وزير الثقافة السابق، يُنتخب رئيساً للجمهورية في إيران.

1998 مقاتلو طالبان يُجهزون على ما يتراوح بين ألفين وخمسة آلاف فرد من طائفة الهزارة الشيعية بعد استيلائهم على مزار الشريف.
«القاعدة» تُهاجم سفارات للولايات المتحدة في شرق إفريقيا.

1999 عبد العزيز بوتفليقة، وزير الخارجية الجزائري الأسبق، يُنتخب رئيساً للجمهورية بناءً على برنامج للمصالحة الوطنية.
مظاهرات مؤيدة للديمقراطية في إيران تقمعها الشرطة بإيعاز من القوى المحافظة.
حملة من القصف الجوي يشنّها حلف شمالي الأطلسي تُجبر الصرب على التخلي عن كوسوفو، وتضع حداً للتطهير العرقي بحق المسلمين الألبان.
روسيا تقصف الشيشان تحت ذريعة محاربة «الإرهاب الإسلامي».

2000 (حزيران/يونيو) الروس يحتلون غروزني، عاصمة الشيشان.
في باكستان، الجنرال برويز مُشرّف يُطيح بحكومة نواز شريف المُنتخبة ديمقراطياً.

2001 (أيلول/سبتمبر) خاطفو طائرات انتحاريون مرتبطون بـ«القاعدة»، يهاجمون مركز التجارة العالمي في نيويورك ووزارة الدفاع (البنتاغون) في واشنطن، فيزهقون أرواح ثلاثة آلاف شخص تقريباً.
الولايات المتحدة تقصف أفغانستان وتزيل نظام طالبان من السلطة.

2002 (تشرين الأول/أوكتوبر) مجموعة إرهابية مرتبطة بـ«القاعدة» تقتل أكثر من 200 شخص، معظمهم من الأستراليين، في تفجير ملاهٍ ليلية في بالي بأندونيسيا.

2003 (آذار/مارس) الولايات المتحدة وبريطانيا تُهاجمان العراق من غير موافقة الأمم المتحدة، متذرعتين بأن صدّام حسين يخفي أسلحة دمار شامل. ولم يُعثر على أي أثر لتلك الأسلحة.
إرهابيون إسلاميون مرتبطون بـ«القاعدة»، يُقدمون على قتل مدنيين أبرياء في الدار البيضاء، والرياض، واستنبول، ومدن أخرى.
(كانون الأول/ديسمبر) القبض على صدّام حسين بالقرب من مسقط رأسه: تكريت.

2004 هزيمة الإصلاحيين في الانتخابات البرلمانية الإيرانية بعدما رفض «مجمّع تشخيص مصلحة النظام»، الذي يُسيطر عليه رجال الدين، طلبات ترشيح العديد من أنصار التيار الإصلاحي.

المحتويات

ماليز روثفن: من الكتّاب البارزين عن الإسلام والعالم الإسلامي. من مؤلفاته: «الأصولية: البحث عن معنى» (2004)؛ «الإسلام: مدخل وجيز جداً» (1999)؛ «غضب الربّ: الهجوم الإسلاموي على أميركا» (2002)؛ «مسألة شيطانية: سلمان رشدي وغضبة الإسلام» (1990)؛ «الإسلام في العالم» (1984 ، 2000). كتب عدة سيناريوهات لهيئة الإذاعة البريطانية، وحاضر في الدراسات الإسلامية والتاريخ الثقافي والأديان المقارنة في جامعات بريطانية وأميركية، وهو اليوم كاتب متفرّغ يقسم وقته ما بين لندن والنورماندي.

البروفسور عظيم نانجي: مدير معهد الدراسات الإسماعيلية في لندن. عمل سابقاً أستاذاً ورئيس دائرة الأديان بجامعة فلوريدا، وشغل مناصب عدّة في مختلف الجامعات الأميركية والكندية. من بين الكتب المنشورة له: «تمثيل الدراسات الإسلامية في خرائط» (1997)، و«الروزنامة الإسلامية» (1996).

إشادات بكتب ماليز روثفن:

الإسلام: مدخل وجيز جداً

«ممتاز» الغارديان

غضب الربّ

«عمل يتّسم بعمق الرؤية والاطلاع على خفايا الأمور»

كولن ثوبرون

«ممتاز... روثفن مُراقب رائق ولمّاح»

وليم دالريمپل

الإسلام في العالم

«استبصار غير عادي، وفكر يحفز على الاستزادة من معرفة الإسلام»

جون ل. اسپوزيتو



من غزوات النبي محمد ﷺ إلى معارك المجاهدين
نظرة بانورامية على 1500 سنة من تاريخ دينٍ وشعوبه

يجمع هذا الأطلس التاريخي الجديد، الصادر في أوانه تماماً، ما بين الرواية السردية لتاريخ الإسلام ومسار تطوره والعرض الشيق والجذاب لخرائط ورسوم بيانية غنية بالمعلومات والمعطيات. إنه يقدم لنا لوحة آسرة لواحدٍ من أعظم أديان العالم – دين تعتنقه خُمس البشرية – في وقتٍ لم يسبق قط أن بلغ الاهتمام بالإسلام هذه الدرجة من الشدّة وحبّ الاستطلاع. أعدّ الأطلس كاتبان يُعدّان من المراجع الثقات حول الإسلام، وقد جاء تصنيفه على نحوٍ يجعل منه مدخلاً ومرجعاً للقارىء العام وللطالب على حد سواء.

- يُغطي الأطلس الفترة الزمنية الممتدة من أواخر العصر القديم ما قبل الإسلام إلى يومنا الحاضر.

- يشتمل على تغطية مستقلّة لكل منطقة على حدة: الشرق الأوسط، وإفريقيا، وآسيا الوسطى، والهند، وجنوب شرقي آسيا، وأوروبا، وأميركا الشمالية.

- يضم الأطلس حوالى 100 خريطة ملوّنة تُبيّن لنا الطبيعة المتحوّلة للحدود والتركّزات السكانية وطرق التجارة الرئيسية، وتتابع صعود وسقوط السلالات الإسلامية الحاكمة والمذاهب الدينية، كما تستجلي كيفية توزُّع الثروات المعدنية والموارد المائية، والأنماط الزراعية، والمواقع الأثرية، والعديد من العناوين الأخرى.

- يحتوي على عدد كبير من الصور الفوتوغرافية والرسوم البيانية الملوّنة والعادية.



ISBN 9953-37-377-9
9 789953 373775